أحمد ضحية

مملكة العزلة

غربة بني هلال

بلدة الأرباب

الحب لن ينتظرك

رواية

إهداء

إلى القارئ الكريم.

هذه الثلاثية

هذه ملحمة سردية جديدة، شكل فيها السطر الواحد عالماً، ورقعة متسعة من الإبداع الجميل.

أنها عوالم في التاريخ والجغرافيا والإنسان، عبر عصور عاشت الغربة بكامل وعيها وإرادتها، متمرِّدة أو مستكينة!!

هي مئات من سنين وربما مائة سنة من العزلة كانت وتجددت، وعادت من جديد لعزلتها، بين فناء وحيَّاة متجددة ومتجذرَّة، اختلط فيها الواقعي بالسحري!

بل لا أغالي إذا قلت تم من خلالها فعل الحالتين، وتبدل موقعهما، معا ليشكلا أسطورَّة شديدة الزَّخم!

في هذه الرواية أحمد يؤسس لأكثر من ماكوندو.. فهنا كانت عوالم في الزمن والتجربة الإبداعية، بكل غناها وتفجراتها وحيواتها، وهذا السحري، الذي بنى عليه ولم يقف عند حد المعرفة، أو المشكل في الميثولوجيا عربياً أو أفريقياً، بل أكد على جديد في اكتشافات آنية، لم يلتفت إليها عبر العصور!

كان هناك خليط مرعب بين الكائنات، والله والأرض والسماء والكواكب والملائكة والبشر والريح.. المدن والطوفان والعشق والكره، والموت والتحليق والمعجزة السماوية، والأسطورة والإيمان، والكفر!

هذا التشظي والتفجر، يشي بعبقرية سردية قادمة بقوة، وآن لها أن تعلن عن قيامتها وبعثها!

شكراً.. وهل تصلح لك أيها العبقري؟ قرأت عزلة ماركيز مرَّة وأظن أنني سأقرأ ملحمتك عشراً وربما أكثر قبل أن أصل إلى السر الكامن خلف ما أسست!

ربيع عقب الباب

قاص وروائي مصري

عضو إتحاد كتاب مصر

أحمد ضحية

غُرْبَة بَنِي هِلاَلْ

"الجُزءِ الأَوَل من ثلاثية المواطن عابر السبيل"

رواية

إهداء

إلى وجوه حميمة، طي

ذكريات عالم قديم.

القسم الأول:

١

رائحة الشعراء..

رائحتهم تلك التي تفوح بالحكايا والنبوءات تداهمه، فيما هو منكب على رسائل ومدونات دبك، التي تنضح بالنبوءة الأكبر، من بين كل النبؤات..

نبؤة الحب..

هذا النوع الغريب من الحب، الذي جمع بين الكرسني وحجب النور.. فاطمة السمحة وود النمير.. هذا الحب.. البَّري المتوحش، المتعطش، الذي ربط بين كثيرين وكثيرات حفلت الرسائل والمدونات بتسجيل أدق تفاصيل تواصلهم..

هذا الحب الذي كاللعنة في تخلله لحياة البلاد الأسيرَّة وإسهامه فيما حل ويحل بها..

كحب أبوجريد لمسك النبي، الذي سيشكل حيَّاة الاشرمين من بعد.. حبه هو شخصياً للكساندرا التي يجئُ طيفها متسللاً رائحة اللافندر، المتماهية في أُغنية الحب لن ينتظرك:

Cause love ain't gonna wait for you Don't run, don't hide Love ain't gonna wait for you It's so good, it's so right Love ain't gonna wait for you You know that it's true

حياة دبك لغير المقربين منه، تبدو غريبة ومتناقضة في الآن نفسه، إذ تنهض في قدرته الفائقة على تسريب تلك المشاعر المتباينة والمتناقضة والتي هي الاختصار لمعنى الحب/القضية عنده..

إذ لم يكن ثمَّة فرق واضح، أو حدود فاصلة في ذاكرته المتعبة، بين حنينه إلى حبيبته نينا، وحلمه الموغل في الضباب:

مملكة "مارتجلو" القديمَّة، التي دفعه ايغاله في ذكرياتها البائدة، إلى محاولات السيطرة المتكررَّة على جلابي ودعربي!..

كان دبك كآدمو، مدفوعاً بهذه المشاعر المختلطة، التي كادت أن تودي بحياته، التي سيختمها هناك في آخر الدنيا، لا تؤانسه سوى ذكريات صراعه المستميت، وحبه المتجدد في عزلة البرد والصقيع..

كان دبك في شبابه رجلاً إستثنائياً، لا تنقصه الشجاعة. ويدرك أن أصعب شيء لمن هو مثله الإبتعاد عن الشر.. وظلت جلابي ود عربي، كأبي لكيلك الجنكويزي، هي التجسيد الحي لما يطلق عليه دبك شراً.

حبيبته نينا "الورتابة" تكرر مراراً بخفوت:

"نظراتك تخيفني.. تثقبني.. من أين جئت بهذه العيون؟"..

وكعادته عند تلقف يدها، لا يدري ما هو أفضل شيء، يمكن أن يقوله لها الآن في هذه اللحظة!..

دبك رغم مرور سنوات طوال، لا يزال يتذكر في قيلولاته المتكاسلة،كل ما مر بحياته من مرارّات وأسىٰ..

كأن كل شيء حدث البارحة فقط، وبين ذكرى وأخرى، يتوقف ليستعيد كل وقائع التاريخ المتواتر، لمملكة "مارتجلو" التي لم يعد لها وجود، منذ حل ود بندة بأرضها، ناقلاً هذه الذكريات والتاريخ لحفيده الكلس، في سبعة مدونات، ستؤرق قراءتها وتحليلها هذا الآخير لعشراتِ السنوات، إلى أن يقضي نحبه بين فخذي إمرأة عابرة، في إحدى المحطات النائية البعيدة، خارج حدود العالم المأهول!

وفيما أنامل غلوريا تحاول التسلل من فتحة بنطلون الكلس، لتمارس هوايتها المحببة: العبث بما تعتبره مقتنياتها الخاصة، المهاجرَّة عبر البحار، كان الكلس يحاول التركيز في قيادة عربته الشيفي الطاعنة في السن!

بينما تتبدى له شوارع برينسس آن.. هذه البلدة الرِّيفية الناهضة أقصى الساحل الشرقي لميريلاند، خالية من زحامها. يسودها صمت كئيب ألفته، خاصة في الشتاءاتِ الباردة كهذا الشتاء..

كانت حركة أورّاق الشجر، قد اختنق حفيفها المعتاد، عند ملامسة الهواء المكتوم.

كأن البلدة لم تعد هي البلدة ذاتها، التي أصطفت على جانبيها أشجار "الأوك" المتمايلة، بطيورها التي لا تتوقف عن التغريد، والتي تبادل فيها صبيحة اليوم، ثلاثة من الآفرو-أميركان، النار مع البوليس الفدرالي!

كأنها ليست البلدة ذاتها، التي شَهِدَت محاولات سطو الآفرو-أميركان الثلاث على مكتب البريد الوحيد، الذي ينتصب في منتصف "سمرست آفنيو" بتردد من يترقب حوالة مجهولة، تضل طريقها إليه!

عندما رد البوليس على نيران الآفرو-أميركان الثلاث -الذين كان قد أعتقد في البدء أنهم مكسيكيون- التي أنطلقت من أسلحتهم الأتوماتيكية، ساد الهرج والمرج أنحاء البلدة، التي لم يُخفي سكانها سخطهم، من عنف الشرطة، التي حملوها مسئولية مقتل إثنين، والحالة الخطيرة للثالث!

لا أحد يعرف كيف علمت أجهزة الإعلام الولائي بالخبر، إذ انتشر انتشار النار في الهشيم، ولاكته (سي إن إن)أكثر من مرَّة، خلال ذلك اليوم، مصوراً بالتفاصيل الدقيقة، منذ أتكأ أحد البلاك، على شجرة أوك عجوز، يُراقب الطريق، إلى أن داهم البوليس المكان!

كان الأهالي أثناء سخطهم -كالعادة في الأحداثِ المشابهة- قد أستعادت ذاكرتهم كل مرارّات الماضي، منذ جاءت سفن تجار الرقيق، تحمل أسلافهم لتحط بهم هنا، في هذه البلاد البعيدة!

"وفي ميدان البريد أمام الكنيسة كان يتم تصنيفهم، فيمضي بعضهم خدماً للمنازل، وآخرين للمزارع أو المصانع، أو الأشغال الأخرىٰ العديدة، التي كان يذخر بها العالم الجديد!

الفتيات الصغيرّات الجميلات فتحت لهن الملاهي وعلب الليل أحضانها، وآخريات أشرَّعت لهن وحدات الجيش الوليد أبوابها!

لاذت غلوريا بصمت اعتاده، وأناملها الرَّقيقة تتوتر، فيصدر احتكاكها بفتحة البنطلون تشنجاً غير مألوف.. يلاحظه للمرَّة الأولى!

إستمر غضب الأهالي لساعاتٍ، يُضفِي على البلدة مناخاً من التوتر والتحفز، إلى أن بدأت تسترد هدؤها المعتاد، شيئاً فشيئاً، وتعود إلى ذاتها المقموعة، كبلدة صغيرَّة معزولة على ساحلٍ مغمور للأطلسي الرهيب، تعتمد حركة الحياة فيها، على الفروع الصغيرة للمؤسسات الفدرالية والولائية، وبعض فروع الشركات الخاصة، ولولا الجامعة الصغيرة، التي قامت بموجب سياسات التمييز الإيجابي Affirmative Action لكانت حركة الحياة هنا شبه معدومة، خاصةً في الصيف، عندما يغادر الطلاب!

إذن كل شيء عاد إلى سيرته الأولى..كأن شيئا لم يكن!.. إذ أعتاد النَّاس هنا، العثور على جثث ضحايا صراعات حرب المخدرات، في الصبيحات الباكرة، متمزقة أمام دورهم، أو رؤية

أشخاص في الرَّمق الأخير، بأنوف نازفة وأجساد متمزِّقة، وثياب مضرجة بالدَّم، فالعنف جزء من مكونات هذه البلدة العرِّيقة!

العربات أيضاً أخذت تقل شيئاً فشيئاً، والبرودة الصقيعية تشتد، فتحاصر الأضواء المتراقصة بين الإضاءاتِ المتقطعة، إشارات المرور الملوَّنة، التي أخذ اللَّون الأخضر بينها، يأخذ زمناً أطول، قبل أن ينطفئ مفسحاً للبرتقالي فالأحمر، إلى أن ثبت تماماً بين أضواءِ الشارِّع المتَّراقصة، في هذا الطقس البارد الذي يصعب التنبوء بتقلباته!

غرقت البلدة الرِّيفيَة في الصَّمت.. وحدهما البار والنادي الليلي، كانا لا يزالان مشرعين أبوابهما يتحدان الصمت والمناخ!

ربما تبدأ بعد قليل ندف من الثلج في التساقط، وربما يختنق الجو تحت وطءِ مطر متقطع.. ربما تعصف رياح مثقلة بالرطوبة الضبابية العَكرَّة السبخة للغابات التي تسيج البلدة من كل إتجاه، فلا تتخللها سوى طرقات الأسفلت، والجسور، والبيوت المتناثرة، ومزارع الدواجن...

أوقف الكلس عربته الشيفي اللومينا القديمَّة.. صعد وغلوريا للدور الأول من المبنى العتيق، حيث شقته الصغيرة، التي تبدو من الداخل كعالم معزول.. غريب عن هذا المبنى الكبير، بجدارياتها ذات الوجوه الأفريقية، حادة التقاطيع، وتماثيل الأبنوس، التي توزعت في أنحاء الشقة في نظام دقيق!

فيما مضت غلوريا تخلع حذائها وثيابها لتستحم، وترتدي -كالعادة- قميص نوم شفاف يكشف كل شئ، كان هو قد شغَّل الراديو القديم، بعد أن ضبط موجاته، على إحدى الإذاعات المغرمة بـ "الكنتري ميوزيك" ثم مضى يفتح النوافذ، المطلَّة على الشارِّع المزدحِم بالمحلاتِ التجارية، قبل أن يُغير ملابسه، ويستلقىٰ في سريرِه المجاور لنافذته المحببة، التي يرصد منها حركة النَّاس وضجيجهم وإيقاع حياتهم اليومية الحافلة بالجنون!

ومثل كل ليلة.. ما أن يرمي بجسمه الفارع، متهالكاً على السرير، منتظراً غلوريا تنهض من التسريحة، بعد أن تكون قد فرغت من سقيا زهور الشرفة، وجاءت لتغفو على صدره، تفوح منها رائحة اللافندر، تتخلل طيوف الذكريات، أو هذه العوالم ذات الوقائع العجيبة، التي لا يدري كيف يسميها!

تأتي مُمزِّقةً كل الغلالات التي تلف قلبه وذاكرته، لتحتل فضاء الشقة، فلا يعد يرى سوى عوالم طاعنة في القِدم، تتفتق عن أصوات الماضي العريق، الذي يمُد جذوره في مملكةِ "مارتجلو" وود بندة وجلابي ودار صباح والأرباب..

فيمتلئ بشعورٍ رطب، عَطِّن، يتسرَّب من دريب الريح عند مفرق الأودية الثلاثة، ولا تلبث تسرباته تستحيل إلى تدفقٍ عارم، يعُطي نكهةً خاصة لهذا الجو المتقلب، الذي ينحاز في هذه اللحظة بالذات، إلى مطر يتساقط في وتيرةٍ واحدة، ما يضطرَّه للنهوض..

يُغلق النَّوافِذ.. يُسدِل الستائر، فتصبح الشقة، أشبه بسفينةٍ غارقة، في بحر من الضوء الخافت، الذي يبتلعها جزءً فجزء!..

فتطفو على السطح الممالك المتعاقبة، لعالم البلاد الأسيرَّة، ضاربة القِدم. في هذا الفضاء الحُلمُي، المعتق في الأطياف الباهتة، التي تبدأ في التشكل شيئا فشيئا، ليجد الكلس نفسه واقفا عند ودبندة، الذي كان وقتها يجوسُ في مستنقعاتِ الماضي، فيما كانت بت فدر الله قد عَكفَّت على وضع الخُطط في ذاكرتها، بكوخها المعتم ذو الأثاثِ العتيق. الغريب. المتنافر. الذي كان معظمه من الفخار والخشب، والذي يتوسطه في مكان يصطاد العين العابرَّة: صندوق خشبي عتيق، يحتوي على رَماد رُّفاة جانو قُرمط!...

كان الكوخ نائياً في أطرافِ الحاضرَّة، ذات الشوارع البائسة، المعتمَّة، التي تُعاني الوحدة والبؤس، منذ أعتلى الهلاليون عرشها. حيث أصبح لفصولها الثلاث، الخلو من الربيع، طعم العَرَّق الزَّنخ، بوسخِ الغُبَّار وحرارة الإستواءِ العَكِرَّة!

وفيما كانت هي تضع تلك الخُطط الفاشلة، التي تقلبها واحدة اثر أُخرى، وسرعان ما تتخلىٰ عنها لتقفز إلىٰ التي تليها، أو التي تولد في هذه اللحظة!..كانت إبنتها حجب النور، تراقبها في لا مبالاة، وهي تفيق للتو من إحدى قيلولاتها، التي يَدهمها فيها ذلك الفتى الفارع، الذي يُبلل حشايا "عنقريبها" الذي جففته الوحدة القاسية لذلك الكوخ المعزول..

صبيحة ذلك اليوم، الذي رأى فيه ود بندة حجب النور،كانت هي قد نالت قسطاً من الراحة، دون أن تُقلق أنوثتها تلك الأحلام المعتادة..

التفت بغطائها الصوف العتيق، الذي ورثته أمها بت فدرالله عن جدتها، التي زعمت أنه كان للكنداكة..

إعتاد هذا الغطاء الملكي، إستلقاء كنوز حجب النور تحته، في دعة وحبور، متجاورة في تدوراتها وتعرجاتها الغارقة في الحوار، مع الكنوز الملكية للكنداكة، ومسك النبي، وأم حجل وكل الكنوز الأخرىٰ، التي تعاقبت تحته لمئات السنوات، تاركةً ظلالاً خافتة. دافئة. لفتنةٍ لا تُرَىٰ إلا في البوح، الذي يرتج في جسم حجب النور، والذي كان قد اكتسب معارفه الملكية المبكرّة، من هذا الغطاء.. فظلّت حجب النور تجاهد إخفاء هذه المعارف، عن بت فدرالله، التي لم يكن ثمّة شئ يُخفىٰ عليها، مع أنها كانت تدعي عدم معرفتها، بهذا الحوار المتواصل، بين جسد إبنتها، والأجساد التي تعاقب عليها الغطاء، منذ أهداه أحد تجار درب الأربعين للكنداكة، إلى أن آل إلى جَدَّة بت فدرالله في ظروف غامضة، ضمن غنائم وأسلاب الجيوش المتحالفة، التي دهمت بلدة الأرباب في زمان بعيد!..

هي شخصياً بت فدرالله، كانت قد عاشت هذا الحوار الليلي المتواصل، طيلة حياتها العامِرَّة بالأشجان واللوعة..

داخل هذا الثوب تحاور جسدها مع أجساد نساء كثيرات، وتألمت كثيراً لحكايا قلوب محطمّة وأخرى مسترَّقة، وتوقفت طويلاً عند قلبٍ مستبد، لم تكشف ذَاكِرَّةِ الثوبِ عن هويته..

ولكم شعرَّت بالحزن والأسىٰ، وهي تتحسس الآثار الحميمَّة، التي خلفها ود النمير وأم حجل، كالبصمة التي لا تختفي على كل حشايا هذا الثوب، الذي لا يخلو من آثارٍ بقع منطفئة، لا يمكن إزالتها عن ذَاكرَّةِ الثوب..

عندما بدأ جسد بت فدر الله في اليباس، مع بروز التكورَّات الأولى لحجب النور، قدمت لها هذا الثوب، الذي سترِّث معه في الحقيقة، أشجان والتياعات النساء أجمعين.

كانت بت فدرالله، قد خرجت في ذلك الصباح، إلى الحاضرة في أحد شؤونها الكثيرَّة، التي لا تدري هي نفسها شيئاً عن أكثرِّها.

وبينما بدأت تعسيلة النَّوم مرَّةً أُخرىٰ، اثر صحوَّة الصباح، تداهم حجب النور، شوشت خُطىٰ مترددة غفوتها المؤجلة!..

قمعت تعسيلتها المعتادة، ونهضت. فرأت ود بندة، الذي تسمَّرَ يُحدِّق فيها كالمصروع، الذي باغته ملاك، وفاجأه بأنه سيكون النبي القادم!..

فيما انتفض قلبها.. لكن لم يكن ود بندة، هو ذات ذلك الوجه، الذي تتبدى عنه أحلامها، يبلبل أفكارها ويبللها بالدفء..

ضغطت بأقدامها على الأرض، ويدها على قلبها. تحاول تثبيته في مكانه، كان كل شئٍ حولها، قد بدىٰ مختنقاً...

تحت ظل تلك الخميلة. متكئةً على كوخه. تزوج الكرسنِّي حجب النور، التي تجرَّدت آخيراً من كنفوسها القُطني، وإزار الصوف الذي يُغطي صدرها، مبقية فقط على رَحطِها المُحلىٰ بالخرَّز الملوَّن والعاج، الذي ورثته بت فدرالله عن جَدتها الكبرى، وزعمت أنه الرَّحط نفسه الذي أرتدته الكنداكة، ليلة قطف عبدها ميمون وَردة جُرحها وتركها بلا جرح...

تزوجا إذن محاطين برائحةِ الجروف النيلية، وأشجار الجوَّافة التي سيجت الخميلة، بما يشبه الدُّخان الذي لاح في قلبه طيفاهما الغائمان، كرَّمشٍ محاصربدموع متكاثفة..

كان كوخ الكرَسنّي نموذجاً مصغراً، لغرَّف نوم بني هلال المتوارثة، عبر االفردوس المفقود والبحر الملون، وصحراء السافل القاحلة، والتي كانت كعادة قصور الخلافة، مثلما لاتخلو من المباهج والليال الحمراء، تحتشد أيضاً بإرثِ الروم والفرس، ممثلاً في التماثيلِ الأنيقة، والسجاجيد الحريرية.

كانت هذه التماثيل، تزين الجنبات الأربع للكوخ، الذي لايبدو خارجه الفقير كداخله الوثير، الترِف!..

وحيث يجثم صندوق صغير، قرب تمثال للهلالي الكبير، وضعت حجب النور الصندوق، الذي يحمل رفاة جانوقرمط، الذي لم يعرف الكرسني محتواه، أو كيف وصل إلى هنا أبداً.

في تلك الليلة، تجرعا كثيراً من عرق البلح، الذي بدأت صناعته تروج، حتى لم يعودا يتذكران شيئاً، عن كيف ومتى وأين ألتقيا، وتزوجا..

فقط التنهدات التي تكشف عن أفكار متناهية الصغر،كالذرَّات. كانت هي ما يشكل هذا التوحد الكُلِّي في الصَّمت الخاضع لعذابات مختزنة في الذاكرَّة والجسد، والأحلام الهارِّبة..

حفر الكرسني عميقاً.. عميقاً، حيث تنقبض الأرض وتفيض "كجمام" الوديان، ليخمد بعدها كل شئ:

الحيَّاة الممتدة على ضفاف الخميلة.. الكوخ الذي لطالما تراءى لعرافي قصر أبي هلال، في كراتهم البلورية، وخطوط يد الكرسني، وملامح وجهه المخدد بالعزلة ووحشة البرِّية..

كانت لحظتها قد بدأت أصائل ضيقة تكتم الأنفاس، برياحها المعتقة، في الهبوب الجافة، التي تسحق الرياح، المحملة برائحةِ طين الجروف، والطَّمِي وعُشبات معونة النيل..

يستحيل هذا المسحوق، شيئاً مزيجاً من النداوَّة الرخوَّة، والبرودة المختنقة، وفي هذا المزيج، بدأت تلوح في أفق حياة حجب النور متجددة، تلك النبواءت التي حملها صوت بت فدر الله، و"الفقرا" حيران جانو قُرمط، لتلازمها لوقت طويل، حتى بعد أن يستلم طفلها أبو جريد، مقاليد

الحكم في دار صباح، ململماً أطراف البلاد الأسيرَّة في قبضة سلطته، لتدخل دار الريح، تحت ظل هذه السلطة، طائعةً مختارة، وفاءً من ودبندة لذكرى شيخه جانو قرمط..

٢

أولئك الغرباء الذين كانوا يطلقون على أنفسهم لقب "الفقرا"، الذين كانوا قد بدأوا يتقاطرون على مارتجلو، منذ تلك اللحظة. التي إستلم فيها ود بندة مقاليد السلطة في مارتجلو، موحداً دار الريح كلها تحت حكمه، ومغيراً إسمها إلى مملكة ود بندة الجنكويزية العُظمى، التي أتبعها بمحض إرادته، إلى سُلطة الهلاليين، والطائفة الجريدية في دار صباح..

منذ تلك اللحظة الفارقة بين عالمين:

عالم مارتجلو القديم، الذي لا تزال تشكل وجوده بقايا التعاليم العتيقة للمقدس دالي، وعالم ود بندة ودار صباح، الذي بدأ يأخذ طابع الهلاليين والجريديين شيئاً فشيئاً، مضت رياح التحولات كانسة أمامها كل شئ، إلى أن وصلت ذُروتها في الشلال، فتغير إسمها مرة أخرى إلى مملكة "جلابي ود عربي"..

هذه المملكة التي أصبحت تعج بالغرباء، أكثر من أي وقت مضى.. الغرباء شديدي الشبه بأولئك "الفقرا" الذين تمردوا على تعاليم دالي، فأنتهى الأمر بمارتجلو إلى فيضان، لا تزال آثاره في ذاكرة المكان ترتسم بوضوح.

فالفقرا الذين تواترت إليهم الحكايات العديدة، عن جنة عدن، والألياذة والأوديسة، والمغنين الجوالة، ووصلتهم نتف متفرقة من هيرقليطس، فبدأوا يتأملون حول الطبيعة والقدر، إلى أن

حكى لهم أحد تجار طريق الحرير، كان قد ضل طريقه من الفلسفة إلى التجارة والترحال، ما تناهى إليه عن سقراط وافلاطون وأثينا..

هذه المتواترات المتفرقة التي كانت تصل مع قوافل التجارة، بصورة متفرقة، جذبت إهتمام تلك الفئة من الناس، وفتحت شهيتهم، التي وجدت المزيد في رحلات بعضهم، لتي امتدت لعقود من الزمان، جابوا خلالها البحار وقطعوا صحارى وجبال، ليعودوا بعدها طاعنين في السن، دون أن يتعرف عليهم أحد، فجيلهم كان قد انقرض، وظلوا هم وحدهم على قيد الحياة!

كأن تلك الرحلات الطويلة المضنية، مدت أعمارهم، ومدتهم بأسباب البقاء، ومقاومة الزمن الذي كانت خطاه، تدب في عظامهم باستماتة النخر الدؤوب..

فيصرون على الحياة أكثر فأكثر، بتلك التجمعات التي يقيمونها، ليحدثوا الناس عن أرسطو ويوربيدس والهيلينيين والقرون الوسطىٰ، لكن كانت معرفتهم تقف عند هذه التخوم، دون أن تتقدم شبراً واحداً، فذاك كان منتهى معارفهم الفاشلة، التي لم تكن حياة الناس اليومية، حاجة إليها -مثلما كان الكلس يعتقد في أواخر أيامه التي قطف فيها وردة جرح شهرزاد، متجنباً لقاءها بعد ذلك، إلى أن غادر إلى بلاد اليانكي -وفي الحقيقة كان العالم كله يقف عند هذه اللحظ، منتظراً دورة نهايته المأساوية..

ربما أن هذا الخليط من الحكايات المتناثرة، التي لا تخلو من سحر وعبثية، لم تحسم الجدل القائم بين أيهما خلق أولاً: الدجاجة أم البيضة.. الأمر الذي أوحىٰ لجلابي ود عربي، بالتوحد مع دارصباح، ونشر طابع حياتها ومعتقداتها في دار الريح..

٣

كان التعب والأعياء قد نالا من حجب النور، بعد مقاومتها الطويلة للكرسَنِّي، فاستسلمت في حضنه، على صهوة الجواد، الذي نهب بهما الأرض، وأخذ وقع حوافره يتباعد شيئاً فشيئاً عن حاضرة دار صباح، إلى أن وصلا إلى تلك الخميلة، التي تشبه الخميلة التي أقامت فيها بت فدرالله كوخها، الذي شهد طفولة حجب النور وصباها....

ترجل الكرسني وأنزلها عن صهوة الجواد برفق، وهو يقودها إلى داخل الخميلة، التي أنتصب فيها كوخ يشبه كوخ بت فدرالله.

أجلسها تحت شجرة تمرهندي، ترمي بأغصانها على الكوخ حتى لتكاد تخفيه عن العيون المتلصصة، وهي صامتة جزع، لا تقوى على أن تنبث ببنت شفة..

حاول تهدئةِ مخاوفه بصوته الذي تناهىٰ إليها كأنه قادم من البعيد.. من أعماق ذكرياتها المبللة، وأحلامها الدافئة..

حكى لها حكايته من المبتدأ إلى المنتهىٰ، دون أن يخفي عنها شيئا من أسرار حياته، التي لطالما أحاطها بالعزلة، التي لم يفتح عوالمها القصيَّة، حتى لصديقه الوحيد ودبندة..

كانت أساريرها قد بدأت تنفرج.. لم تقوىٰ على إخفاء تهللها، إذ أدركت من حكايته، حقيقة تلك النبؤة، التي لطالما آمن الفقرا أتباع جانو قرمط بها، وعاشت بت فدرالله منذرَّةً حياتها لأجلها..

لم تكن تلك النبؤة.. إذن، محض خيال شعبي، وآوان تحققها قد حان.. فتبسمت في وجهه للمرَّة الأولىٰ، منذ تلك اللحظة التي دهم فيها كوخها، بصحبة خدمه الخواص، وأختطفها بغتةً، فلم تعي نفسها إلا وهي في حضنه، على الجواد الذي نهب الأرض، خارجا من حاضرة دار صباح، خروج السهمِ من الرّمِيَّةِ...

تنفس الكَرسَنّي الصعداء، فقرأت على عينيه الوجد، الذي كان يتعاظم داخله منذ ذلك اليوم، الذي جاء فيه خاطباً، فزجرته بت فدرالله، كما زجرت ود بندة من قبل. فيما كانت حجب النور قد أدركت، أنه فارسها الوحيد وقدرها المكتوب، فمضت تتفقد الكوخ صامتة، فيما الكَرسَنّي يستعيد توبيخ بت فدرالله لود بندة..

هذا التوبيخ الذي كان قد نال منه أبلغ منال، فأوغل في عزلته ينادي حجب النور، دون أن يتلقى رداً.. لملم شتات نفسه في البَرية، وهو يعدو بين شجيراتها ووديانها.. يُطارد طيفها بصوتٍ ملؤه الألم، حتى تضامنت معه وحوش الخلاء الكاسرَّة، فاتكأ على صدر صديقه الكَرسَنّي، يذرِف دمع المحبين..

خرجت حجب النور من الكوخ تتفقد المكان حوله: الخميلة ببركتها الصافية وأشجارها الظليلة وطيورها الجميلة، التي أخذت تعزف لحن عُرسٍ، يُشعل في نفسها الشوق واللهفة.

كان الكَرسَنّي في عزلاته الليلية، حين يَجلِس جوار تقابة النَّار، نديمه الوحيد في الخلاءِ الموحِش، قبل أن يلتقي ود بندة، بث ذلك الطيف الذي يتراقص، مع لهب التُقابة نجواه.. يُحدثه عن الذي قَصُرَ أو طال، يُلقي إليه بندفِ أوجاعه..

كان يحترق كل يوم وليس سوى نار التُقَابة يواسيه هسيسها، الذي يزحف حثيثاً في حشاياه، إلى أن إلتقى ود بندة..

كان يراقبها وهي تتفقد المكان. يلاحظ انفلاتات عينيها تسيل برغائب محتجزة.. متشحة بظلالٍ هي مزيج من الاستسلام والتحفز، يجعلان جسمها الممتلئ، يرتعش ارتعاشاتٍ خفيفة لا تكاد تبين..

ذلك الإنطفاء الذي لمحه في عينيها لحظة اختطفها، يشعر به الآن تحل محله جُذوَّة، تومض كلهبة صغيرَّة، تبدأ في التنامي شيئاً فشيئاً، تدفع خديها للتورد الذي يبين ناعماً.. ساحراً وآسراً يطال كل بشرتها فتكتسي بالنضار..

منذ رآها في اللحظة الأولى تلك، بعد أن حكى له عنها ود بندة، سلبته السيطرة على نفسه.. كانت ملامحها الدقيقة هي ذات تلك الملامح، التي كثيراً ما دهمت أحلامه، فملأته بالسعادةِ والحبور، الذي يفيق منه مكتئباً، عندما يكتشف أن ذاك لم يكن سِوَّىٰ محض حُلم..

تطفو تلك الملامح التي كانت ترتاد مخيلته على سطح ذاكرته الآن، تنطوي على وجهها الماثل أمامه.. لم يكن محض حُلم..

وكانت هي تتمعن جسمه الفتي، والصُفرَّة الخفيفة البادية على وجنتيه، والحزن الَخفِّي الذي يسكن عينيه..كانت تحاول أن تبلور النبؤة القديمَّة. تضاهيها بهذه الملامح، التي أخذت تغزوها وتحتلها. لم يُطق الكرسني الإنتظار أكثر. حملها بين ذراعيه، إلى داخل الكوخ..

كانت كل تلك الأصداء للأحاديث المكررَّة، التي لطالما رددتها بت فدراللَّه، وشيوخها الفقرا أتباع جانو قُرمط، على مسامعها، عن أساطير الأصل المقدس، والتقاليد التي كذلك الأكسير، الذي يحيل المعادن الوضيعة إلى معادن ثمينة، فالنَّاس معادن.. تتناءى الآن وتتلاشى بعيداً عن ذاكرتها الغضة التي ينهض فيها وجه واحد فقط، لطالما رأته في أحلامها الغامضة، هو: وجه الكرسني...

ينتفض كيانها كله إثر كل رعشة في جسدِ الكرسني المتمدد تحت ثوب الكنداكة، يغطيها كجبل يزرع عروقه في أرض صلدة.. فيهتزان محترقين كطائر خرافي يتجدد في النار، التي ما أن تحرقه، حتى ينبعث من جديد، نافضاً رماده..

كانا كشعلة لا تنطفئ إلا لتتوقد مرة أخرى.. لا يحسان مغيب الشمس، أو إطلالتها من جديد.. عتمَّة الليل أو تسلل خيوط الفجر الأولىٰ.. البرق والرعد والمطر، أو السكون الذي يسبق العاصفة ويتلوها..

صمت العصافير والنسور والسحالي، أومشاركتهما بغتةً لَذَّة الارتعاش بسلام يسود بينهما إلى الأبد.. وكانت الطبيعة حول كوخهما تكتسب طوراً جديداً، يخرج من أعماقٍ الحكايا والقصص التي أنشدتها، أشعار الحب وقصائد الهوى الجامح، خصهما بالسحر والخلود..

فتنأى دار صباح بضجيجها وزحامها.. يبقى فقط وجه حجب النور والكرسني يُضيئان العتمَّة.. يمتزجان في الفجر الوَسِن. يخترقان أحلام النوم العميق، ويزرعان السَهَر والحُمىٰ.. فيما إرتعاشاتهما الأخيرة، تبصم على الصَّمت والسكون، وكل دروب وأزقة دار صباح، مفضيةً إلى نبؤة الخلاص في أبي جريد الصغير,القادم من رحم حجب النور، بكل أحلام أبي جريد الكبير وجانو قُرمط، لدكِ عرش أبي هلال..

إذن كان أبو جريد يتشكَّل لحظتها في رحم حجب النور التي غرقت على صدر الكرسني في نومٍ عميق كنومِ أهل الكهف..

تقول الحكاية المروية عن بت فدرالله، أن السلطان جد أبي هلال بعد أن قتل جانو قرمط، قطع جثته ست عشرة قطعة، فرقها على المداخل الأربعة لدار صباح، لكن الفقرا السريين، الذين تبقوا من طائفته، دون أن يعلم السلطان بوجودهم، تمكنوا من إستعادة كل الأجزاء عدا عضو الذكورة..

ومضى الفقرا، يستخدمون السحر في إعادة تركيب جسد جانو، لتنجب منه بت فدر الله الصبية المراهقة وقتها، درتها الوحيدة حجب النور..

والتي تقول النبؤة الخاصة بالفقرا، أن ذلك الفتى الوحشي الذي يعيش في البرية، والذي هو من دم أبي هلال، سينجبها هلالياً صغيراً، هو المنقذ المنتظر، الذي يخلص دار صباح، من قبضة أبي هلال، ليبدأ مجد الفقرا في سلالتهما التي ستحكم كامل البلاد الكبيرة الأسيرَّة..

الليلة التي ولدت فيها حجب النور، إحتضنتها الحمائم ورعتها، وانسابت سيول عارِمة في مجرى النَّهرين، تدفقت مياههما، حتى أغرقت أجزاء واسعة من حاضرة دار صباح، فخرجت التماسيح تستلقي في دعة وحبور، وهي تلاطف الأهالي الطيبين..

٥

في وحدته القاسية يتأوه الكلس محاصراً برائحةِ الشعراء، وهو يرمق ببصره الجِدرَان البيضاء، في غرفته الغارقة في الصَّمت. يتكيء على صدر غلوريا.. يتكئ على سقط التواريخ، وبقايا من

ذكريات تشظت في هجير السنوات المُرَّة، فيدهمه طيف دبك البعيد، منشغلاً بما يراه من حيرَّة، تتآكل عيني نينا الواسعتين..

هذه الحيرَّة التي لاحظها منذ أول لقاء لهما، في صباهما الباكر، حين أخترقا عالميهما، غارقين في غلالة برزخية، تقاطع فيها الألم مع العنف والتلظي. معلنان مواجدهما الوليدة، للوادي وأشجار القمبيل وشجر القنا..

منذها، بقدر ما أقتربا من بعضهما، بقدر ما كانت المسافة بينهما تزداد اتساعاً..كان دبك يدرك أن نينا الورتابة، لا تنتمي إلى عالمه، لكنه كان يدرك أيضا أنها قدره، الذي ليس منه فكاك..

ذلك الحس الأُسطوري الذي يهيمن عليه، ويتغلغل عميقاً في روحه وجسده، يدفعه دفعاً للتشبث بهذا القدر اللذيذ..

وفي غمرَّةِ هذا الكر والفر ظل مخلصا لها، وظلت وفيةً له..كانت سعيدة بسيطرته عليها، وفهمه دخائلها ورغباتها.. هذا الفهم تشكل عبر سنوات طويلة، ظل يشعر خلالها بحاجته المستمرَّة للحب، في كل ما حوله. كان لا يحتمل خيبات الحيَّاة، التي تجبره على معاناة آلامه وحده، دون أن تصدر منه آهةً واحدة، وأورث هذه العادة للكلس الذي يشعر الآن، في هذه البلاد الباردة، بأحزانه المنقضية كلها تتجدد، في إستدعاء ذاكرة الحكايا القديمة، حكايته وشهرزاد غفوته المؤجلة، المحاطة باللافندر ورائحة الشعراء والغفوات المؤجلة، وتلك الأحزان..

تلك الأحزان التي أرقت الحكماء والحكيمات، وهم يرون تعاليم دالي، تنهار مع زحف الرفاهية، وتحريف الفقرا المتمردين لتعاليم دالي العتيقة، وزعمهم أنها لم تكن مكرَّسة للعزلة، وأن الحكماء والحكيمات، نصبوا أنفسهم سدنة لهذه التعاليم، وفسروا ما رمى إليه دالي خطأً، فباطن ما رمى إليه دالي، يتناقض ويتعارض مع مظاهر التعاليم المعمول بها..

كانت مملكة مارتجلو تستحم كعادتها، في شلالاتها. حين أعلنت هذه الأصوات، بداية رياح المِحنَة، التي ستذروها في "فِجاج القِّبل الأربعة"..

سرَّت رعدة في أنحائها كلها، فارتدت أعمدتها العتيقة، التي حال لونها.. هذه الأعمدة الشامخة في عزلة الوديان وقحل الصحراء، ووحشة الجبال..

لم تكن هذه المحنة من المحن التي اعتادت عليها مارتجلو بطبيعتها الضارية وهبوبها العاصفة، فالغرباء الذين ضلوا طريقهم إلى مالحة، وألقت بهم الأقدار إلى مارتجلو، تمكنوا من إقصاء الحكماء والحكيمات، الذين لطالما حملوا هموم المملكة، كي تنعم بالسكينة والرخاء..

هؤلاء الغرباء نشروا الأكاذيب، وحرفوا تعاليم دالي، فلم يعد الناس يثقون بالحكماء إذ تغيرت نظرتهم، وأمتلأت نفوسهم بالشك والريبة والظنون..

عندما أطبق الظلام، على كون ذلك الزمان البعيد، أخذ المقدس دالي حفنة تراب، من القبل الأربعة. عجنها بعصير زهور البرية، ولحاء صندل الردوم والقمبيل، وصاغ في العزلة مملكته، التي ستتعاقب عليها دول، لم تخطر على بال قداسته مطلقاً.

ولسوف تبرز من بين كل الحكايا، في هذه العزلة البديعة: حكاية ود بندة، المرسومة بحميمية وحزن شفيف، على جدر كهف كارناسي المقدس، وعلى المدونات حائلة اللون "التي سيستعين بها دبك ومن بعده الكلس، في هذه البلاد الباردة، في إعادة كتابة تاريخ المكان وأحوال الناس"..

"يحكي الكلَّس نقلاً عن هذه المدونات، التاريخ الشخصي للمقدس دالي، وعذاباته ومواجده، التي كأي قصة حب مأساوية الطابع، لم تكتمل.. إذ حاصرها الهجر والرحيل..

ويمضي الكلس إلى أن المقدس دالي، كان يعتقد أن أجناسا أخرى، غير الإنسان، ورثت معه هذا الإقليم الشاسع، وأن ما يعرفه قداسته، إنما عرفه من كائنات ما وراء هذا العالم، كما آمن بأن النجوم شموس أخرى، ولطالما تملكه ظن عجيب بأن كائنات خارج حدود هذا العالم، ستسيطر على الأقليم، وتتزوج من نساء شعبه فتنجب مسوخاً مغرمة بصناعة أسلحة القتل الرهيبة، وتشرب الدَّم شربها للماء.."...

"ربط دالي بين حركتي المد والجزر، وتحركات القمر، الذي إذا صار في أفق من آفاق البحر، أخذ ماؤه في المد مقبلاً مع القمر، ولا يزال كذلك إلى أن يتحول القمر، عن كبد السماء، فينتهي المد فإذا تحدر القمر عن مكانه مرة أخرى، إبتدأ المد مرَّة ثانية، وأنحسر الجزر، وهكذا.. فيكون كل يوم وليلة بمقدار مسيرة القمر فيهما .." ... "وربط دالي بين القمر وتأثيراته على الناس والحيوانات والحشرات والأشجار وزهور البرية، وللمفارقة أن دار الريح التي استلهم فيها دالي إستنتاجاته، لم يكن بها نهر أو بحر!!.. وهو الأمر الذي جعل أولئك الفقرا يشككون في كل تعاليم دالي ومزاعمه المقدسة.."..

الأسباب الحقيقية وراء إنهيار مملكة مارتجلو كما يرجح الكلس -على الرغم من أن أولئك الناجون من الطوفان، لم يؤكدوا بصورة قاطعة ومباشرة- تتمثل في التغيرات الجذرية التي أحدثها الفقرا، الغرباء.. الذين ضل معظمهم الطريق، فوجدوا أنفسهم في الشلال.. هذه التغييرات، التي أكدت نفسها في "ليلة الأنس الكبيرة"..

لكن المدونات تؤكد في سياق منفصل، أن لهذه الليلة جذرها العميق، في حياة مارتجلو منذ القدم، وبروزهذه الليلة في حياة مملكة جلابي ودعربي، ما هو إلا صدىٰ لتلك الحياة العميقة، بعيدة الجذور، التي لم تكن تخلو من اللهو والمرح.. فأهل مارتجلو عندما أصيبوا بأدواء الترف، أخذوا يؤلفون الأغنيات والرقصات الجريئة، المتمردة، محتفلين بآلهة لم يرد لها ذكر في تاريخ الديانات والعقائد..

كانوا يتركون بيوتهم، وهم يملأون طرقات مارتجلو، يقيمون الاحتفالات حول أبراج دالي، يسرفون في شرب "البقو" وأكل المشويات، حتى يفقدون وعيهم من السكر والتُخمة..

كانوا يستمرون في الخروج عن وقارهم، الذي صاغته العزلة، فيقومون باستعراضات داعرة، بعد أن يكونوا قد خلعوا ثيابهم الغريبة، وأشهروا أعضائهم في انتشاء مجنون، وقد تتوجت رؤوسهم بأكاليل من أغصان شجر القمبيل..

يتلامسون ويتبادلون الكلام الفاضح، وهم يحملون تمثالاً ضخماً لعضو ذكري على قاعدة من عضو الأنوثة!!.. غير آبهين بمنتهيات دالي.. ولا يتفرقون إلا بعد أن يختموا احتفالهم بممارسة الجنس في شغف وجنون..

كان الحكماء والحكيمات في شعب مارتجلو، قبيل الطوفان قد نادوا، بأن خير وسيلة لإعادة مارتجلو إلى سابق عهدها، بأن يتولوا هم إدارة أمرها، بعد أن استيأسوا من خلفاء دالي المتعاقبين تغيير الحال.. إذ إستمر خلفاء دالي في ترك الأمور للغرباء، الذين أخذوا يسنون القوانين، وهم سكارى ويبرمون المعاهدات اليوم لينقضونها غداً، حيث جعلوا من مجلس السلطان مجمعاً للمرتزقة وتجار الحروب، الذين كانوا قد نشطوا في التحريض، ضد ممالك الجوار في دار الريح..

كأن لعنة خفية حلت بمارتجلو، فالجشعون الذين يطمحون لأمجادٍ زائفة، أخذوا يديرون المملكة كما يشتهون، كانوا يتلكأون في خدمة مارتجلو، ويسارعون في إلحاق الأذى بها، خدمة لمآربهم الخاصة، ولا يمنعون ضرراً، أويؤدون واجبا عاماً..

كانت النساء الحكيمات، قد إستيأسن، وأيقن أن مارتجلو تمضي لا محالة إلى زوال.. كن يصرخن:

"لا ينبغي أن نربي ضباعا بيننا.."..

فيجيب الرجال الحكماء:

"تسببنا لأنفسنا في ذلك، فعلينا أن نتقبل العقاب إلى أن يتعقلوا.."..

فتحتج النساء الحكيمات:

"يجب أن نجد طريقة، نعيد بها ثقة الناس في تعاليم دالي.. وثقتهم فينا.."..

فيطرق الرجال الحكماء رؤوسهم، يفكرون في وسائل لم يسبق لهم إتباعها..

كانت أحوال مارتجلو قد تغيَّرت منذ وقت طويل، لا يعلمه أحد، فخلفاء دالي المتعاقبين، جميعهم لم ينفذون التعاليم بذات القدر، ولم تحتل تعاليم دالي مكانها مجدداً، إلا بعد ذلك

الطوفان، إذ عمل الناجون على أسترداد مملكتهم البائدة، من قبضة التاريخ والذكريات، واحيائها بالتعاليم كما كانت، في عهدها الأول قبل مجيء الغرباء، مستهدين بأن أنصلاح آخر الأمر، لا يكون إلا بانصلاح أوله..

وهكذا بدأت تعاليم دالي تحيا من جديد، وتسترد مكانتها لتتشكل مارتجلو مرة أخرى: وطنا في العزلة، يهدف إلى السلم ولا شيء غيره..

كانت تعاليم دالي أشبه بأحكام ديانة تمرَّد عليها معتنقيها، لهثاً خلف التغيير خارج حدود هذه المملكة، الغارقة في غبرَّة التاريخ، إذ أشارت بعض مدونات الناجين من الطوفان، إلى تأكيدات بأن الذين أخذهم الطوفان، ستظل أرواحهم المعذبة هائمة دون مستقر، إذ لن يرمى بهم في مملكة دالي السماوية، وإنما سينتهي بهم الأمر، مقذوفين إلى حمم الجحيم مباشرة..

الذين أصروا على نبذ تعاليم دالي العريقة، كانوا مؤرقين بهذه المملكة الوحيدة البائسة، في هذا العالم المحاصر بكوارث الطبيعة، والكوارث التي من صنع البشر.. فمارتجلو كالمنبت، لا تتفاعل مع ما حولها.. غارقة في عزلتها، محاصرَّة برائحة الغرباء والشعراء والفقرا، الذين تقطعت بهم السبل..

لكن الحكماء والحكيمات،كانوا يرون أن هؤلاء لم ينسوا شيئاً ولم يتعلموا شيئاً من هذه العظات الكثيرَّة "الكوارث التي حولهم" والتي تحمل أخبارها، حكاويْ التجار العابرين، الذين يضلون طريقهم، فيجدون أنفسهم في مارتجلو..

تمضي المدونات في وصف "ليلة الأنُس الكبيرَّة.. "استحمت النساء بالماء الذي غُليت فيه أوراق البرية المعطرَّة، وجذور القمبيل والمحريب والسعدة، والحرجل والمحلب والسنا سنا.. كان هذا المزيج السحري، يسيل على أجسادهن الممتلئة، فيملؤها ألقاً على روائها..

مشطت النساء شعورهن، وتعطرن بعصارة الصندل والمسك والقرنفل، وتزين بزهور البرية، وأرتدين كنافيسهن المميزَّة، بعد أن غطين نهودهن، وتركن بقية أجزاء صدورهن، يضربها الهمبريب..

كان ذوقهن في التزين يجمع بين التمرد الحديث لمارتجلو على العزلة، ورفاهيته الفجة في عالم تملؤه هواجس الجوع والحروب..

مضين في طريقهن إلى ساحة الخلوة الكبيرة، وأجسادهن المثقلة بالظمأ تتمايل وترتج.. كان أبوي دالي من أهل هذا الإقليم المتسع، الذين تؤكد الروايات الموثوقة، أنهما لم يجيئا كالكثيرين، من خارج الإقليم، فقد خلقوا هنا، ولا يعرفون لهم وطنا غير هنا.. فهم ليسوا كالهلاليين الذين جاءوا من خلف البحر الأجاج، أو أقصى الصحراء حيث تغرب الشمس، عند الضفة الأخرى من البحر المالح، لتشرق في دار صباح..

كان دالي يدرك أنه ليس خالداً، ولذلك قرر بناء مدينة عظيمة، لها سمة الخلود بالحصن الذي يحيطها ويعزلها عن كل ما حولها. داخل هذا الحصن، ذو البوابات الثلاثة، التي تكون مملكة الشلال رفعت أعلام طوال، من نسيج غيرمعروف. وزرعت الأشجار المثمرة، في كل مكان يتخلله وادي أزوم، وفرعيه "سجللو-والله مرقاا" وعند مفترق هذين الفرعين شيد دالي، معبداً كبيراً أنيقاً من صخور "جبلي مرَّة وأب كردوس" تفضي سراديبه إلى أنفاق وكهوف عين فرح السرية، التي كان دالي كثيراً ما يعتزل فيها، لينحت بنفسه التماثيل الآدمية والنُصُب التذكارية التي تزين، أزقة ودروب وشوارع مدينته الخالدة.

ومن بين كل الوجوه التي حملتها التماثيل، تكرر وجه عميق التقاطيع أطلق عليه إسم "شطَّة"وآخر بوجهين غامضين أُطلق عليه: "ود بندة/جلابي"..

كانت هذه الوجوه الثلاثة، تلح على خياله المبدع، دون أن يدرك لذلك سبباً.. ولاهتمامه العميق بالنجوم، فعل المقدس دالي شيئا عجيباً، إذ إقتطع من جبل أب كردوس، ثلاثون صخرَّة

قائمة،كل واحدة بطول رجلين ط، وزنة أثنا عشر رجلاً متوسطي الحجم، وقام بصفها في شكل دائرة، وضع عليها أفقياً صخوراً أصغر، تزن كل واحدة منها رجلاً صغيراً بحجم فقير بائس!..

وعلى مداخل هذه الدائرة الصخرية، صنع دائرة صخرية أصغر، على نفس النظام، بحيث أنه عند الإعتدال الربيعي والإنقلاب الشمسي، تشرق الشمس عند الأفق، متدفقة بين فتحات الصخور،كما أنه في اليوم الأول من كل صيف، تشرق أشعة الشمس، مواجهة مكعب الصخور..

الأمر الذي جعل الكلس يتفكر كثيراً، ويستنتج إهتمامات دالي الفلكية، ومعرفته بالوقت والتاريخ، إذ أن دراسة الخصائص الفلكية، للمكان الذي شيد فيه دالي هذه الأبراج الصخرية، كشف عن دورة الست وخمسين عاماً، اللازمة لحدوث كل كسوف، كما أن تحريك هذه الصخور بمقدار معين، مرَّة كل سنة. يعطي معلومات مهمة، عن الأحداث القمرِّيَة القادمة لمئاتِ السنوات..

ومع ذلك يعتقد الكلَّس، أن دالي لم يكن سوى نبياً ضل طريقه إلى النحت والفلك، وشئوون الحكم في مملكة خارج نطاق التاريخ.. معزولة في الجغرافيا..

هذه المدينة التي بناها العظيم دالي، والتي نهضت على أنقاضها بعد مئات السنوات "جلابي ود عربي" بلداتها الثلاثة، في ذات مواقع المدينة القديمة، أصبحت أثراً بعد عين -كما تشير أحدث المدونات المجهولة- إذ أنه في أحد الظهيرات البعيدة، حل بسماءها غيم أسود قاتم اللون، حجب نور الشمس، وملأ نفوس الأهالي بالذُّعر والفزع..

ثم بدأ البرق والرعد يهزان كل شئ، تلى ذلك صوت غريب مجلجل، قادم من مكان سحيق.. كان صوت سيل عات. أغرق كل شئ، حاملاً معه الحجارَّة الكبيرَّة..

لم ينج من هذا السيل سوى قلة، كانوا قد تعلقوا بجذوع الأشجار، هؤلاء كانوا قد كتبوا شهاداتهم بلغة "الفور" المجهولة، حول هذا الطوفان الذي لم تصمد أمامه سوى تلك الأبراج التي

شيدها دالي، من صخور جبل مَرَّة وجبل أب كردوس الثلاثون، ومتاهته الشخصية بين النبوَّة والملك والعلم والفن..

الناجون الذين تعلقوا بجذوع الأشجار، لم تنج سلالتهم مما يشبه اللعنة فيما بعد، إذ كانوا يلدون أطفالاً غير طبيعيين، بعاهات غريبة،كأنهم تلك المسوخ التي تشرب الدَّم، التي حملتها نبؤات دالي.

حتى أنهم بعد مرور مئات السنوات، أصبح عددهم كبيراً، فبذروا الشر في كل أنحاء البلاد الأسيرَّة.. قتلاً وحرقاً واغتصاباً وتمثيلاً بالموتى..

٦

منذ ميلاده. ولدى دخوله الخلوىٰ، أخذ الكَلَّس يفكر في كون اللُّغَّة: لُغَّة دبك الذي أورثه تاريخه الشخصي وكثير من الحكايا والمدونات..

هذه اللغة المغايرة للغة الكتاب المقدس.. وبين هذين الكونين: لغة القبيلة الخاصة-وكون لغة الكتاب المقدس، والقومية التي يمثلها،كانت تتحرك كل العوالم الموروثة والمكتسبة، فتتحرك تبعاً لذلك مجسات تفكير الكَلَّس، في محاولاته الدؤوبة لإستكناه السر، الذي يبدأ من هنا وهناك، في أعماق مملكة دالي العريقة..

كان سؤالاً جارحاً يتغلغل داخله ويتفتق عن ضباب يفضي إلى ضباب آخر، في سيرَّة دار صباح، قبل إستيلاء الهلاليين عليها.. عندما كانت تموج بحركة الناس، بأعراقهم ومراتبهم الاجتماعية المختلفة..

في ذلك الوقت البعيد، إصطفت كناتين وسقاقيف السلع المتنوعة: ريش النعام، سن الفيل، الحراب، السكاكين، السهام والأقواس والسيوف.. الذرَّة، البرتقال، الدُّخن، الليمون والشطة.. المغزولات الكتانية والقطنية، ومنسوجات النَّول..

وحيث توسط سوق الرقيق كل ذلك،كانت دار صباح، حافلة بضجيج التجار المقيمين، والآخرين العابرين، وحيشان القش التي تزرب قطاطي ورواكيب المقامرة، والمتعة والبقو والعسلية وعرقي البلح وكل أنواع الخمور البلدية معروفة المكونات والمجهولة...

وفوق هذا وذاك المغنين الجوالة، الذين يعزفون على الربابات وأم كيكي، معزوفات تتقطع لها نياط القلوب، وإلى جانب هؤلاء المغنين، تجمع الفارِّين من أوطان أخرىٰ، داخل البلاد الأسيرَّة وجوارها:

لصوص، قطاع طرق وهمباتة، وزراء سابقين لممالك صغيرَّة فاشلة، قادة مليشيات وقطاع طرق جنكويز وعمد ومشايخ مهزومين، وجنودمكسورين الخاطر.. قرامطة أتباع الفقير الراحل جانو و"حبرتجية" لم تعد حيلهم تمر في الناس، وناس عاديين متهمين في قضايا لم تخطر على بالهم أبدا!!..كان الجميع وقد "فنقس" بهم الزَّمن يبحثون عن أمل هنا...

المكان الوحيد الذي كانت تسوده السكينة والهدوء، بعيداً عن كل هذا الضجيج هو "الفريق" القريب من قصر السلطان، حيث تعيش"قند اليمن" وهو الحي الذي لا يمكن الوصول إليه، دون الإحتكاك بالآخرين أو وطء أقدامهم المتزاحمة.. وفي غمرَّة هذا الزِّحام هلَّت "قند اليمن"...

كانت ممتلئة، مشربَّة السمرَّة، التي تميل إلى دكنة خفيفة، هي سَحَّنة أهالي دار صباح الأصليين.. كانت عينا قند اليمن بالألق الذي يميزهما، تشكلان مع غمازتيها المتراقصتين، سحراً خاصاً لا يمكن الانفكاك من تأمله..

وقند اليمن تميل إلى القِصَر، لكن جسدها ينبئ عن قوَّة وعنفوان غريبين.. شعرها حالك السواد، الذي لم يكن طويلاً أو قصيراً، لامست بعض خصلاته الفارَّة من المشاط، جانباً من وجهها البيضاوي، بملامحه المميزَّة..

كانت قند اليمن تحاول العبور في هذا الزِّحام، عندما أنتبهت إلى عيني "الدريب" اللتين كانتا تتحسان جسمها شبراً شبراً.. إرتبكت فتقافز نهداها النافرّان.. وأسرعت الخطى..

جمال قند اليمن نوع من الجمال الساحر، الذي يسلب اللب، فيأسر العين!.. وكانت هي تعرف ذلك، وتسعد بهذه المعرفة، التي تؤكد لها أنها بمثابة الحُلم العزيزعلى الشباب، الذين كانوا على أية حال يهربون من ملاحقة هذا الحُلم، بإنفاق الوقت في لعب "الضالة والسيجة" أو تغشي الأندايات..

زارها كثيرون في أحلامها فأقلقوا منامها، وبقدر ما شعرت بذلك النوع المحبط من الإرتواء، بقدر ما كان يجتاحها إثر كل صحَّوة، ظمأ حارق يبدد سلام جسدها المكتنز، المتفجر بالعرَّم..

لم تكن دار صباح مكاناً ذا تاريخ متصل، كأجزاء البلاد الكبيرة الأسيرَّة الأخرى، إذ كانت تجاربها على الدوام غير مكتملة، تنقطع في مكان ما لتبدأ تجربة جديد، لا تلبث أن تنقطع هي الأخرى.. هذا التاريخ وسم كل شيء: الناس والأمكنة والمناخ..

فقد كان بدار صبح سبعة أنهر ملونة، لكن ولأسباب غير معروفة، أصبح عدد أنهارها خمسة، فأربعة، فثلاثة، فإثنين.. وحتى هذان النهران، لا يستمران في الجريان، إذ يتوحدان لِيُشكلا نهراً واحداً، يتهدده الزوال هو الآخر..

كذلك مناخها شهد من التقلبات ما لم يجد له أحد تفسيراً، إذ تغيَّر من ذلك المناخ المعتدل، الذي يدخل على النفس بهجة وسرور، إلى مناخ معكر بالغبار الوسخ. وحارق بحرِّه اللافح..

ولم تنج أرض دار صباح من التغييرات، بما شهدته من تقلبات، إذ تحولت من غابة خضراء يانعة، تتخللها الأنهارالعديدة والوديان، والجبال. إلى أرض قاحلة جدباء..

وأصبح كل ذلك الجمال الذي عُرفت به، محض تاريخ مروي في الحكايا الشعبية، التي لا تزال تتواتر.. وتحكي عن تلك الهالة، التي كانت تتجمع من أجزاء صغيرَّة، صقيلة في السماء، يحيطها غلاف من الغيم الشفاف، الذي عندما ينعكس عليه ضوء الشمس كالمرآة، تنكسر عليه آلاف أقواس قزح.. هذه الهالة لم تعد تتكون في فضاء دار صباح منذ وقت بعيد، فكل شيء حول الطبيعة، التي كانت ساحرة يوماً تبدد..

في البَدءِ فرَّت الحيوانات، ثم أختفت الغابات، فردم الرمل الوديان، وهجر "جداد الوادي" والوزين أرض دار صباح إلى غير رجعة، حتى أن الطيور المهاجرَّة، لم تعد تتوقف عند دار صباح لتستجم، أصبحت كلما مرَّت بسماء دار صباح، تزيد في سرعتها، فتعبر دون توقف..

حتى الحمام والقمري، غادر دار صباح.. وما تبقى من العصافير الصغيرَّة، التي حار بها الدليل، والتي كانت ترك على الرَواكِيب والقطاطي، لم تعد تزقزق سوى بأنغام حزينة، تفيض بحيرتها الكونية، في عالم دار صباح المتداعي!.. تنعي زمنا مضى وأنقضى!..

تفككت الجبال الراسيات إلى قطع صغيرَّة، خلفت ذاكرتها علىٰ التلال الصخرِّية، وعشش السمبر والغربان فيما تبقى من أشجار كالحة، آخذة في الإنقراض هي الأخرى، لم يعد من جمال الطبيعة التي كانتها دار صباح يوماً، سوى ما خلفته تلك الطبيعة الساحرَّة من ذكريات، على أرماث الوديان وقبور الأنهار وأكفان وهياكل الشجر..

إختفى ذلك المجتمع المتجانس، الذي كانته.. وحل محله مجتمع غريب: خليط من الأرقاء والمنبتين والأدعياء، الذين ينسبون أنفسهم لأصول مقدسة، وقد أعياهم البحث عن تقاليد وعادات وأعراف، لم تكن تنتمي لثقافتهم يوما.. يقاومون بها حِدَّة شعورهم بالغربة، وافتقارهم للإنتماء الأصيل لدار صباح.. هذه الأرض التي لا تلبث على حال، إذ كانوا ينهون سجالاتهم دائما بعبارة:

"أنا من أصول.."...

إذن أصبحت دار صباح في منزلة قبيل القيامة بقليل.. لا أحد يستطيع أن يجزم بالضبط: هل الجغرافيا هي التي فعلت ذلك بالناس، أم أن الناس هم من فعل ذلك بالجغرافيا، فحملت سماتهم المشروخة، وهواجسهم وإحساسهم بالضياع، والضعضعة والتبدد..

عندما جاء أولئك الغُزَّاة من مصب النَّهر، لم يقاومهم الحكام الهلاليون، المنتشرين على طول دار صباح وعرضها، بل فتحوا لهم أبواب البلاد، وقاتلوا معهم جنباً إلى جنب، في الصعيد والسافل، وأجزاء من دار الريح القريبة من دار صباح.. لكن لم يتمكنوا من الوصول إلى قلب دار الريح، حيث الفواشر الملكية، التي تنهض في عزلة مارتجلو وغموضها..

علية القوم في دار صباح، التي شهدت التحولات المريعة، في سلطة الهلاليين على عهد الغزاة، إنفتحت لهم مدارك لتجارة لم يكونوا يعرفونها: الجنس المنظم.. فأنتصبت الرايات الحمر، في بيوت الجالوص، وبدأ مجد الأندايات يتهدده الزوال.. الجلابة الذين كانوا يسيرون حملات الاسترقاق، يقودونها في الصعيد، وأقاصي الوسط ودار الريح، كانوا يختارون الجميلات، للعمل في بيوت تجارتهم الوليدة..

لم يكن بدار صباح طوال تاريخها، منذ اعتلى الهلاليون عروشها، قانون عام يطبق على الناس جميعاً دون تفرقة.. كان الهلاليون يحكمون كما يعن لهم، وشهدت الكثير من القضايا، من البطء في البت فيها: "من حفيد إلى حفيد، إلى أن يقضى على آخر فرد في الأسرة التعيسة، صاحبة القضية!"..

فبني هلال وخلفائهم الذين ظلوا يعتقدون، أنهم ظل الله في الأرض، لم تكن لديهم تشريعات، مستوحاة من حياة هذا الشعب المختلف، عن شعبهم الذي خلفوه وراءهم، خلف البحر الملون، حيث تشرق الشمس.. ولم تكن لديهم تشريعات تناسب الجغرافيا، والمناخ وتنوع سحنات وثقافة هؤلاء الناس المختلفين عنهم..

فكان أساس حكمهم الطغيان، وقطع الأوصال. لزرع الخوف والرهبة في نفوس أهالي دار صباح المساكين..

ولطالما أعتقدوا أن أهالي دار صباح ليسوا أحراراً، بل هم عبيدا أذلاء، وهكذا أستمروا يلجمون العوام عن الكلام!.. وللمفارقة أن أولئك البيض، الذين جاءوا من البلاد الباردة، برطانتهم الغريبة، ودمهم الأزرق.. هؤلاء البيض الذين جاءوا من آخر الدنيا لإستعمار البلاد الكبيرة، وضمها إلى تاجهم الذي لا تغيب الشمس عن مستعمراته.. للمفارقة أن حركات المقاومة، التي ستنشأ ضدهم بعد عشرات السنوات، ستكون بيوت الرايات الحمر، أكثر أماكن إجتماعاتها أمناً من عيون العسس. بل أن العاملات في هذه البيوت سيمتنعن في لحظة ما، عن تقديم المتعة للمستعمرين، تضامناً مع هذه الحركات..

إذن ستشهد بيوت الرايات الحمر، أهم الإجتماعات لخلق الثورَّة ضد المستعمر وتعكير مزاجه الرائق..

ثمة نوع غريب من الحزن في دار صباح، لا تخطئه العين منذ الوهلة الأولى، نوع من الحزن القديم، الذي يمد جذوره عميقا في كل شئ.. حزن ليس له مثيل.. حزن بمثابة ذاكرَّة غير مرئية، عن تاريخ مجيد عاشته دارصباح يوماً في عهد سحيق، لم يولد فيه أنبياء بعد..

هوية دار صباح، ظلت كالجغرافيا التي نهضت فيها: نهباً للجفاف والتصحر وعوامل التعرية، وربما هذا ما عمق من تلك الشروخات، التي تلحظها العين بسهولة.. غائرة في كل شئ، حتى في طريقة كلام الناس وشخصياتهم التي تبدو مهتزة، غير واثقة.. تحاول إخفاء ضعفها بالإنفعال السريع والغضب..

هؤلاء الناس العاجزون عن السيطرة على أنفسهم، لم يكن أسلافهم على هذا النحو، وهذا التحول المريع الذي طالهم، هو جزء من التحولات التي طالت سلطتهم، على هذه الأرض، إثر إنهيار آخر ممالكهم، تحت سنابك خيل الهلاليين، في مطاردتهم لـ "الدريب" إبن العم الهارب، وهي

اللحظة الأولى التي عرفت فيها دارصباح، المعنى العميق للثأر، ومن ثم بدأت في التدهور، الذي أخذ يفقدها شخصيتها الحقيقية تدريجياً..

شخصيتها القديمة الهادئة، التي لا تشوبها نوازع الشر.. فوقتها كانت دار صباح ككون، واسع يشمله الدفء والحميمية، و تتوحد فيه عناصر الطبيعة، مع إنسان هذا الكون، ليتشكل شجن عذب، تراه كالنقش في الوجوه، التي لوحتها الشمس..

كل ذلك بدأ يتبدد مع غزو الهلاليين، الذي أخذ يغير لا في هوية دار صباح وحدها، بل في جغرافيتها ومناخها وعادات أهلها، الذين أصبحوا كالمنبتين، يبحثون لأنفسهم عن أصول يهدؤن بها روع أنسابهم المجهولة..

ومع ذلك، هذا الخليط الذي أصبح يكون مجتمع دار صباح، والذي لا يوحده شئ، كان متوحداً حول شيء واحد، يُعلن عن نفسه بوضوح: هذه المعاناة في عدم التوافق بينهم وأنفسهم، والتوافق بينهم والآخرين..

وللمفارقة أن كل هؤلاء وأولئك، من أهل دار صباح، توحدوا حول نسج أسطورة عامة حول أصولهم، تتفرع منها أساطير صغيرَّة، هذه الأسطورة بأساطيرها الصغيرَّة، ربما ولدت بسبب إحساسهم الخفي، بحاجتهم الملحة لتأكيد ذاتهم، غير المؤكدة.. ووجودهم المنفي في الجغرافيا التاريخ..

٧

منذ وطأت قدما ود بندة، قصر أبي هلال ورأى ما رأى فيه من أهوال، تأكد له تماما: أنه لن يستطيع القيام بأي شئ، في سبيل إستعادة حجب النور..

ولم تمض سوى فترة قصيرَّة في بحثه عنها، حتى وصل إلى قناعة، بأنها غير موجودة بهذا القصر أو أياً من قصورِ أبي هلال، وبدأ يراوده الشك، أن يكون السبب وراء إختفائها، أي شئ آخر سوى أختطاف أبو هلال لها، وعندما أرتكن إلى هذه القناعة، لم يعد يشغل تفكيره سوى الهرب، ولذلك عندما سنحت له إحدى الفرص النادرة، بلقاءِ بت فدرالله في سوق النحاس، سرَّب لها شكوكه ورغبته في الهرب، وكانت هي لحظتها قد عرفت أين أختفت إبنتها، إذ تكللت حملات البحث الواسعة، التي أجراها الفقرا، عن معرفة مكان حجب النور وخبرها.. وتمكنوا من تدبير لقاءها بأمها بت فدرالله، في غفلة من الكرسني!..

فقد كان الكرسني نادر التغيب عن بيته، إذ كان لا يشبع منها إلا ليلتهمها من جديد.. هو الذي عاش كل حياته ينتظرها..

حجب النور هذه الأنثى المشتعلة كالنار داخله، والتي امتلأت بها أحلامه، فظل ينتظر لقائها إلى أن كان ذلك اليوم.. بإحساس نقطة دم تحتضن الأرض في حميمية ومحبة، وقفا قبالة بعضهما، أمام كوخ الخميلة.. كانت مشاعره..كل مشاعره قد إرتمت بادية للعيان على الأرض، تقبل التراب الذي وقفت فيه حجب النور، تبوح بهمس المحبة والحنين!..

كان يشعر بنفسه ولأول مرَّة، كطفل وديع تدفعه هدهدة هامسة لوسن ملائكي، تزرع فيه النعاس فيمسي غياباً/حضوراً.. ويرحل في الوسن غريراً هانئاً.. في يوم لقاءه الأول بها، لم ينتبه إلى وقفته، التي كانت قد طالت، كالزمن بخطاه المتثاقلة على عتبات الإنتظار لوجه حميم..

كانت شتاءات وجدانه تتداعى حثيثة تفسح لدفء الشفاه الرهيفة، التلاقي الحميم دون تمتمة أو لعثمة!.. وظل كذلك مشدوداً إليها كالوتر، إلى أن مات في ذلك اليوم المكفهر، وهو لا يزال يعتقد أن الصلة بين حجب النور وأمها، قد تقطعت إلى الأبد!.. الأمر الذي جعله يشعر غما شديداً، ظل يجاهد إخفاءه..

من بين تأوهات عريها بين ذراعيه، تمتمت غلوريا:
"متى ستنام؟!"..
أزاح الكَلّس الكراسة، التي كان يراجع فيها ما دونه بالأمس من ملاحظات:
"الآن"..

قدر خفي ذلك الذي قاد دبك إلى المدرسة الأولية، دوناً عن كثيرين من أقرانه، في تلك البلدة الصغيرَّة على أطراف حاضرة جلابي ود عربي، الرابضة على ضفة الوادي، حذاء دغل القمبيل..
وبين مرحلة دراسية وأخرى، كانت هُوِّيَة دبك تتمزق لتلتئم، وتلتئم لتتمزق.. هُوِّيَتَه التي صاغتها مسيرَّة الحياة في بلدته، بطقوس أهلها وأسحارهم، وما تبقى من آثار التعاليم القديمة لدالي، وطبيعة الوادي الناهضة أسفل الجبل، الذي يحيط البلدة كالأسورة، والتاريخ السحيق لهذه البلدة المعذبة، بالقلق والحنين..
كانت لغته الأم تبتعد، لتحل محلها لُغَّة الهلاليين، التي ألتهمها بذاكرته اللُغَّوية مستكشفاً أسرارها، أطماعها ورغبتها في الهيمنة على لغته الأم..
تعرف الكلس على التاريخ الإنساني، في المحاولة الدائمة للأقوياء، لإخضاع الآخرين، المغلوبين على أمرهم، فلم يستطع بذلك تفادي رؤية تاريخ بلدته، يتحول إلى أشلاء بين معان تاريخ العالم وتاريخ دار الريح، التي تشقها الوديان، وتاريخ ما تبق من بلاد كبيرَّة أسيرَّة يشقها النيل إلى فلقتي نواة نصفها متغضن كالعُرجُون القديم!..
المعارف المتناقضة والمتصادمة، شكلَّت عقله الجدلي، وفتحت وعيه على أسئلة جارحة، دفعت بكيانه كله إلي عزلة عميقة.. غادر بعدها إلى بلاد اليانكي..

كانت عزلته شبيهة بعزلة المقدس دالي، قُبيل تشييده لمملكة العزلة المحاصرة برائحة الشعراء، أو اعتكاف "راجل الحرازة أم قد" في خلوته لأيام وليال دون أكل أو شراب!

خرج دبك من عزلته المجيدة، حاملاً السلاح ضد جلابي ليخضع الكَلَّس الآن -بعد عشرات السنوات من وفاة دبك- كل الظروف التي أدت لثورة دبك، لأسئلة لا إجابة لها، فيما ورثه من مدونات ورسائل تطل من بين سطورها حجب النور حينا، وحينا الكرسني!.. إلى أن يستوقفه جانو قرمط، وشهريار بني هلال الكبير، وبنت فدر الله، التي لم تخض مع ود بندة في أي تفاصيل، عندما أعلن لها عن شكوكه ورغبته في الهرب...

أحس ودبندة لحظتها، كأن بت فدرالله كانت تنتظر منه هذا القرار.. أخبرته أن رسول منها، سيتصل به في الوقت المناسب، ليخبره عن ميقات وكيفية الهرب..

عندما عاد ود بندة في ذلك اليوم، كانت قد سيطرَّت على خواطره، تلك النظرَّة المستسلمة، التي لا تخلو من إحساس بالراحة، والتي قرأها في عيني بت فدر الله، فتفكر كثيراً، وراودته الشكوك، حول لابد أنها تعلم عن إبنتها، ما يطمئنها ويدفع بتلك النظرَّة اللامعة إلى عينيها الخابيتين، لكنها لم تشأ إخباره.. أو أنها غيرَّت تدابيرها وخططها، ولم تعد تأبه لحياته..

تآكلته هذه الشكوك زمناً طويلاً إلى أن تبدد معظمها عند لقائه رسولها "أبوخيرَّة" الذي كان صادقا معه، فلم يخف عنه أمر حجب النور، وإنجابها من الكرسني طفلهما أبي جريد الصغير، الذي نمىٰ قوياً بسرعة ملحوظة، لم تحك عنها نبؤات الفقرا، الذين كانوا يؤمنون، بوجود ذات عليا تدير الكون، على أساسٍ عقلي صرف، دون أن يعتقدوا في التنزيل والوحي والرُّسل.. إذ يظنون في أنفسهم، أنهم بلغوا من العِرفة والمعرفة، ما يجعلهم مسئولون وحدهم، عن صياغة الشرائع، بإستيحائها من حيَّاة النَّاس وثقافتهم!

وعلى ذلك هم الرُّسل المعنيون بإنقاذ دار صباح، خاصة أن لديهم من المواهب والقدرات، ما يفوق معجزات يسوع الناصري.. ولطالما أعتقد الفقرا، أن القوانين في أوسع معانيها، هي علاقات ضرورية تُشتق من طبيعة الأشياء، وبهذا المعنى فإن لكل الموجودات قوانينها..

ولذلك كانت رؤيتهم للإنسان والحياة والكون، تتمثل في أن كل ذلك، محض علاقات بين قوى متفاعلة تؤثر في بعضها البعض ليس إلا..

ولم يكن الفُقرا قدريون بأي حال من الأحوال، لكنهم في ذات الوقت، يؤمنون بوجود عقل مبدئي، يتمثل في هذه العلاقات، التي تتفاعل فيما بينها..

وكانوا يرون أن الحُرِّيَة هي القدرَّة، على عمل ما يريد الانسان عمله، لكن دون إلزام هذا الانسان، بفعل ما لا يريد فعله، كما أنه لوفعل كل شخص ما يريد، فإنه لن يكون حراً، لأن الجميع لديهم نفس الرَّغبة.. ومع ذلك كان هؤلاء الفُقرا، الذين يُكثِرون من التأمل، حول الحُرِّيَة ومعناها ومصدرها، يمثلون أغلبية تجار الرقيق والجلابة..

ففي ذلك الوقت الذي ألتقى فيه أبوخيرَّة، بود بندة،كان الفُقرا قد نشطوا في تجارة المواد التموينية، وتخزينها.

قاموا بتخزين كل شئ: الذرَّة، السكر.. ولم ينج حتى الملح.. نشطت قوافلهم في كل أنحاء البلاد الكبيرَّة، تتاجر في كل شئ.. تبيع وتشتري كل ما يقع تحت يدها.

كان الفُقَرَّا إذن، يحاولون بناء إمبراطورية تجارية خفيَّة،كما كانوا يتسللون إلى دواوين حكم أبي هلال، خفية دون أن يحس بهم أحد، بسبب مواقفهم الهلالية أكثر من الهلاليين أنفسهم!.. ساعدهم في هذا التسلل، النظام السري العقائدي الشمولي المركزي، الذي حكم العلاقات الداخلية للفُقَرَّا، وجعل من العسير اختراقها، أو التعرف على أعضائها، الذين لم تكن لديهم علامات تميزهم عن الآخرين :لا يختلفون عن الجلابة كثيراً، كما لا يتمايزون في سحناتهم عن

بني هلال، أو أهالي دار صباح.. تجدهم حتى في تجارّة الأندايات، والبيوت ذات الرايات الحمر، وكل شئ..

فكل شئ كان ضمن أنشطة تجارتهم الرائجة.. كان أبي هلال يحس بوجودهم حوله، ويشعر بهم كالسوس ينخر جسد دولته، ولذلك عندما رشح خواصه، الذين كان بعضهم من الفُقَرّا السريين ود بندة كمستشار نابه لشئوون قوافل بني هلال لرجاحة عقله ومعرفته الواسعة بشؤون التجارة -على الرُّغم من أن ود بندة، كان آخر شخص من الممكن أن يفهم في أمر القوافل والتجارة- شك أبو هلال في الأمر وأراد الاستوثاق من شكوكه بتقريب ود بندة منه.. وكان تصرفه هذا متوقعا لدى الفُقَرّا، الذين تميزوا بقدرّة غريبة في تحليل الشخصيات، ووضع إحتمالات أفعالها وردود أفعالها..

ولذلك كان سهلاً عليهم إستنتاج، الطريقة التي يفكر بها أبي هلال الذي حقق لهم مرادهم، دون أن يدري..

ومع ذلك ستثبت قوادم الأيام أن معرفة الفُقَرَا، لحدود قدراتهم ليست دقيقة، وأن أقل ما يمكن أن يوصفوا به، هو أنهم قوم ذوي طموحات كبيرّة، تفوق أضعافاً مضاعفة، حجم قدراتهم الحقيقية ومواهبهم الطبيعية..

وقتها كانت المجاعة قد دفعت سكان أجزاء واسعة من البلاد الكبيرّة، في الصعيد والسافل والوسط، وأجزاء أخرى من دار الريح، إلى النزوح من حاضرّة دار صباح، التي كان الفُقَرّا قد خزنوا فيها كميات لا حصر لها من الذُّرّة.. فبدت أطراف حاضرة دار صباح مكتظة بالناس الذين سكنوا العراء، لا يقيهم من برد الشتاء أو حر الصيف، سوى بعض أغصان الأشجار الشحيحة، التي حاولوا نصبها ما استطاعوا، ووضع أي شئ مفرود بينها، علهم يتقون شيئاً من الحر اللافح، أو الزمهرير دون جدوى..

في تلك السنوات مات عدد لا يحصى، من أهالي البلاد الكبيرَّة بسبب الجوع والعطش وانتشار الأوبئة والأمراض والحروبات، على الموارد الشحيحة..

وفي المقابل نشطت حملات الرِّق، فراجت تجارَّة الرِّق والدعارَّة، فأغتني كثيرون، تكونت منهم طبقة مباغتة، توثقت عُرى مصالحها مع الفُقَرَّا والهلاليين والجلابة..

هذا الحلف المباغت، لهذه المجموعات التي تتمتع بثمرة عمل الآخرين، في الزراعة وأعمال الرَّقيق وبيوت الرَّايات الحُمر وتجارَّة القوافل كان هو -من جهة أخرى ضمان تنامي قوة ونفوذ الفُقَرَّا- ولذلك حرصوا على تقوِيَة هذا الحلف، الذي بدى كطائفة واحدة، متجذرَّة في الحيَّاة العامة ومنسجمة، مركزها الخفي الفُقَرَّا..

ورغم كل ذلك، كانت سنوات المجاعة قد ضعضعت كل ما كان أبي هلال يستشعره من قوَّة، الأمر الذي كان يدفعه للبحث عن أمل، يمكنه من استعادة سلامه النفسي، في هذه المملكة التي يحلم بتوريثها لأبنائه من بعده، ولذلك عندما أنهى إليه الشيخ أبوخيرَّة، خبر مملكة مارتجلو الغنية المترَّفة، إنشغل خاطره، وأنفق سنوات ليست قليلة، لاعداد جيوشه، تداعبه الأحلام العراض بغزو تلك المملكة، التي هي جزء من الجنة، كما تناهى إلى مسامعه..

وظل هذا الحلم يجدد النبوءات الهلالية القديمة، عن سلطان الهلاليين الذي لا محالة سيتمدد، ليطغى على كل البلاد الكبيرة.. ظل هذا الحُلم يطارد أبي هلال. يحرمه النوم لوقت طويل. ولم يفارقه أبداً، حتى بعد أن تصرَّمت سنوات المجاعة، وفاض النيل فيضاناً ليس له مثيل في تاريخه المديد، إثر هطول المطر المدرار، في كل أنحاءِ البلاد الكبيرة الأسيرَّة وما جاورها من هضاب دار صباح وبحيرات الصعيد الأقصى..

وهكذا بدأت دار صباح مرَّة أخرى تخضَّر وتعمر.. وفي ذلك اليوم الذي تلى نهاية أحد الخرائف الممطرَّة اتخذ أبو هلال قراره، وأمر بتجهيز الجيوش لغزو مارتجلو . وبنفسه قاد هذه الجيوش

متوجهاً إلى دار الريح، هازما جيوش الممالك العديدة التي وجدها في طريقه، الأمر الذي ملأه بروح الإنتصار..

منذ وطأت سنابك خيل أبي هلال، عتبات دار الريح، حتى تناهى الخبر للسلطان "شطة" فبدأ يستعد مجيشاً كل شعب مارتجلو لملاقاته..

جعل شطَّة ظهر جيوشه متحصنة إلى جبل أب كردوس، في مواجهة جيوش أبي هلال، التي يحيطها العراء والأرض الخلاء، في الفضاء المكشوف خارج مارتجلو..

كانت جيوش أبي هلال قد أصابها التعب، اثر معركة ضارية قتل فيها شطة، وبرغم ما كانت تحسه جيوشه الا أن أبي هلال الذي قوَّى فيه مقتل شطة احساس المنتصر، أصرَّ على مواصلة زحفه، غير آبها لتعب جنده ونصبهم..

وقتها كان ود بندة قد استلم قيادة الجيش، اثر مقتل شطة، وأبدى جسارَّة وحكمة أعادت لجند الملك القتيل، رباطة جأشهم وهدأت من روعهم، وبعد نزال طال تمكن ود بندة، من هزيمة أبي هلال، الذي تفرقت جيوشه أيدي سبأ، في وديان دار الريح، تطارد فلولها الهاربة جيوش مارتجلو المنتصرَّة..

النصر الذي حققته جيوش مارتجلو بقيادة ود بندة، جعلها غير آبهة لمصير أبي هلال إن كان قد نجا أو قتل فيمن قتلوا من رجاله.. كان ما يعنيهم أكثر من أي شيء آخر، هو إنتصارهم، لهذه المملكة العريقة، التي نشأت في العزلة ووحشة الوديان..

عندما يتوقف الكَلّس في مراجعاته للحظة انتصار ودبندة على أبي هلال، تطفو متداخلة في هذه اللحظة عوالم "جلابي"كشخصية مسكونة بالخوف.. هذا الخوف الذي صنع من ود بندة بطلاً تاريخياً، هو ذاته الذي ظل يدفع جلابي، أن يشعر بأنه عظيم ونبيل!..

تساءلت غلوريا:

"اأنت تحكي حكايتنا، أم حكايتكم؟!"

فرد بطريقة آلية كالمنوم مغنطيسيا:

"بل أحكي حكايتهم"

لا أحد يدري بالضبط كيف تكون في دخيلة جلابي، مثل هذا الشعور، فعلاقة جلابي بكل من حوله ظلت عاصفة، لا تفتأ بين آن وأخر، تقتلع أمامها كل ما هو راسخ!..

أخضع جلابي كل من حوله.. الوحيد الذي لم يتمكن من إخضاعه هو دبك، وكثيراً ما كان يشعر، أن علاقته بدبك أشبه باختبار القوَّة..

كان الهتاف بإسم جلابي، والتصفيق له من أحب أغنيات المداهنة والنفاق، التي يطيب له سماعها!..

لا يذكر جلابي في حياته العامرَّة بالمعارك، أنه أحب فتاة قط..

كل النساء اللاتي ربطتهن به علاقة، اسقطهن عن حياته، بمجرد حصوله على مبتغاه!.. جميعهن كن من أجمل نساء "ودبندة/جلابي".. يتباهى بخضوعهن في مجالسه العامرة بالمنافقين والغرباء وذوي الأغراض..

ومع ذلك لطالما حلم جلابي بنوع من الحب الأسطوري، كذاك الذي حملته غربة بني هلال!..

٨

عندما حل "الدريب"(جد ود بندة) بدار صباح، وحسم أفكاره المتناهبة، بالتكتم على كل ما جرى من وقائع وأحداث، لإبنة سلطان دار صباح.. هذه الوقائع التي أنتهت بموتها غرقاً..كان قد قرر في نفسه، الحيَّاة بمنأى عن كل ما يجلب له الهم والغم، لكن لم يلبث نمط حياته أن عمَّق داخله، الشعور بالوحدة والشوق للأهل والأوطان..

إلى أن كان ذلك اليوم الذي رأى فيه "قند اليمن" تتهادى كغزال نافر.. كانت قند اليمن إبنة أحد الفُقَرَّا الذين امتلكوا، ثروَّة طائلة من تجارَّة الرِّق، حتى بات نفوذهم يهدد نفوذ سلطان دار صباح نفسه!..

إضطر الدريب أن يكشف عن أصله وفصله، وحسبه ونسبه، حتى يزوجه الفَقِير إبنته.. في ذلك الوقت كان "العاتي" -والذي هو جد ود بندة- إبن عم الدريب قد تمكن من إقناع والده سلطان الهلاليين الكبير، بأن يضعه على رأس جيش كبير، لمد نفوذ الهلاليين، إلى ما وراء البحر الملوَّن، حتى حدود ذلك النَّهر الأسطوري العظيم حيث تغيب الشمس خلفه..

فأستحسن سلطان الهلاليين الكبير مقالة إبنه، وسرَّه أن ولي عهده قد كف آخيراً، عن مطاردة الجواري، ومصاحبة السوَّقة، وأصبح يهتم لأمر الدولة ويفكر كالملوك!

كان قد ظن حقاً أن فِكر إبنه قد تحوَّل عن حيَّاة اللهو والمجون!.. ولم يلبث على دخول الدريب بقند اليمن، سوى أشهر قليلة حتى داهمت جيوش إبن عمه العاتي، مملكة دار صباح، فقتلت سلطانها وبددت نفوذ حلفاءه الفُقَرَّا، بعد أن قتلت قائدهم جانو قرمط!

كان قد نما إلى علم العاتي، منذ وقت مبكر أن إبن عمه "الدريب" قد احتمى الفُقَرَّا، وتزوج منهم. وهكذا ظل الهلاليون يستهدفون هذه الطائفة، بالقمع والقتل والتشريد، في كل عهودهم التي لم يكن أقساها، على الفُقَرَّا عهد أبي هلال وحده..

منذ أن حل الهلاليون بدار صباح، أصبح الفُقَرَّا لا يستطيعون الإعلان عن أنفسهم، بل أن الهلاليون أجبروا الكثيرون منهم على التبرؤ أمام الملأ، عن كل علاقة لهم "بجانو قُرمط" وطائفته، معلنين التوبة التي كان الهلاليون يحرصون على توثيقها، بالتوقيع والختم عليها!

إذ لم يكونوا يكتفون بمجرد التصريح، دون التوثيق كتابة على رقع الجلد، التي كانت تُحفظ في خزانة بعينها في قصر الهلالي الحاكم..

ومع انكماش الفُقَرَّا وتشردهم في بقاع البلاد الكبيرَّة، وتخلي كثيرون عما ظلوا يعتقدونه، من أفكار لوقت طويل، ظلت فئة منهم على ولائها لأفكار جانو قرمط.. لكنها أنكفأت، حتى أصبحت أشبه بجماعة صوفية مغلقة.. نادراً ما يلتقي أفرادها -وفي ظروف بالغة السرية والتعقيد- حيث كانوا يتداولون تلك النبؤة، التي زعموا أنها وردت على لسان جانو الذي كان قد أسر بها لخواصه، عن فتىً من بني هلال يتزوج فقيرة بنت فقير، تنجب له طفلاً يطلقان عليه إسم أبا جريد.. وعندما يكبر هذا الطفل يحقق للفُقَرَّا، مجداً لم يحلموا به أبداً..

ربما أن شيوع هذه النبؤة منذ حيَّاة جانو، هو ما دفع والد قند اليمن، إلى تزويج إبنته للدريب جد ود بندة، بعد أن علم أن أصله من الهلاليين، خلف البحر الملون..

لبني هلال أيضاً نبؤة غامضة، توارثوها جيلاً عن جيل، منذ كانت مملكتهم الواسعة مجرد مضارب لخيام، يمرحون بينها مع الخيول والجمال والغنَّم، حتى تنامت وأصبحت مملكة واسعة الأرجاء، يحكم الهلاليون كل جزء منها..

تقول النبؤة أنه سيولد في أحد أجيال بني هلال، في وقت واحد.. ولحظة واحدة: إبنان لأخوين.. يحبان بعضهما كثيراً، ثم يصبحان عدوين لدودين لبعضهما.. يقطعان البحر، ويقيم نسلهما ممالك عديدة، بعيداً عن الأوطان..

هذه النبؤة الخلو من أي تفاصيل، كانت تؤرق خواطر الهلاليين، الظامئين للنفوذ والسلطة، وكانت هذه النبؤة، هي أحد أسباب قبول سلطان الهلاليين الأكبر، تنفيذ رغبة إبنه العاتي، في المضي قدماً على رأس جيش قوي، لمد نفوذ الهلاليين خلف البحر الملون..

وعلى الرُّغم من أن هناك أسباب أخرى خلف هذا القبول، إلا أن هذه النبؤة، وما ظلت تشعله من أحلام النفوذ، والسلطان. ظلت تشتغل في نفوس الهلاليين لوقت طويل..

العلاقة بين جلابي وكبير الفُقَرَّا الشرعيين في دولته، التي تعج بالغُرباء الفُقَرّا غير الشرعيين، أتباع جانو قرمط، ظلَّت غامضة حتى لحظة دخول أولئك الناس البيض، ذوي الدَّم الأزرق، في مؤخرة طلائع مليشيات دبك..

فكبير الفُقَرَّا شخص من ذلك النوع، الذي تنسج وتنسب حوله الحكايات، التي يصعب تصديقها، فإلى جانب أنه كائن يجد غاية متعته في الإستمناء (كما يطيب لود الخزين التعبير)، كان يتميز أيضا بالإبتسمات الشبقة، التي يمنحها لأتباعه ومريديه، بسخاء مريب!

فكبير الفُقَرَّا ظل طيلة عمره، في حالة حب دائم كعاشق ولهان، مغرم بحبيب مجهول، لا يعرفه أحد وإن كانت سيرته على كل لسان!.. ولكبير العرافين عشق خاص لترانيم مجهولة المصدر يزعم أنه يسمعها في الليال المقمرَّة، فتملؤه حبوراً وتجعله يسير آلاف الفراسخ، في طريق لم يمض فيه أحد من قبل! أو من بعد!..

كان يتبع تلك الهواتف المتوَّهمة، التي تقوده من ظلمات إلى إضاءات خافتة، فشعور بالخدر اللذيذ، حيث يشعر بالتحرر الكامل..

كان كبير العرافين يدرك أنه حصل على الحرية، بعد أن دفع ثمنها من الشائعات، التي نالت من سمعته الجنسية، لعشرات السنوات. ولم تكف حتى مدونات دبك من تناولها، حتى أضطر الكلس لتخليدها..

الشعور الذي كان يحسه كبير الفُقَرّا إزاء هذه الشائعات -مع ذلك- لهو شعور شبيه، بالشعور الذي يمنحه حجر كوتو المقدس، والمرآة السحرية لمن يمتلكهما!..

كما ظل الفُقَرّا أتباع جانوا قرمط يعتقدون، إلى جانب اعتقادهم في رماد جمجمة جانو.. هذه الأشياء الثلاث، التي بمثابة أهم الرموز الروحية للجريديين أتباع جانو، والديانات المحلية، السابقة لليهودية والمسيحية، في البلاد الأسيرَّة..

عاش الجريديون أتباع جانو، كل تاريخهم يحلمون ببناء عالم بديل، لعالم دار صباح ذات الوجه التاريخي الموغل في القدم، لينتهي بهم المطاف في طائفتى الفُقَرّا والحلفاء الأصيلين لعمد ومشايخ وطوائف سلطة بني هلال، راكلين كل ما حلموا به يوما، وتعرضوا بسببه للبطش والقمع! فهم كطائفة، إنبثقت من رحم الديانات البائدة إنطوت على كل توجهات الطوائف الأخرى لتخفي أجندتها السرية بمكر، وللسبب ذاته يصبحون هدفاً تاريخياً دائما للآخرين..

هؤلاء الآخرين الذين سيكونون باستمرار، محض محفزات لذكريات المحن والمرارات.. الأمر الذي سيتوقف عنده دبك طويلاً خلال بحثه عن إجابات شافية لأسئلته الحارقة، التي لا تبدأ بالتأمل، في إختيار الكرسني لحياة العزلة والوحشة في البرية، إلا بعد توصله -بالتأمل في أزمة بني هلال في دار صباح- والتي تكمن -كما ظل يعتقد- في إمكانية إستمرار التواصل الحقيقي بينهم والآخرين، وهكذا يختار بريته الموحشة، كعالم بديل لعبثية حياة دار صباح، كما كان يردد في دخيلة نفسه، دون أن يجرؤ على التصريح..

لا يزال الكلس كقاريء نهم، وكاتب فاشل يعتقد ككثيرين، من أبناء قومه الموهومين، أنهم يتحدرون من سلالة المقدس دالي، ويتصورون أنفسهم كأرباع آلهة، على عاتقها تقع مسئولية إنقاذ دار الريح، وانتشالها من محن وأوهام وكوابيس الهلاليين..

بصوت هامس تقول غلوريا:

"تنفسك يضايقني"

فيقبلها بعنف.

كانت سماء برينسس آن غبشاء في هذه الظهيرَّة الحارقة.. التي يكاد كل شيء بسببها يتميز من الغيظ.. الأمر الذي يدفع الأهالي إلى التماس الإسترخاء، في العريشات خلف بيوتهم، أو تحت جُدُر مساكنهم، يرتشفون البيرَّة إرتشاف الشاي، ببطء وتلذذ، ليغرقوا في عالم من الصمت المتقطع، الذي يحيط البلدة، التي تصبح كردهة كبيرة، يتناثر داخلها الناس، في تجمعات صغيرَّة، يمارسون هواياتهم المحببة، في تبادل الحديث الفاضح دون تذويق..

كانا في شقتهما، هو وغلوريا.. جزء من هذا العالم، المسكون بأوهام "السستم" وخزعبلات القانون، هذه الأوهام.. التي لطالما أخذت الكثيرين في سُبات عميق، لقرون طويلة..

فتحت غلوريا عينيه على هذه الأوهام، فاستفاق وهو يحملق في وجهها، يحاول أن يرى النَّاس والحيَّاة، في هذا الجزء من العالم بعيونها، التي تخترق سطح الحياة هنا، إلى جوهرها المرعب..

حل المساء على شقتهما الدافئة بتماثيلها الأبنوسية اللامعة، التي يبرز من بينها تمثال لشجرَّة عجوز غير محددة النوع، لا تنتمي لأي نوع معروف من الأشجار.. تنتمي فقط إلى نفسها، بجذورها الكثيفة المتشابكة، على قاعدة سميكة من خشب التيك..

حاول أن يرد على غلوريا، أثناء إرتداءها قميص نومها مرَّة أخرى.. ثم تراجع مكتفياً بالتساؤل:

"ما به تنفسي؟"

"رائحة البيرة"

ترددت لبرهة وهي تقف في وسط الغرفة، ثم أضافت:

"أصبح أنفي حساسا تجاه الروائح، يبدو أنني حامل"

تقدم منها وهو يتفحصها ملياً، ثم أحتضنها دون أي تعليق.. فضمته وهي تبتسم في قلق رصين..

كان وجهها مرفوعاً، وخفقات صدرها الهادئة، تجعل نهديها يهتزان بخفة غير ملحوظة.. فقط يحس دفئها.. ثم انهارت بعد طول مقاومة، لمشاعر متناقضة ومختلطة، مبعثها المخاوف والظنون، وأنفجرت ببكاء خافت، عميق ومعبر..

المرَّة الأولىٰ التي التقى فيها غلوريا، قبل أشهر ليست قصيرَّة، مع بداية إعلان الديموقراطيين لباراك أوباما كمرشحٍ لهم، كانت متجهمة، لكن أليفة الملامح، لا تملك إزاء سلطة تواجدها معك، في نفس المكان، سوى أن تسعى جاهداً، لكسر القناع المتحفظ الذي تحيط به نفسها..

وهكذا سعى حثيثاً للتواصل معها.. كان ذلك عندما وجد نفسه يعمل معها في ذات الموقع، في عطلة نهاية كل إسبوع.. في الإسبوع الثالث كان التجهم قد فارقها، وحل محله لطف حنون، هو جزء من طبيعة أصيلة، تحاول إخفاءها لمواجهة قسوَّة الحيَّاة..

ولم يمض شهر حتى كانت قد ألفته، وأخذت تحكي له عن حياتها وجذورها، المزيج من الهنود الحمر والآفروأميركان...

كانت غلوريا تنتمي لهذه البلاد بمحبة عميقة.. محبة لم يرى مثلها من قبل، وتعتقد أن هذا الإنتماء العميق، ثمرة تاريخ طويل من مقاومة السحل، ونضالات جسورَّة ضد التمييز.. وفي ذات الوقت كانت تتصور بلادها، على نحو ما تريد وتحلم.. وليس كما هي في الواقع الذي تؤمن أنه لا محالة زائل..

إذن كانت غلوريا تنتمي لبلاد في أحلامها ورغباتها.. بلاد تشبه الطريقة التي كتب بها دبك مدوناته..

"أوباما خير دليل على ما أعتقد.."

"نعم خطوة في الإتجاه الصحيح"

كانت غلوريا تؤمن بنظرية المؤامرة، وتتصور أن كل ما يجري من حوادث -كحادثة سطو الأفرو أميركان الثلاث على مكتب البريد- إنما هو جزء من مخطط أبيض، للنيل من مشروع أوباما..

غلوريا لا تحب الكتب والثقافة والمثقفين، تحب الكلام المباشر الصادر، من القلب. دون تذويق أو زخرفة، لكن عندما تسمعها تتحدث، تشعر بأنها تمتلك حس عميق بالمعرفة، هي نفسها لا تعرف مصدر هذا الحس!..

ربما أن مصدر هذا الحس، ذاكرة جدتها الهندية الحمراء أو ربما هي ذاكرة جدها الأفريقي الأسود.. وربما هي تجربة كفاحها في العثور على موطأ قدم، في بلادها المتقلبة، التي يكون للإنسان فيها كل يوم شأن مختلف.. وربما وربما..

رغم أنها لا تزال على أعتاب الثلاثين، إلا أن عقلها يبدو طاعنا في السن.. عقل اختلطت فيه قيم الإنتماء بتاريخ تبديد الإنتماء، ليبرز في هذا الخليط أثر عنف التبديد،كجرح معبأ بالملح.. جرح لا تناله البكتريا، لكنه يظل مالحاً مؤلماً، معذباً محصناً ضد البرء..

اللحظة التي تماهيا فيها، حظة غريبة محصنة ضد النسيان..ل حظة حملت ملامح عذابهما المشترك، إذ كانت تحكي عن هذا الجزء من الساحل. عن إرتباطها به.. عن حياة أسلافها الهنود، الذين تم تفريغهم منه، وعن جدتها السوداء القوية التي تشعر بالفخر في كفاحها القاسي..

كانت غلوريا تحكي دون حقد أو غبينة، إذ تتصور أن الحديث عن وقائع ما جرى آلية مهمة لتفريغ الناس من عنف التمييز، كمرحلة للعبور لوطنها الحلم.. وتخلد غلوريا إلى صمت عميق، كلما عبر وجه جدتها بإحدى الحكايات، ليضيف أو يحذف في صمت دون صوت أو همس شفاه،

وفجأة من بين هذه الحكايا والجدة تغادر فضاء المكان إلى قاع ذكريات غلوريا، ساد صمت معقد.. صمت معبأ بنوع غريب من توتر دافئ، قلق، متحفز..

لا يزال يذكر هذه اللحظة، ماثلة في ذاكرته في كل ثانية، لا تفارقه أبداً.. هكذا بدون مقدمات، تكسر غلوريا الصمت المتحفز، لتدفنه في حضنها، فيتوقف دمه عن الجريان، وقلبه عن الخفقان..كانا كروحين هائمتين تبحثان عن بعضهما، لتتوحدان.. لتتحقق لهما السكينة والخلود..

شعر بين ذراعيها كأن إكسير عجيب، يحل محل دمه، كأنها تنقل إليه لحظتها فيض من قوَّة حارَّة تغمره بثقة لا حدود لها..

دون تردد أو وجل أحنت رأسه في هدوء ووصلت شفتيها بشفتيه.. أحس بكل المعان التي خطرت، أو لم تخطر على بال أكثر الشعراء كذباً، في عينيها الصريحتين الودودتين، الوادعتين والداعيتين في إستسلام تام..

كان ذلك فوق كل إحتمال، إذ كان كل شيء مباغتاً ومفاجئاً.. أغلق الكلّس عينيه وغرق في حالة من النشوَّة، أشبه بالإستلاب العميق..

كان كيانيهما المتوحدان، ينضغطان على إحساس أشد وطأة من التوق إلى الخطيئة.. وهكذا انتقلت غلوريا لتعيش معه، ومنذها وهما محاطان بضباب كثيف.. يعيشان حالة من الخدر العقلي.. ينتظران إنقشاع هذا الضباب، الذي يعبر نوافذ شقتهما، مفضيا إلى طريق مظلم.. لا شئ فيه سوى أشباح الماضي في قارات العالم المختلفة..

غلوريا ككثيرات من بنات جنسها، يتناهشها هاجس أن يتخلى عنها ذات يوم، ويرحل عائداً إلى بلاده البعيدة..

كانت تنظر إلى كراساته ومدوناته، بشعور هو مزيج من الغيرَّة والخوف من أن تأخذه هذه الكراسات والمدونات بعيداً عنها ليواجه قدره المحتوم..

كانت طبيعية وصادقة تماماً، وهي تسرِّب هذه المخاوف، وربما لذلك حملت منه لتربطه إليها إلى الأبد.. يبتسم في دخيلته:

"هكذا هن!"..

دون أن يرفع رأسه عن أوراقه المبعثَّرة، التي يطل منها طيف دبك الذي حلت فيه حياة آدمو، في محاولة مستميتة لإستعادته، إلى تلك اللحظة التي اتخذ فيها قرار الثورة المسلحة..

قبلها كانت حبيبته نينا الورتابة قد دهمت غربته ووحدته القاسية، على شفة الوادي.. جلست دون أن تستأذنه.. إلتفت إليها، ووجهه يلتف بوجهها..

كان صفير الريح يتخلل الوادي الوادع. غابت نينا في مسام الريح..تبعها آدمو وهو يجذبها إلى مركز الريح ليغرقها ويغرق معها في الأنين واللوعة، وهما يحتكان بقش القطاطي، وصريف الحيشان وسيقان الجبراكات المزروبة بعيدان الدخن والشوك..

كان دبك يدرك أن نينا تعلقت به منذ الصغر، تعلقه بها. لكن تعلقها به كان لأنه المحسوس أمامها.. تنظر لقصتهما معاً، كقصة حب حالمة، وهما يتسللان خلسة، من خلوة الفكي إبراهيم قرض، إلى الدغل على ضفة الوادي، أو الغابة الصغيرَّة، حيث صندل الردوم، والدروت أعلا قوزالسمسم..

كان هدؤ نينا يضفي على جنوحه طابع المغامرة، التي يحب. وبشعائرهما المقدسة، عند لقاءاتهما تنفتح بوابات السحر، ونوافذ الشجن الريفي، كأنشودات أثرية لم تكتشف..

غموض دبك هو ما يدفع بقلق نينا إلى أقصى الحدود.. عندما يغيب دون رسائل.. عندما يجيء دون توقع.. تتمنى دائماً ألا يسافر مرَّةً أخرى، وهكذا تظل تتمنى في معاناتها الدائمة لتوجداتها، منذ سنوات دراسته في دار صباح، حتى لحظة دخوله في تلك العزلة البديعة، التي خرج منها ثائراً، يحمل السلاح ضد جلابي ود عربي..

عندما فكر أبوجريد في صياغة بلدة الأرباب على ذلك النحو، الذي آل بها إلى خاتمتها الرهيبة، كان في الواقع يعيد إنتاج تجارب الممالك الفاشلة، التي تعاقبت على البلاد الكبيرة، عبر عشرات السنوات السابقة، لتخريب عجوبة لسوبا، مروراً بفاطمة السمحة، التي طعنها قادة الجيوش المتحالفة، طعنة رجل واحد، لينقط دمها دافئا في أوراق الرسائل والمدونات، كحبر سري كتبت به وثائق غير صالحة للنشر..

وثائق تقترح ليس إعادة كتابة التاريخ، بل تأليف تاريخ بديل، لخلق أسطورة أمة متوهمة من خليط غير متجانس.. تاريخ بديل لا تفوح منه سوى رائحة العفونة والعطن..

يرفع الكلس رأسه عن الأوراق الملخبطة أمامه.. يحاول ترتيبها عبثاً، فيجيء صوت غلوريا من أعماق النعاس:

"ألا تريد أن تنام؟"

"لا تقلقي سأحق بك بعد قليل"..

علاقته بغلوريا علاقة معقدة.. نوع من الحب المتشابك، مع وقائع وأحداث التاريخ الشخصي لكليهما..

يخيل إليه أحيانا أنه نوع ينتمي لذات النوع، الذي ربط بين أبوجريد ومسك النبي، أو فاطمة السمحة وود النمير أو..

مع غلوريا تعبأت ذاكرته الخلوة من حياة المرح، بمشاهدات جديدة وعوالم مختلفة.. فغلوريا أنثى مسكونة بالحياة.. علاقته بها لا تقل تعقيداً عن علاقة دبك/آدمو بنينا، التي فجرَّت داخل دبك كوامن لشجن أزلي.. لروحه الملتفة في دمور أبيض، موشح بالدَّم، يحاصر أحلامه النادرَّة..

جمال غلوريا/نينا.. جاذبيتها.. سحرها الذي يشبه الإحساسات المتسربة، من بوح آلهة العصور الغابرة.. كل شيء يخصهما:

نينا/غلوريا.. يدفعه إليها دفعا فتتسع المسافة بينهما في الآن نفسه!..

القسم الثاني:

١

قليلة هي تلك البلدان التي تنشأ في العزلة، بل هي نادرة أو تكاد تكون غير موجودة، فالطبيعي أن تنشأ في الإتصال والتواصل، لكن ما هو مبهر حقا أن تنشأ بلدة ما في العزلة، كما حدث مع جلابي ود عربي...

كنبت منبت نشأت جلابي ود عربي في العزلة، على أنقاض المدينة الخالدة "مارتجلو".. ككون صغير قائم بذاته، يتعاطى مع الوحدة، يتصل بالوحشة، ويتوحد مع هذا الوجود الغامض، ليشكل وجوده المعزول عن كل ما حوله، في العالم الذي يبدو كمجهول بالنسبة إلى هذا الكون الصغير.. ليصبح إسم جلابي ود عربي..

هذا الإسم، الذي لن يلبث أن يتبدد هو الآخر، عندما تتضاءل العزلة وتبدأ في التلاشي ببطء -مجرد إسم يكشف عن ملامح ذلك الكون البائد، الذي كان إسمه ذات يوم "جلابي ود عربي"..

في هذا التبدد تحل أرض طينية قردود، تفضي إليها سباسب ووهاد ورهود، تتخلل جروف الرَّمل والأودية وغابات القمبيل، وصندل الردوم وشجيرات القضيم، وعشبات السناسنا...

أسلاف الأهالي الذين سكنوا جلابي ود عربي، لا أحد يعرف بالضبط، من أين جاءوا إلى هذه العزلة، التي ليس ثمة طريق مألوف يفضي إليها، فهي عزلة أشبه بالمسارات، التي خامرت هواجس الرحالة والمكتشفين، أو تلك الحكايات الغامضة، عن قارة أطلنطس الغارقة، أو المدينة المفقودة أو الواق الواق...

كل شيء في جلابي ود عربي ذلك الزمان البعيد، يشبه معالم كونها الصغير، المحاصر بالصمت، لكن الدفء.. السكون لكن الحميمية، حيث تتوحد عناصر طبيعة هذا الكون وإنسانه، في كيان واحد، حتى لا تكاد تفرق بين الانسان والشجرَّة أو الحجر.. وماء الشلال مجهول المنبع، الذي يسقي كل جلابي ود عربي. التي قبل أن تحمل هذا الاسم، كان اسمها مملكة الشلال، التي تعاقب على حكمها أحفاد كثر لدالي، كان آخرهم شطة. الذي ورّث عنه ود بندة السلطة، بعد أن تزوج أخته الميرم...

فهذا الاسم هو أقدم أسماءها الثلاثة، التي عرفها بها الباحثون -خاصة دبك ومن بعده حفيده الكلس- في صراعات هذا الجزء المنسي من العالم..

قبل أن تحمل جلابي ود عربي هذا الإسم،كان إسمها "وادي ود بندة" والذي عاش فيه نوع من الناس، توحدت فيهم الغربة، فأورثتهم طابعاً غريباً من الشجن، كالنقش على وجوههم المخددة بالمواجد..

"يرجح الكلس أن وادي ود بندة، هو مرحلة سابقة للأرباب، لكنه ليس واثقاً تماما، إذ أن كثير من الحلقات مفقودة، ما يجعل التأريخ هنا متداخلا في أزمنته المبتورة، بحيث يصعب الجزم أيهما أقدم أو نتاجا للأخرى: "جلابي، أم الأرباب"..

ربما أن هذا الطابع الغريب من الشجن، هو ما يقف خلف ذلك المزيج الغريب، من المخاوف والحنين، الذي يبدو واضحا في قسمات نسلهم الغامضة..

"جلابي ود عربي" أشبه بمركز لإقليم مترامي الأطراف، تناثرت على اتساعه في تباعد يحمل سمة عزلتها، بلدات عدة هنا وهناك..

أقرب البلدات إلى جلابي "مُتور" بسكانها الذين لا يزيد عددهم عن بضعة مئات، وهم ذاتهم يبدون كنسخة مكررة لأهالي جلابي ود عربي..

وتنهض قريباً من مُتُور البلدة الثالثة "مُرّدَفْ" التي يطلق عليها البعض أحيانا "سُرِّيْ".. إذ تشكل البلدات الثلاثة، ما يشبه المدينة الواحدة، إذ لا يفصل بين ثلاثتهن سوى وادي أزوم، الذي تنهض جلابي عند نقطة تفرعه إلى فرعين:

فرع "سِجِلّو"حيث تنهض مُتُور، مقابلةً مُرّدَفْ، في الفرع الآخر "اللّه مرقا" حتى لينطبق على هذا الجزء المعزول من الإقليم إسم مدينة جلابي المثلثة.

السكان هم ذاتهم، في أي من بلدات جلابي الثلاثة، بملامحهم الغائرة في العزلة، وقسماتهم المنحوتة في الغموض، بلونهم الأسمر الفاتح، وطقوس حياتهم اليومية المكررة، بحيث تشعر بتيار الزمن، يكاد يكون متوقفاً، وأنت حيث أنت: لم تتحرك قيد أُنملة.. حتى لو كنت تتجول بين البلدات الثلاثة طيلة الوقت..

ولذلك الحياة الإجتماعية للناس، هي نفسها تكاد تكون متطابقة، في كل بلدة من بلدات جلابي: حياة لا تخلو من من الحسد والتنافس على اللاشئ!.. ومع ذلك، هي حياة لا ينقصها التعاون، لكن الثرثرة والنميمَّة، ولا تخلو من المحبة، لكن الحذر والتحفز..كما لا ينقصها شيء من الإتكال والتواكل والتنصل من المسئوليات تجاه مجتمع جلابي، بل وغالبا ينشط بعض المخربون لإهدار مجهودات من يتصدى لتحمل مسئولية عامة في جلابي..

إنها جلابي ودعربي، البلدة التي غذتها العزلة، بالمتناقضات، فسكنها الفراغ.. وتأثير الفراغ في حياة الناس تراه أوضح ما يكون في "الهدية".. هذه المرأة الأربعينية، التي لا تلاحظ فيها للوهلة الأولى سوى نوع من وسامة ذكورية مزعجة، إلى جانب أن للهدية صوت منفر كالصهيل الصدئ، والهدية عندما تتحرك أمامك، يمكنك أن تلاحظ تعجل مشيتها المعجونة في الوقاحة والتصنع.. وبعامة، الهدية أحد أكثر شخصيات جلابي إستفزازاً، حتى لو لم تفعل أو تقل أي شئ.. فمجرد التواجد معها في مكان واحد، يجعل الناس مشحونين بالتوتر والتحفز!..

طوال حياتها لم يصادقها أحد سوى "الدود".. هذا الرجل المتعجن في مشيته،كالنساء ذوات المؤخرات المثقلة.. إذ تلاقت أهوائهما وتوحدت كيميائهما، فشكلا ثنائيا مرعباً.. عاشا معا في مسقط رأسهما "متور" إلى أن إنتاب الهدية قلق خفي، دفعها للرحيل إلى جلابي، وخلف رحيلها فراغا مهولاً في حياة الدود، الذي لم يلبث أن قرر اللحاق بها..

الهدية والدود كانا مغرمان بالتجسس على أحوال الناس، وتسقط أخبارهم، إذ كانا يتميزان بنوع غريب من الفضول الوقح، الذي ليس له مثيل في تجربة النفس البشرية، في رحلتها الهائمة الطويلة، منذ لحظة الخلق الأولى، إلى التبدد النهائي..

والهدية والدود لا يتورعان عن اختلاق الأكاذيب عن الناس، ونشر الشائعات وممارسة النميمَّة طوال الوقت، لإشباع رغبتهما الملتهبة، التي لا يعرف أحد كيف يطفئها،كما أن لا أحد يعرف دوافعها..

إذن كانا دائما مهمومان بإعلان ما يسره الناس ويكتمونه حتى عن أنفسهم! وأكثر من ذلك، لم يكن ثمة سر مهما تكتم عليه صاحبه، ليخفى عنهما.. إذ لا يلبث السر أن ينتشر متخطياً حدود البلدات الثلاثة، ولا يتوقف استشراءه، إلا بعد أن يصطدم بجدار عزلة الإقليم..

عندما غادرت الهدية متور إلى مركز جلابي ود عربي، شعر أهالي متور بشيء من الفرح، الذي لم يكتمل إلا بعد أن لحق بها الدود..

تنفس الأهالي الصعداء، وأقاموا الاحتفالات لأيام وليال، معلنين أسباب مختلفة للاحتفال، لكن الهدية والدود،كانا يعلمان حقيقة هذه الإحتفالات، حتى أنهما "كيتاً" في أهالي جلابي فكرا في العودة مرة أخر، لولا أن شعورهما الخفي بأن مركز جلابي لم يعد هو مركز جلابي القديم ذاته، إذ أصبح ينطوي على أشياء غامضة، تمور في صمت..

تآكلهما الفضول لمعرفتها ونشرها، وهكذا بدلا متعتهما في تعكير صفو أهالي متور بالمتعة المنتظرة، بإكتشاف الغامض تحت سطح جلابي..

كان حسهما الخفي كالترمومتر، يستشعر إحساسات غامضة، بوقائع ستنكشف ذات يوم.. هذا الشعور الذي لم يلبث أن سرباه إلى تينا ومرين، اللذان كانا لا يأبهان كثيراً لشئ مما حولهما، سوى قبول الآخرين بمحبة، وتحملهم دون من أو أذى..

بهذا الشعور الغامض نفسه، الذي تناهش الهدية ومرين عاش جلابي ود عربي -هذا الرجل الضئيل الحجم، وفقا للأبحاث التي أجريت على هيكله العظمي- الذي حملت ود بندة اسمه، كل أيام حكمه متآكلاً بالغربة والحنين، إلى وطن غامض خلفه وراءه، هناك.. خلف ساحل البحر الملون.. ذات الحنين الذي صاغ به جده ود بندة مملكته..

كشفت عن هذا النوع الغامض من الحنين، رسومات اللغة البدائية، التي وجدت على جدران كهوف جلابي ود عربي وخزفياتها، ومدوناتها المكتوبة على غير مألوف الورق..

في مراجعاته لتاريخ جلابي ود عربي، إنتبه الكلس لشيء طالما أغفله الباحثون، أثناء ركضهم خلف تحليل التاريخ السياسي.. هذا الشيء الذي أخذ يؤكد عليه دائماً، يتمثل في العزلة التي صاغت هذا التاريخ، فبتوجيه النظر إلى الجانب الآخر.. يمكن الإنتباه إلى حياة اجتماعية ذاخرَّة بالشاعرية والحيوية، كما تفيد إحدى المدونات، التي تمضي فتصف حب أهالي جلابي للحياة، بطريقة مبهرة، في سرد هذه المدونة، لوقائع جلسات الأنس التي كانت تعقد في منتصف كل شهر قمري..

٢

بعد محاولات عديدة ووعد ومواعيد كثيرة، وفي إطار من السرية المتسربلة بسلسلة معقدة من الإتصالات، نجح دبك في الحصول على دعم الجوار، كان مفاوضوه يبتسمون في دهاء وهم يسمعون حديثه عن "الشلالل" وأمجاد أسلافه وآلام التحولات وهيمنة جلابي..

في تلك الظهيرة التي التقى فيها دبك مفاوضه الأنيق ذي الدَّم الأزرق، كان مشحوناً بإنفعالات الأرض/نينا ومشاهد الرفاق الذين سقطوا في غارات جلابي، وأحتلت صورة أمه العجوز "خاترة" فضاء ذاكرته وهي تحترق، داخل قطيتها المحاصرة، بجنود جلابي.. ورأى نينا تبكي بحرقة، تتكاثف في عيونها مشاعر الأسى العميق..

كانت قد رأت بأم عينها جيش جلابي يحرق "الفرقان" ويغتصب النساء ويقتل في وحشية..

كان دبك يعلم أن مواجهته لجلابي، تعني مواجهة ذات الحلف القديم، الذي دهم "بلدة الأرباب" ذات فجر غامض، لذا حرص على ترتيبات عديدة لتجنب مصير مرتقب..

كان في صحوه ومنامه يحلم باقتلاع عيني جلابي وخوزقته. تماماً كما فعلت الجيوش المتحالفة بـ "الأرباب" العجوز الماكر، في لحظة من لحظات التاريخ المنسي..

كان دبك يرى أن هذا النوع من العقاب، لجلابي وسدنته ضرورة لازمة، لبناء دار الريح على نحوٍ يجنبها الاندثار والتبدد، الذي لحق بـ "الأرباب" التي كانت قد شيدت من الدم والدموع، كأحد أكثر كوابيس الغربة جنوناً..

ولذلك لم يكن دبك يريد لدار الريح أن تكون إعادة إنتاج ﻟ "الأرباب" فغاية حلمه الثوري بناء التصور الذي فشل أبوجريد في إنجازه، بأن تصبح دار الريح فضاءً مفتوحاً لا تحاصره العزلة والغزوات..

فضاءً يتجذر فيه الإنتماء، ويتقارب فيه الناس، بحيث يمكن للمرء أن يولد من جديد.. وكان أشد ما يخشاه، أن تظل هذه الأفكار مجرد أحلام في خاطره، لا تجد طريقها للتحقق في الواقع الفعلي.. هذه الأفكار، هي الأفكار ذاتها التي ظلت تطارد أبي جريد طيلة حياته، فأضاعت حبه ﻟ 'مسك النبي' وجعلته شريداً طريداً إلى أن قضى بسُّم "أبو الدرَّق" مخلفاً وراءه مخطوطته اليتيمة التي أعتمد عليها الكلس إعتماداً كلياً، لدى قراءته لمدونات جده دبك، عثر على هذه المخطوطة أحد صغار ضباط جيش المستعمرات الفرنسية، كان وفصيله قد ضلوا طريقهم إلى "عرين الوحوش" الذي شهد ميلاد حب أبو جريد لمسك النبي، وأيضا احتضار هذا الحب، تحت وطء الضربات القلقة لأحلامه الكبيرة..

وعرين الوحوش هو المكان ذاته، الذي خبأت فيه "أمونة" إبنتها فاطمة السمحة، لذلك في تقدير الكلس أن التاريخ.. تاريخ البلاد الكبيرة، لا يمكن قراءته قراءة منصفة، بمعزل عن مثل هذه المخطوطات والمدونات الشخصية، التي تكشف شيئاً من وقائع ما جرى في دار الريح، التي تمثل في الواقع الخبر لمبتدأ مجهول..

فمن عرين الوحوش، وعلى أنقاض بلدة الأرباب، ومن رماد هياكل الناس وجماجمهم، نشأت جلابي ود عربي، بأزمنتها الثقافية المتداخلة في الأرباب، حتى أن الكلس يحار في أيهما سابقة للأخرى، وأيهما شيدت على أنقاض الأخرى..

هذه المعضلة في ظن الكلس بسبب الحلقات الكثيرة المفقودة، فالتاريخ هنا غير متصل ومتواصل، كما أن المعلومات التي وفرتها مخطوطة أبوجريد والمدونات، ارتبطت بتوازنات مختلفة، فأصبح التاريخ هنا أشبه بمقالات المحررين السياسيين الفاشلين -الذين تقربهم السلطة

عادة، مستغلة ضعف قدراتهم وطموحاتهم الكبيرَّة التي لا تؤهلهم لها هذه القدرات المتواضعة -عندما يكتبون عن خصوم السلطة. إذن، على أنقاض بلدة الأرباب، خرجت للعلن "جلابي ودعربي" كإمتداد لمملكة الشلال وود بندة، مؤرخة لعهد من الحصار الهلالي، الذي تراكمت عليه أغبرة التاريخ، المعبأة بأهواء الهلاليين..

ويتأمل الكلس ملامح هؤلاء الناس، الذين يراهم الآن، في هذه اللحظة بالذات.. هؤلاء الناس العدائيون في غالب أمرهم، والذين يسكنون جلابي.. هؤلاء الناس ذوي السريرات الغامضة، والمغرمون بالمعارك الصغيرة، التي هي السبيل الوحيد للإفراج عن أحقادهم المستترة، وغبائنهم الساذجة، وشعورهم المزمن بالنقص..

فيما كان الكلس يتأمل، كان دبك في ذلك الزمن السحيق، قد علم أن جلابي قد اختطف نينا "الورتابة" للضغط عليه.. التاع.. هاجت دواخله..كانت ذكريات الذين لطالما أحبهم بعمق، وترسخ وفاءه لهم، تداهمه كألف عقرب تتصارع في زجاجة كبيرة مغلقة..

صمت دبك منهياً حكاياته، التي حملها بوح مشاعره الخاصة جداً، رغم ضغطه عليها.. تغلب على ألمه وألتياعه، وأخذ يخطب في أتباعه خطبة مختصرة، أسالت دموع الدم من عيونهم، تبلل أرض المعسكر المخفي بعناية، في قلب جبال دار الريح.. ثم مضى ينظم صفوفه، معلناً حربه الضارية على جلابي ودعربي..

ومع أشتداد المعارك، والهزائم المتوالية لجيش جلابي إنتشر الفزع في أوساط العالمين ببواطن الأمور في دار صباح، التي كان عامتها يمضون في إيقاع حياتهم ذاته، لا يعرفون شيئا عما يفعله الهلاليون في دار الريح البعيدة..

يتنهد الكلس زافراً كل مرارات التاريخ، ثم لا يلبث طيف إبتسامة مباغتة، يداهم شفتيه اليابستين اللتين أنهكتهما الخمر.. عندما تقع عيناه على تصوير لإحدى الجلسات التي تعقد في

منتصف كل شهر قمري، أو ما أسمته المدونة بـ "ليلة الأنس الكبيرة" التي لم تشهد جلابي ود عربي طوال تاريخها مثيلاً لها.. حيث يتجمع الناس في ساحة الديوان الكبير، الذي أقامه جلابي في قلب غابة السنط، داخل حديقة بديعة زرع فيها كل أزهار البرية..

وعلى هذه الحديقة البديعة، صُفت مقاعد الأبنوس، وفرشت سجادات الحرير، التي تبعثرت فوقها المساند المحشوة بريش النعام، ووضعت بتناسق، موائد التيك الواطئة بأرجلها القصيرَّة، والتي وضع عليها إناء فخاري واسع، وضعت فيه أنواع مختلفة من الفواكه: قمبيل، برتقال، جوافة.. توسط هذا الإناء قنان العسل ودلالينق المريسة، ومناصيص الشواء، التي من كل جنس: لحم غزلان، تيوس صغيرَّة، ضأن، دجاج وادي..

وعلى أطراف هذه المائدة القصيرة، وضعت حلوى القرع، والبفرا المشوية، وأواني الحليب..

كان الديوان الكبير كقاعة مزركشة، ذات تراكيب معقدة.. أسدلت في إرتخاء أنيق على مداخله، ستائر الكتان والقطن المغزول.. توسطت الديوان أسرَّة من الأبنوس المرصع بالعاج، نصبت عليها ناموسيات أشبه بالستائر..

كان الناس في ساحة الديوان الكبير قد تجمعوا في نظام معين: الرجال في الطرف الشمالي لساحة الديوان، فالشباب الذين أنتحوا في الطرف الجنوبي، بينما النساء في الطرف الغربي.. وظل الطرف الشرقي شاغراً، إلى أن جاءت الفتيات ذوات الجمال الطازج.. شرب الجميع إلى أن ارتووا وأخذوا يترنحون، ثم أتوا على المشويات ولم يبقوا على شئ من الحلويات والفواكه، ثم بدأو يرقصون على إيقاعات النُقارة، الكسوك وإبيرة ودرَّت.. ثم لم يلبث أن بدأ البعض يتسحبون إثنين إثنين، إلى داخل الديوان..

وفي أسرة الأبنوس ذات الستائر المسدلة، تشد الفتاة وسطها لتمد دلنق البقو الصغير إلى أنيسها، ثم تسحب من تحت السرير أم كيكي وتعزف لحناً شجيا تتبعه بالغناء البديع، فيدخلان في حالة من الجذب حتى يغشى عليهما، من أثر بوح الغناء..

وتركز إحدى المدونات هنا على حكاية طريفة لود بندة شخصياً، في أيامه الأولى بالشلال..
عندما حل على الشلال طريداً شريداً، بائسا وسخاً، فعمل أجيراً في مسالخ الغَنَّم، يحمل الدم والوسخ إلى موضع الكيمان..
وبينما هو في مسير عمله تعترض طريقه إمرأة متقنعة، لا يظهر منها سوى عينيها، تلتفت يميناً وشمالاً ثم تدعوه إلى أن يتبعها، فيتبعها كالمسحور.. إلى أن يصلا إلى دغل على أطراف متور، في فضاء خفي، داخله فرشت حصيرَّة مكسوَّة بالقطن والريش والكتان.. عندها أمرته المرأة بالإستحمام في مشيش الوادي خلف الدغل، فغاب وعاد نظيفاً..
سحبت المرأة من تحت الحصيرَّة، ثيابا قطنية نظيفة مدتها له، وبعد أن لبسها أمرته بالجلوس إلى جوارها، وهي تمد من طرف خفي قنينة فخار صغيرَّة، ملأى بنوع غريب من العطر الزيتي.. ومن ثم مضت إلى زاوية من الدغل، جاءت تحمل منها شواء، وفواكه ودلنق بقو..
كانت تكتفي بأن تقول له أفعل كذا وأفعل كذا، دون أن تزيد حرفا واحداً، أو تكشف عن هويتها، وهو كالمسحور ينفذ ما تأمره به دون تردد..
بعد أن شربا البقو وأكلا، أطلقت في المكان بخوراً، لم يشم مثل رائحته من قبل، ثم أخذت بيده وناما متصالبين..
وهكذا، في ظهيرَّة كل يوم أخذا يلتقيان في ذلك المكان، إلى أن جاء في إحدى الظهيرَّات كعادته وأنتظرها دون جدوى، ومرَّت أيام دون أن يبين لها أثر، إلى أن رآها يوماً تمشي في قلب حاضرة الشلال، دعك عينيه وهو يحدق فيها من بعيد، وعندما لمح طيف إبتسامة عجلى، أستوثق أنها هي ذاتها.. لكن هيبة الموكب دفعت بكل أفكاره لحظتها للتراجع..
كانت المرأة هي الميرم حفيدة دالي، وكانت رؤيتها قد هيجت فيه الشجن، وجعلته كالغائب عن الوجود. ذكرته حبه القديم لأم حجل، التي أغتصبها منه صديقه الكرسني، فعاش حياة البرية

لينتهي به الأمر، مطارداً إلى دار الريح، حيث لم تعد دار صباح في خاطره، سوى ذكرى شاحبة لتداعيات عالم منهار..

هيجت الميرم، إذن في داخله كل كوامن الشجن الأزلي، فأشتعلت فيه النار، ولم يزل في وجد وقلق.. متكتماً على أمره، يمضي في جوف الليل إلى حيث خلوتهما تلك، ولا يلبث فيها حتى يخرج هائماً على غير هدى، لا يدري أين يسير، فيمضي الليل كله وهو لا يزال يسير..

يدخل اليوم التالي فتشتد حر الشمس، تلهب الوديان والقيزان حوله.. يشتد عطشه فيمضي إلى "جمام" الوديان تحت جذوع القمبيل، فلا يحس للماء طعم أو نكهة القمبيل التي يحب.. وقد تورم وجهه وقدميه. كان لونه أيضا قد تغير.. إلى أصفر حائل كلون خرق الكتان القديمة.. ناله التعب ذات مرة أبلغ منال، فجلس تحت شجرة قمبيل، وأسلم رأسه إلى جذعها، وجسمه كل جسمه يستسلم من فرط الإنهاك..

وفيما يرى النائم، حطَّت وزينة مزعورَّة على المكان، الذي شرب منه، سألتها قمرية أعلا شجرة القمبيل التي توسد جذعها:

"ما بك"

تلفتت الوزينة حولها، ونظرت إلى حيث يرقد ود بندة، ثم قالت:

"ما خوفي سوى من إبن آدم"

"كيف يصلنا إبن آدم وهو لا يستطيع الطيران، ثم أن هذه المملكة العزلة يشملها السلام؟"

"لا يغرنك شئ، فهو مفطور على الاحتيال والخداع، لا يسلم من شرِّه وحش أو أنس"

أفاق ودبندة من سنة النوم التي غشيته، وهو يتلفت مذعورًا.. فرأى القمرية التي على شجرة القمبيل وقد طارت تتبعها الوزينة، فنهض عائداً إلى حاضرة الشلال...

لم تمض سوى أيام قلائل حتى جاءه رسول الميرم، فتبعه. وعندما وصلا إلى القصر الملكي كانت الحشود محتشدة، تتهامس حول موت السلطان دالي الذي حمل إسم دالي الكبير، و الذي كان عادلاً، محباً لشعبه، ومع ذلك كان شقيقه شطة يحسده، ويريد عرش الشلال لنفسه.. أعد شطة وليمة كبيرة، دعا إليها شقيقه دالي، وكان قبلها قد أعد صندوقاً فاخراً من الصندل، على مقاس شقيقه..

دعا شطة المدعوين الذين كانوا من خاصته في العائلة الملكية، للاستلقاء في الصندوق، ومن يجده على مقاسه فهو له، وعندما أستلقى دالي في الصندوق، أغلقه شطة عليه، ثم أخذه وأعوانه، ودفنوه في دغل بعيد عن حاضرة الشلال، ثم أعلن شطة موت شقيقه السلطان، ونصب نفسه ملكا على الشلال مدى الحياة، وأقسم أنه لن يسلم سلطته إلا لأرباب القيامة، وأن من أراد هذه السلطة عليه الإستعداد للحرب..

بدى خطاب التنصيب هذا، غريباً للحشود المحتشدة، والتي كانت لا تزال تتهامس حول وفاة السلطان، إذ لم يسبق للأهالي أن استمعوا لخطاب ملكي مشحون بهذا القدر من التوتر، والإنفعال والعداء..

ظلت حكاية مقتل دالي، سراً لا يعلمه سوى المقربون،لكن كان شعب الشلال، قد شعر بإنقباض لم يجد له تفسيراً، خاصة أنه في صبيحة تنصيب شطة، اكفهرت السماء بصورة غير مسبوقة، فتم التنصيب على عجل..

وقتها كانت اللقاءات المختلسة للميرم بود بندة، قد أثمرَّت حملها بجلابي ولهذا السبب أرسلت إليه رسولها...

تزوجت الميرم ود بندة، الذي لم يتمكن شطة من الإعتراض عليه، خشية أن تنشر الميرم حكاية قتله لشقيقه. وتأثير مثل هذا الأمر على الشلال التي لم تألف هذا النوع من الحوادث، طوال تاريخها المجيد، أبداً..

زواج ود بندة من الميرم، أدى فيما بعد، إلى أن يصبح الحاكم الفعلي للشلال، تحت حكم سلطانها الرسمي "شطة" آخر السلاطين من صلب المقدس دالي، إذ منذ وطأت قدما ود بندة تراب القصر الملكي، أخذ يعمل على كسب ود وثقة شطة، التي أتسعت لتشمل الشعب..

ظلت سلطة ود بندة تتمدد، حتى لحظة مقتل شطة كبطل قومي، في المعركة الكبيرة، إثر هجوم تحالف دار صباح على دار الريح، وبروز ود بندة كبطل نادى به الأهالي سلطاناً على الشلال التي سيصبح إسمها إبتداء من هذه اللحظة "مملكة ود بندة"..

كانت جلابي قد أفاقت من بوح غفوتها الغامضة، على صدى الصرخة الحادة التي أنطلقت من أعماق كوابيس قصرجلابي..

كانت صرخة محملة بكل مخاوف الحاضر الغامض، رددت أصداءها دار صباح، وأهتز لها قصر جلابي المتآكل، فيما كان دبك يشعر بغبطة غير مسبوقة، بإقلاقه لنوم جلابي، وانتهاكه أحلامه الملوكية..

أفاق جلابي من الكابوس الذي رأى فيه نفسه مشنوقاً، ينظر إلى رأسه المتدلي من السقف، تحيط به أنشوطة طرفها الآخر معلق في الهواء،كأنها تتدلى من السماء، مخترقة السقف، فصرخ تلك الصرخة، التي رددت أصدائها دار صباح..

تلفت جلابي حوله في الغرفة، التي خرجت منها أخطر قرارات مملكته الآيلة للزوال، وهو يحاول تهدئة روع نفسه بلا جدوى..

في لحظة مماثلة كهذه، من الشعور المزمن بالضعف، حل ود بندة بالشلال، إثر رحلة طويلة، تاه خلالها زمناً لا يعرف مداه..

كان قد ضرب في الصحراء على غير هدى، حتى أصبح مثل هوامها ووحوشها،كانت ملامحه تصرخ بتعبير واحد: البؤس..

تنهد الكلس في عمق، ونظراته تتسلل جسد غلوريا المتمددة على السرير أمامه، فيما يشبه النوم العميق.. يخيل إليه أحيانا أن ما يربط بينهما ليس حباً، بل شئ كوهم لذيذ تنشئه الغربة.. شئ مزيج من أحلام هاربة، وكوابيس شاحبة أقرب للقلق منها للمخاوف.. مزيج من رؤى عاطفية مجوسية، تهدف لتعويض نفسي، يخفف وطأة الحنين، على الروح المعذبة.. لكن سرعان ما تتبدد تصوراته لما يجمعه بغلوريا، تحت وطأة حضورها الطاغ.. رائحة الريحان البري التي تتخلل مسامها.. سلطة جسدها المستبد، والنداوة.. النداوة التي تنضح من رغباتها المتسلطة.. يا لهذا التناقض، الذي يهدم كل تصوراته عن الحب، ليشيد فقط.. حقيقة واحدة لحياته المصطكة في هذا التوتر المزمن: الحب كقدر ساخر.. كقلق موجع.. كأسى لا حدود له...

إذن كانت مشاعره تجاه غلوريا مرتبكة كنخلة في مهب الريح.. تتلاعب بجريدها الأنواء، وتتقاذفها عواصف الماضي الموحش.. الذي بصم على عيني غلوريا ومنحهما هذا النوع الغريب من الحزن أو الحب.. أوليس الحب هو أكثر أنواع الحزن سطوة!.. حزن منغلق على مشاعر، أكثرها يبدو مكبوتًا.. حزن يتبدى ناعماً في رقة شفتيها المزمومتين، على بوح شقي، يحس عبثه ورعونته كل ليلة، وهو يندس معها تحت الغطاء.. لزجاً رخواً، دافئا وحنون..

كانت سماء برينسس آن تعلن عن مطر وشيك عندما ألتفت إليها:

"لنتمشى.."

"لكن.."

"أحب المشي تحت المطر.."

صمتت لبرهة ثم تبعته.. كانت الشوارع خالية.. كل الشوارع خالية.. وحدهما وقطرات المطر الذي داخلهما، يتبللان في محبة مجنونة.. ومطر السماء المحمَّل بأحزان لحظة الخلق الأولى، يمنحهما نوع من اللذة، تغسل كل أحزان لحظة الخلق، وتستعيد أولى خطايا البشر، في هذا الحزن الأرضي، منشأه السماوي الغامض، وجبروته القادر على ضعضعتهما. الآن، في منتصف سمرست آفنيو، وفي هذه اللحظة بالذات، التي تهرب فيها كل كوارث التاريخ، إلى لوحها المحفوظ، فلا يتبقى من أثر حبرها، سوى سيولة المطر..

قطرات المطر العجلى على وجه غلوريا، هيجت فيها مشاعر أسلافها الهنود الحمر، فتداعت كأسطوانة تسجيل:

"كانت لحظتها تتداعى بلسان السحابة الحمراء، زعيم الهنود الحمر وهو يحدق بحزن وأسى والتياع، محاصراً بذاكرة المكان وقلق الميتافيزيقيا وسؤال الوجود الرهيب، وبوح الأثر الدارس: من الذى بدأ الغناء ها هنا؟.. من الذى أطلق الأصوات الأولى، للغناء فوق هذه الأرض الواسعة؟.. أنها أصوات غناء الشعب الأحمر، الذى كان يتنقل حاملاً خيامه، ورماحه وسهامه..

ما الذى يقع فوق هذه الأرض؟.. كل ما حدث لم أكن أريده، ولم يسالنى أحد. أنهم يأتون ويعبرون فى أرضنا، وعندما يذهبون لا يتركون خلفهم سوى انهار الدماء.."

وبكت غلوريا.. إمتزجت دموعها بالمطر..

أمسك الكلس راحتها بلطف:

"لنعد.."

عندما أحتوتهما شقتهما، كانا قد تناسيا كل شئ، تدفعهما رغبة البدء من جديد..

باغتته غلوريا:

"سنواتي قبل أن ألتقيك لا معنى لها.."

"وسنواتي..كل سنواتي غبار يذيبه المطر الآن.. يجمعه في عجينة واحدة، ليشكلني من جديد كشجرة قمبيل، تقاوم رياح هذا العالم.. رياح هذا الركن المنفي من الوجود.."..

وهما معا -ودائما أو غالبا هما معا: في البيت أو العمل أو النزهات المسروقة، من بين أنياب السستم- آلاف الأصوات الداخلية.. عشرات الصوَّر والأصداء، تنهض كلها في أحاسيس متداخلة بألوان قوس قزح..

غلوريا تعيش أزمته ذاتها، تشعر بنفسها مقيدة إليه، تحن لحياتها القديمة، حيث لا إلتزام يربطها إلى عاشق وحيد تخدد وجدانه الوحدة..

أفكر في هذا الحب كثيراً.. أي نوع من الحزن هذا..

"إنه نوع شقيق للعنة!.."

آلاف المرَّات فكر في الإنعتاق من ربق أسر حبهما.. عندما يكرر محاولات الهرب، تداهمه لحظة مخاتلة، ملأى بعذوبة لهفتها فيتراجع.. ربما أن دوافعه للتحرر من سطوتها عليه، هو إدراكه الخفي أن لا ذاكرة مشتركة بينهما.. فقد بدأ حياته هنا وحيداً مشرداً، يعشق السفر والترحال، بينما لم تغادر غلوريا "أرض السحابة الحمراء"..

ورِّث عن أسلافه التنقل بين المنافي، ولم ترث هي سوى الحنين إلى غابة جدتها البعيدة، أقصى سواد أفريقيا المظلمة.. الحنين لأرض غامضة ليس لديها فيها سوى ذكرى يتيمة، بدأت وأنتهت بقصة مروعة لتاجر رقيق جشع..كل تاريخها يبدأ وينتهي في هذه القصة المروعة.. والتي مع ذلك لم تعد تخيف أطفال هذا العالم العنيف...

وربما الأمر ليس كذلك، بمعنى أن هذا الحب المجنون الذي يعربد في دميهما، هو المشترك الأكبر، الذي تتضاءل معه كل الإحتمالات..

وهكذا الأمر ليس كما يتصوره أحياناً: خطين متوازيين، ومع ذلك يعلم الكلس تمام العلم، أن ثمة نوع مقيت من أدعياء المثقفين "الخطرين" سيؤكدون كعادتهم الزميمة، أن الحب هو أهم

لغة بين البشر.. لكن.. وهل هو وغلوريا بشر.. أنهما في غالب أمرهما يبدوان كروحين ملائكيتين، شاكيتين هائمتين. تبحثان عن مستقر يمنحهما سلامهما الأبدي.. أو تبحثان عن نفاج مضيء في نهاية هذه المتاهة المضنية، يختنقان على عتبته، ويتلاشيان.. ليصبحان جزء من ذاكرته المحضة وبوحه الخالص.. هواءه الذي يتنفسه المعذبون هنا وهناك...

من بوح غلوريا ينفض الكلس أغبرة التاريخ، المتراكمة على مدوناته، فلا يقع بصره سوى على "البؤس".. بؤس ودبندة وهو يطأ للمرة الأولى تراب "مارتجلو" التي تبدل إسمها إلى "الشلال".. فأحتضنته وأحتفت به ك "لاجئ" غريب..

حكى لهم عما خلف عزلتهم من عوالم، وعن رحلته الأسطورية في الصحراء، التي أصبح يعرف لغة طيرها وهوامها ووحوشها، وعما رآه في تلك العوالم التي زارها، وسيدونه ذات يوم، فيما سيصبح مخطوطات بعد عشرات السنين..

كان ود بندة كالذي يقرأ بالفعل من مخطوط قديم، حكايات أقوام ومدن لطالما شعروا بها تحت أقدامهم، في آثار مدينة دالي البائدة، التي تشبه في لحظة السيل، خرائب المدن التي مر بها..

كان ودبندة ذا خيال كاذب خصب، لم يشهد له التاريخ مثيل، فلم تلبث بلدة الشلال أو ما كان اسمها مارتجلو، أن حملت اسمه.. بل أفاق الناس ذات يوم، من سكرة اليوم السابق، ليفاجأوا بأن اسم بلدتهم تغير إلى "ود بندة" وأن كل الدروب التي تفضي إلى مساكنهم، والتي كانت تحمل أسماء مثل "القصر الكبير"، "عرديبة الدود"، "أبراج دالي"، "صخور البرج"، إلخ.. قد تغيرت إلى أسماء هلالية، جلبها ود بندة من أعماق حكاياته الغريبة..

لم يقاوم أحد هذه التغييرات، فقد كانوا كالمسحورين..كل شيء تم بشكل غير ملحوظ، كأنه كائن منذ زمان بعيد.. وبدأ إيقاع حياة الأهالي هو الأخر في التغير..

كانوا يشعرون أن ثمة تحول غير مرئي، تتم عملياته في بطء، تغير غير مفهوم، يزيح طابع الحياة التي ألفوها ليحل محلها، فينتابهم قلق خفي بأن يتحولوا إلى "موضوعات" لعمليات هذا التغير الغامض، فيفقدون "ذواتهم" التي لطالما أعتزوا بالتراكم الدالوي عليها عبر تاريخ مملكتهم المجيدة..

فيما بعد، وبعد وقت طويل، ستبدأ مخاوفهم الغامضة، حول طبيعة هذا التحول تتضح، فعندما يكبر جلابي الحفيد، ويمسك بزمام الأمور، ويبدأ في الافراج عن الحكايات السرية لود بندة الكبير، فتخرج للعلن قصص جديدة لرحلة التيه الطويلة، التي أفضت بود بندة إلى الشلال، تتأكد لديهم المخاوف، فيما بدى أسطوريا مضافا إلى القصة الحقيقية لرحلة تيه ود بندة..

إضافات جلابي الأسطورية، عن منشأ ود بندة وحسبه ونسبه،كان الغرض منها -في زعم الكلس- الإستباق، لإضفاء طابع نقي/مقدس على أصله وفصله، فجلابي كان لا يقل خصوبة خيال عن جده، وكثيراً ما يطيب له في الظهيرات الموحية، التي لا تخلو من نسائم ربيعية نادرة، أن يجمع الناس في ديوانه الكبير..

يتحلقون حوله، فيحكي لهم كيف أن الناس في دار صباح ذلك الزمان البعيد، قد دعوا الإله أن يجد لهم مخرجاً، من ظلم وإستبداد أبي هلال، فأحتالت حكيمتهم بت فدر الله في البحث سراً عن رجل يكافئه قدرةً في التأثير على الناس.. فوجدت ضالتها في ود بندة.. ذلك الشاب ذي التاريخ الغامض، الذي تدنف بعشق إبنتها أم حجل.. وأنكسر قلبه في الإصطدام بجدار رفض بت فدرالله له، فهجر الحاضرة إلى البرية حيث عاش وحيداً معزولاً عن الناس.. يغطي جسمه الشعر الكثيف. يقتات الأعشاب ويشرب مع الحيوانات، التي ألفته فصادقها وصار يخلصها من مصائد الصيادين..

بحثت عنه بت فدرالله طويلاً، إلى أن عثرت عليه في حال لا فرق بينه ووحوش الفلاة، فهدأت خاطره ووعدته بتزويجه إبنتها أم حجل، حبيبة قلبه، إن عثر عليها، بعد أن أخبرته أن أبي هلال

اختطفها وهي تشك بوجودها في قصره، فقد كان من عادة أبي هلال اختطاف العذراوات، وإحضارهن إلى فراشه، وقتلهن صبيحة تلك الليلة حتى لا يفشين سر عجزه الجنسي..

لذلك عندما أختفت حجب النور ظنت بنت فدرالله أن أبي هلال اختطفها.. فمضت تعبئ ودبندة للموافقة على خطتها للقضاء على أبي هلال، مؤكدة على أن إنقاذ حبيبة قلبه يمر عبر القضاء على أبي هلال..

وعلى الرغم من انشغال بال ود بندة بمصير حجب النور، بين أنياب أبي هلال، إلا أن ثمة أحلام وخيالات داعبته بأن لابد أنه المنقذ المنتظر، الذي يبدد نوره ظلمة دار صباح وحلكتها العتيمة، مخلصاً شعبها وإلى الأبد من نير أبي هلال وسدنته.. لابد أنه هو، هو ذاته المنقذ المنتظر الذي حكت عنه أساطير دار صباح..

وهكذا بدأت بت فدر الله والفقرا أتباع جانو قرمط، في إستعادة ودبندة إلى حياة الحضر، واستلابه والاستحواذ عليه بأفكار الفقرا العجيبة.. وفي ذات الوقت تدبر بت فدرالله التدابير العديدة كيما يتمكن من لفت نظر أبي هلال إليه فيقربه منه..

أبدى ود بندة مواهب فاقت كل توقعات بت فدرالله وفقراها، الذين تجدد داخلهم قوياً أمل الثأر، لطائفتهم التي نكل بها الهلاليون، خاصة على عهد أبي هلال، الذي حرص على ألا يبقي حتى على طافي النار فيهم..

نهل ود بندة إذن من علوم الفقرا، ينهض فيه ظمأ غريب للمعرفة، التي منحوه إياها بسخاء مذهل، مدفوعين بنبؤة قديمة لجانو، عن فتى من نسل الهلاليين، يعيش في البرية حياة الوحوش، تجيء به فقيرة عجوز، فيخلص دار صباح وينقذها، ويملؤها عدلاً بعد أن ملئت جورًا..

لكن لم تذكر النبؤة أن أبي هلال سيكشف أمره، إذ أن ود بندة لم يمض إلا قليلاً في قصر أبي هلال، حتى نقلت إليه عيونه اشتباهها فيه، فقربه أبي هلال منه أكثر، ليقطع شك الاشتباه بيقين التورط..

لا أحد يعرف من أين جاء أسلاف ود بندة بالضبط، قبل أن يستقروا بدار صباح، التي أورثتهم تجربتهم المريرة فيها، نوعاً غريباً من الخوف، بات يميز عيون سلالتهم بلمعان غريب!!..

بهذا الشعور الغريب بالخوف عاش ود بندة، ومن بعده أحفاده وصولاً لود بندة الحفيد وجلابي الحفيد، مفتقرين للانتماء إلى أي مكان يعيشون فيه.. التيه فقط كان إنتماؤهم الحقيقي، هذا التيه الذي لم يدرك أحدهم كنهه حتى في لحظات الاحتضار الأخيرَّة...

لذلك لم يكن ود بندة سوى رجلاً غامضاً، مبهم الأسرار.. تحيطه السرية المفرطة، التي تلحق حتى بالتفاصيل العامة لأسرته، التي يقال أنها تتحدر من الهلاليين الغرباء، الذين لا يعرف أحد من أين جاءوا، ولماذا حلوا بهذا المكان، وكيف أنتهى بهم الحال..

وربما لهذه الأسباب بالذات، حرصوا على أن يشيدوا لأنفسهم نسباً لأحد الأنبياء، الذين سيولدون بعد وقت طويل خلف البحر الملون..

هذا الشعور بالغربة طبع -بعد وقتٍ طويل- العلاقات الجنسية لود بندة، مثلما وسم حياة أسلافه، التي لم تخلو من حب اللهو والأنس، والليالي التي ما بعدها ليال،كمقاومة للحصار المتجدد لحياتهم المسكونة بالخوف...

وإذا كان الجد المجهول المؤسس، لعائلة ودبندة هو اخر الهاربين، من رعب تلك البلاد البعيدة، عند مشرق الشمس، خلف البحر الملون، فإن ود بندة جدد سيرة جده، هارباً من مقاصل أبي هلال وسجونه الرهيبة، في دار صباح، إلى هذه الأرض المعزولة.. أرض المقدس دالي..

تلك الروح الهائمة -دالي- التي قررت في تلك الليلة، التي أطبق فيها الظلام، على دار الريح والصعيد والسافل، صياغة حياة شعب مارتجلو في العزلة، حتى بدت بلدة الشلال لكأنها خارج جغرافيا الوادي المترامي الأطراف، في هذا الإقليم الواسع من أرض البلاد الكبيرة..

حينها كان فقط الظلام ولا شيء غيره، يخيم على كل شئ، ويبتلع كل شيء: الأودية، أشجار القمبيل، قوز كسوفرو، جبل أب كردوس وجبال مرة، التي انتصبت في قلب هذا الصمت، بحيث لا يمكن إستنطاقها.. فهدير شلالاتها: مارتجلو، ساورا، قلول و.. لايمكن سماعه...
صمت تام ولا شئ سوى الوحشة والظنون.. هذه الطبيعة المعزولة في الصمت، سينطبع ما تثيره من مشاعر متداخلة، على السيرة التي عكف دالي على كتابتها، في أحد كهوف عين فرح، محاولاً صياغة حياة شعب مارتجلو، التي هي حكاية دار الريح من المبتدأ إلى المنتهى...
الدارسون الأجانب، الذين سيتوافدون بعد عشرات السنوات سيتنازلون عن كبريائهم العلمي وغرورهم الأكاديمي، فيعلنون بحياء مبتسر، أن دالي كان نبياً غير معلناً، الأمر الذي سيثير حفيظة الكنيسة، التي هي مستاءة أصلا من وجود أنبياء غير يسوع الناصري، أعترفت بهم على مضض، وقد فارقتها الرغبة في اعتراف جديد، يعُكر صفو البابا قبل أن يستشرى وسط رعاياها، الذين يصعب عليهم تصور وجود شخص ليس من أتباع يسوع!..
السبب وراء هذا الإعتراف الخطير للدارسين الأجانب، يكمن في منطق سيرته، التي عالج خلالها أحوال المكان، ومحطات الزمان ومسارات البشر، وتقلبات الدهر، فقررت لهم العزلة ملاذاً ضد عوامل الانحسار والتبدد، فخلصت إلى مملكة مارتجلو،كمدنية مجهولة وغامضة وآمنة.. خالية من الأطماع ومسالمة، لا تشوبها تأثيرات العالم المتصارع حولها...
ومنذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدمي ود بندة دار الريح، وعثر مصادفة على الشلال في تيهه الطويل، حتى أدرك أن نهاية عذابات تشرده قد حانت، فأعتكف في كهف دالي العتيق، تحاصره الرموز والرسوم، التي خط بعضها دالي وخط بعضها أولئك الناجون من الطوفان..
وبدأ ود بندة هو الاخر يخط، لكن ليس على الجُدُر العريقة لكهوف عين فرح، بل على ذلك النوع الخاص من الورق المستعمل في الشلال..

دون حكاية هربه من قصر أبي هلال.. حكاية رحلة التيه، وخططه لحكم الشلال، وصياغة عالمه على النحو الذي يريد، كأنه كان يترك "منفستو" لورثته، الذين سأتون بعد وقت طويل، يخططون لحكم العالم، فيفشلون حتى في حكم جلابي ودعربي..

انسحب الكلس رويداً رويداً من هذه العوالم الفاشلة..كان قد شعر بالإحباط، فقذف بالمدونات والمخطوطات إلى جدار الشقة..

كان يشعر أن هذه المدونات والمخطوطات -كلما توغل في مجاهيلها- لهي عدو أكثر منها صديق، فكل تفصيل فيها يقوده إلى غموض لا نهاية له..

كانت غلوريا ترقد على بطنها، تلهو بطلاء أظافرها، بينما كيانه، كل كيانه يخرج من عوالم المخطوطات، ليزحف على ظهرها، حتى أرتعشت فأنقلبت بسرعة وهي تقول:

"لا زلت مسكونا بأوهام ما تسميه إعادة إكتشاف الذات والإيمان.."

الحزن..كل الحزن، ينضح من شفتيها الرقيقتين، الرخوتين في إثارة موجعة.. غلوريا في كل تحولات مشاعرها، لا يمكن أن تكون سوي كياناً للذة محضة، بوجهها الغامض ونداءاتها الولهى السرية، التي يصعب تتبع مصدرها..كأنه يكتشف في غلوريا عوالماً جديدة.. عوالم خاصة لم تخطر على باله من قبل..

كأنه يكتشف للمرة الأولى اختلاف عالميهما.. عالمها دفء خفي.. ندي. .لا يخلو من نداءات كأضواء فنارات السفن البعيدة.. على نحو مباغت سألها:

"وأنت..أنت مسكونة بماذا؟!"

"لا شيء.. رغم كل شيء غلوريا مسكونة بجيسس.. يسوع الناصري ذاته شخصياً، يسوع الذي يغفر لها خطاياها، لمجرد إعترافها بهذه الخطايا أمام قداسة الأب.. لكن غلوريا لا تعترف إلا في كنائس السود الذين يعتقدون أن جيسس أفريقي أسود..
غلوريا لا تتغشى كنائس البيض الذين درجوا على تقديم جيسس كإله أبيض حمل خطايا البشر، وتعتقد أن هذه مؤامرة بيضاء ضد السود..

لا تزال سماء برينسس آن ملبدة بسحبها المباغتة، التي يفسح مقدمها لعوالم جلابي، أن تفرض نفسها في هذا الحيز المداهم بالزخات المتقطعة.. يغزوه صوت وقعها على السقف، فيتتبع هذه الزَّخات كما يتتبع سيرة ود بندة، فتدهمه في هذه اللحظة تفاصيل متشابكة، فيمضي ليجمع ما رمى من مدونات ومخطوطات..

كان الجد الأكبر لود بندة، ملكا لإحدى الممالك خلف البحر الملون، هي مملكة بني هلال، وكان له أخ ملك على حاضرة أخرى من ممتلكات بني هلال خلف البحر الملون، له إبن إسمه العاتي، ولد في ذات اللحظة التي ولد فيها ابن عمه الدريب، في المملكة الأخرى..
مضت سنون وشهور وأيام.. كبرا فزار الدريب العاتي.. فأكرم العاتي إبن عمه، وأخبره عن رغبته في إستيداعه سراً لم يبح به لأحد من قبل.. ومضى فغاب قليلاً، ثم عاد ممسكاً بيد إمرأة يخالط جمالها الساحر، حزناً عميقاً ترتج به كل خلايا جسمها..
حزن كعواء ملتاع.. قال العاتي:
"خذ هذه المراة واسبقني إلى مقابر الأسرة خلف القصر"

مضى الدريب بالمرأة يتناهشه فضول شقي، لم يتمكن من مقاومته فسألها عن حكايتها. فأخبرته أن اسمها شهرزاد وهي إبنة ملك دار صباح، اختطفها تجار الرقيق وعبروا بها البحر الملون، حيث بيعت في مضارب بني هلال.. وأنها مجبرة على البقاء، بعد أن تقطعت بها السبل.. لحظتها كان العاتي قد لحق بهما. اقترب من إحدى الترب. أزاح عنها التراب كاشفاً عن نافذة مرتجة بخشبة رفيعة، أزاح عنها الرتاج، فبدى خلفها سلما من الحبال، ثم ألتفت إلى المرأة، فنزلت بالسلم فتبعها، بعد أن طلب من الدريب إغلاق النافذة خلفه دون ارتاجها..

عاد الدريب إلى القصر، ينتظر إبن عمه على أحر من الجمر، ليطفئ نيران فضوله المشتعلة عن آخرها.. إذ ثمة حلقات بدت له غير مكتملة في قصة المرأة..

ظل الدريب مؤرقا طيلة الليل في إنتظار العاتي، إلى أن غشيته سنة من النوم، عند تسلل خيوط الفجر الأولى، ولم يلبث إلا قليلاً حتى أيقظته خطوات إبن عمه وهما تطآن أرض الغرفة، فنهض كأن النعاس لم يتغشاه أبداً وقبل أن يهم بالسؤال باغته العاتي:

"أعرف أن الفضول يقتلك.."

وحكى له ذات الحكاية التي سمعها من الفتاة، مضيفاً أنه منذ رآها للحظة الأولى، في سوق الرقيق. حتى أنخلع قلبه، الذي لم يعد مكانه إلا بعد أن امتلكها.. وأراد أن يتزوجها، لكن والده الملك لا يريد لدمه الملوكي النبيل، أن يتلوث بمخالطة الأرقاء، الذين لا يعرف أحد أصولهم وفصولهم واحسابهم وأنسابهم، فجعل العيون تترصدهما.. ثم أضاف:

"لذلك نقضي نهارنا في القصر، تحت سمع وبصر العيون، وليلنا في المقبرة كما رأيت.."

قلب الدريب الحكاية في خاطره قليلاً، وقد اتسعت مساحة تعاطفه مع المرأة. لا بل كان كالمسلوب، تتحرك خواطره وأفكاره وفقا لإرادة غير مرئية، تدفعه دفعا إلى تخليص هذه المرأة، والهرب بها وإعادتها إلى ديارها خلف البحرالملون، حيث تلفظ الشمس أنفاسها الأخيرة وتغيب..

وما أن غاب العاتي لقضاء بعض حوائجه، حتى دخل الدريب على المرأة وأخبرها نواياه.. فتهللت فرحاً، وفارق عينيها ذلك الحزن الغريب..

وهكذا تسللا خلسة باتجاه البحر، يلحقان بإحدى المراكب الموشكة على الرحيل، لكن لم تلبث هذه المركب، وفي قلب البحر أن أصيبت بالتلف، بفعل ريح هوجاء ضربتها بإحدى الجزر الصخرية، فنجى من نجى وغرق من غرق، دون أن يعرف أحد من الناجين عن الآخر شيئاً، إذ حملت الرياح والأموج المتدافعة، كل في مسار مختلف..

كان الدريب قد تعلق بأحد الألواح، حيث ألقته الريح والأمواج إلى جبال شاهقة، تغرب خلفها الشمس. فأدرك أنه على مشارف دار صباح، وأن البحر الملون يفصل الآن بينه وبين كل ممالك بني هلال..

شق طريقه بين الجبال إلى أن وصل إلى إحدى الحواضر، حيث بقى فيها إلى أن حان وقت رحيل إحدى القوافل إلى قلب دار صباح، فرحل معها متنازعا بسره.. هل يخبر سلطانها بغرق إبنته في البحر أم أن الصمت آمن له؟!..

وفي خاتمة المطاف لاذ بالصمت.. لم يطلع على سره أحد سوى والد قند اليمن، ثمرَّة فؤاده ووردة جرحه.. وهكذا مضى به الحال في دار صباح هادئا كأحد العامة، إلى أن دهمت جيوش العاتي دار صباح وأطبقت عليها كما يطبق الليل البهيم..

كان العثور على الدريب وقتله، على رأس أجندة جيوش العاتي، المتعطشة للسفك والسحل.. فنشطت في البحث عنه، إلى أن عثرت عليه مختبئاً في إحدى الفلوات، منهكاً ناحلاً متغضناً من الجوع والعطش. يغطي جسمه الشعر الكثيف..

كان بائساً إلى أقصى حد.. لم يكتف العاتي بقطع رأس الدريب، بل استبق ذلك بتقطيع أطرافه قطعة قطعة..

وهكذا حكم العاتي دار صباح، دون أن يعثر على قند اليمن زوجة إبن عمه الدريب، التي كان الفقرا الجريديون أتباع جانو، في مكان لا يعرفه أحد سوى واحد أو إثنان من خواص الفُقرا الثقاة كراجل الحرازة أم قد..

عندما دهمت جيوش العاتي حاضرة دار صباح، كانت قند اليمن حاملاً.. ومثلما ساورت العاتي الشكوك حول نسل الدريب.. توارث أحفاده حكام بني هلال، على دار صباح هذه الشكوك، دون أن تتأكد لديهم هذه الشكوك أبداً، رغم أنها عادت تساور أبي هلال، بقوَّة منذ وقعت عيناه على ود بندة، الذي خبأت عنه أمه لوقت طويل هذه الحكاية المروعة، التي ظلت كسرٍ مغلق، لم تبح به له إلا في أخريات أيامها..

وهكذا أيضا توارث أبناء وأحفاد ود بندة، ذلك الشعور المزمن بالخوف والإنقسام.. ولطالما برعوا في إخفاء هذا الشعور، الذي ليس لديهم تفسير منظم عن طبيعته ومنشأه، رغم أنه كان يقف حافزاً، خلف مواهبهم المختلفة في المكر والخداع..

إذن -كما يطيب للكلس التأكيد- ستسهم هذه الحكاية المأساوية، المتناقلة في أسرة الدريب جيلاً بعد جيل، في تشكيل الرؤية السياسية لود بندة، والتي سيصوغ بموجبها رؤيته لمملكة ود بندة، بعد نجاته من أسر أبي هلال...

٣

ما الذي يميز دار الريح كجغرافيا، عن الأجزاء الأخرى للبلاد الكبيرة، هل هي منبع لكل تلك التصورات التي صاغت حواضر البلاد الكبيرة، ثم قررت لسبب ما أن تعتزل، فسوّرت نفسها بتلك العزلة البديعة، التي صاغ دالي داخلها حياة الشلال؟!..

أم أنها كانت ولا تزال تصوراً مكتفياً بذاته، مستغنياً عن أجزاء البلاد الكبيرة، كالنخلة الحمقاء يقصر ظله على نفسه بحيث لا يلقى خارجه؟!..

في تأملاته المجيدة حول النظام الإقتصادي لدار صباح، ترسخت لدى الكلس قناعة، مفادها أن الشروط التي صاغت هذا النظام، ليست موجودة كنظام متكامل، بل كنتف مبعثَّرة هنا وهناك، ولأنها غير موجودة إلا على هذا الشكل، فشلت دار صباح في ضمان إستخدام أمثل لموارده وصارت دولة فاشلة!..

وكان ود بندة -في ظن الكلس- يدرك هذه الحقيقة على نحوغامض، ولهذا الإدراك كانت غايات آل ود بندة الحقيقية، محجوبة عن الآخرين، فلا أحد غيرهم وقلة من خلصائهم في دار الريح، على معرفة بهذا الإدراك.

وهو ما أوحى لود بندة، بغايات بدأت بحكم دار الريح، فدار صباح وربما التطلع لحكم العالم..

وعلى نحوٍ غامض أيضاً -يسترسل الكلس في إستنتاجاته- كان ودبندة يعي أن المنازعات الناشئة بين دار صباح ونفسها من جهة، وبينها وبين دار الريح والصعيد والسافل من جهة أخرى، لديها منشأ مشترك من التصورات الخاطئة لأنفسهم.. التي قادت بدورها إلى التحولات الخاطئة، نتج عنها كأثر جانبي ذلك النوع الغريب من التفكير، الذي حدد مسيرَّة حكم أبي هلال..

هذا التفكير الذي يقف خلف ما خاضه من حروب عشوائية، في الصعيد والسافل ودار الريح هددت كيان دولته المنخورة، بل وأقام بهذا التفكير المختل، المجازر والحرائق في دار صباح نفسها.. هذا التفكير متصل بالصراعات المستمرَّة، والتي ستستمر لعشرات السنين القادمة، في كل

أجزاء البلاد الكبيرة، والتي لن يلوح في الأفق أنها ستنتهي يوماً، فأبناء وأحفاد أبي هلال، سيمضون في الدرب ذاته، الذي أختطه العاتي من قبل..

الفرق الأساسي الذي لاحظه الكلس في تأملاته للشلال، الذي حفظت له العزلة نوعاً من التاريخ المتصل، الذي لم تحدث فيه انقطاعات عميقة، كتلك الانهيارات المدوية، التي فككت الصعيد والسافل، ومضت تحوِّل دار صباح إلى بلدات صغيرَّة منقسمة ومتشظية.. ربما -إلى جانب أمور أخرى- بسبب أن الحياة في دار الريح عموما، والشلال خصوصا، تتسم بالرسوخ للإرتباط العميق بالتاريخ بعيد الجذور..

ذلك التاريخ الذي مثل المقدس دالي بدايته، مدوناً سفره النبؤة، الذي بمثابة هوية متكاملة الأبعاد، إنطبعت على كل شئ، حتى الطيور والزواحف، ونسائم الصباح والمساء، التي لا تشوبها عُكرَّة رطوبة، أو لفح ظهيرة أو تقلبات مناخ.. فشجيرات القضيم وأريج السناسنا والقمبيل، قد عادل كل شيء وجعله مستساغا.. في هذه القيزان والأودية التي تتخلل كل شئ، حتى تلك الرسوم التي تزين جُدُر كهوف عين فرح، والتي تحكي عن مراحل الحياة وتاريخ الأرض والإنسان..

الآن، وفي هذه اللحظة الحاسمة، من حياته التي على مفترق طرق، أخذ ود بندة يستعيد وقائع رحلته الطويلة الشاقة، وكيف أنتهى به المطاف إلى هنا.. مذعوراً، هارباً بعد زمن ليس قصير من الأسر الرهيب، في دار صباح. وتحت السلطة المباشرة لأبي هلال..

أبوهلال هو آخر سلاطين دار صباح، الذين يزعمون اتصال نسبهم بسلالات نبوية مقدسة خلف البحر الملون، مع أن لا أحد يستطيع أن ينسب الهلاليين، إلى أي جذور نقية، بسبب ترحالهم المستمر، وما يفرضه هذا الترحال من إختلاط بالأقوام التي يمرون بها.. ولذلك يكتفي الكلس بتوصيف الهلاليين على أنهم قبيلة غامضة..

كان أبي هلال قوي البنية، إلا أن الحروبات المتصلة التي خاضها في "قِبل البلاد الكبيرة الأربعة" أنهكت قواه فبدى كشيخ هرم، وأصبح سريع الإنفعال والغضب..

منذ وقت مبكر ترسخت في دخيلة أبي هلال، قناعة أن الصدق والأمانة ضرب من الخيال، ولذلك ما كان يبرم العهود إلا ليتمادى في نقضها، ولا يعد إلا ليحنث..

كما كان لا يتورع عن فعل أي شيء لقضاء حوائجه، وجملةَ كان مكاراً مخادعاً.. فلم يكن والحال كذلك حبه الكبير للملق والمداهنة، إذ لا يقرب إلا أولئك الذين يصفونه علانية، بمكارم الأخلاق، ولا يتورعون عن مدح أصله وفصله، فذاك كان من الأمور القليلة، التي تدخل السرور إلى نفسه..

كان أبي هلال يدفن خصومه أحياء.. يشنق كبار السن والأطفال على الشجر، ويضع الشباب والرجال في الخوازيق..كما كان أبي هلال يأمر الصبيان والشبان بالعمل في بناء قلعته الحصينة، التي في أطراف الحاضرة، ليشاركوا مع من سبقهم من أسرى الخصوم، في إكمال بناء أسوار هذه القلعة الرهيبة التي لطالما عذب فيها الفقرا أتباع جانو قرمط، وقتلهم بعد أن استنفد قواهم في بناءها.. والتي أحرق داخلها الفقراء والعامة، فيما بعد..

كان لا يتورع عن سلخ جلود الناس وإلقائهم في الماء المغلي، أو قطع أنوفهم وأعناقهم وقبل كل ذلك فقؤ أعينهم ثم حرقهم أو شواءهم أو دفن البعض أحياء ترفقا...

وكان ينظر إلى الفقراء والمشردين، على أنهم مجرد لصوص، حتى أنه دعا جميع الفقراء يوما إلى وليمة في قلعته الرهيبة، وبعد أن أكلوا وشربوا كل ما يشتهونه وهم لا يصدقون أنفسهم، سألهم:

"ألا أدلكم على طريقة تتخلصون بها من فقركم؟"

فأجابوا في حماس:

"نعم يا مولاي".

فخرج وجنوده من القلعة.. وبعد أن أوصدوا الأبواب على الفقراء، أمرهم بإيقاد نار عظيمة وحرق كامل القلعة.. فلم ينج أحد.
كانت حملاته العسكرية ضد الصعيد، والأجزاء القريبة من دار الريح لا تتوقف، وعندما يقرر الاستجمام يزجي وقته في سلخ جلود الحيوانات وهي حيَّة. وكان يمارس الجنس مع كل عروسة جديدة، من عامة الشعب قبل دخلتها على زوجها، وأغرم بصورة خاصة باغتصاب نساء رجال دولته، الذين يموتون دائما في حوادث غامضة من تدبيره، تبدو كحوادث عرضية، أو مقدرة ومكتوبة..

منذ طفولته الباكرة كان ود بندة طفلاً هاديء الطباع، ميالاً للعزلة بعيداً عن الآخرين، مسكوناً بذلك السحر الذي توارثته عائلته، التي لم تعلن عن وجودها كعائلة تنتمي لما خلف البحر الملون أبداً.
ظلت ممالك أسلافهم خلف ذلك البحر، كحلم متلاشي تتجدد أصداؤه المتلاشية، هي الأخرى من وقت لأخر.. وفي هذا التلاشي، كانت حياتهم تتأرق جيلاً إثر جيل..
في مستهل مراهقته، وقعت عينا ود بندة على حجب النور، الإبنة الوحيدة لبت فدرالله، التي لطالما أبدعت -بت فدرالله- في اخفائها عن عيون أبي هلال، خوفاً عليها أن تلاقي مصير الكثيرَّات في دار صباح، التي حكمها أبي هلال في قسوَّة صارمة، مبتدعاً كل ما لم يخطر على بال أحد..
حرصت أم ود بندة كعادة أسلافها، على إخفاء نسبه، وأعتنت بتعليمه وتثقيفه، حتى صار عقله طاعنا في السن، رغم أنه لم يبلغ سنوات مراهقته الأولى بعد..

كثيراً ما كان يمضي في عزلته واعتزاله إلى أطراف حاضرة جلابي، بعيداً عن البشر والعمران ليتأمل، فتخطر على باله أفكار تبدو غريبة، سرعان ما يجهضها عائداً إلى داره المغمورَّة، التي عاش فيها مع أمه دون أن يلاحظ وجودهما أحد..

في هذه الأطراف التقى صديقه الوحيد الكرسني إبن أبي هلال، الذي كان يماثله سنا كما ماثل الدريب العاتي.. وكان الكرسني كجده العاتي متمرداً على والده، الفرق بينه وبين العاتي، عشقه لحياة العزلة والبرية، وكرهه المقيت لحياة القصر والسلطان.. في العزلة التقيا، وتصادقا دون أن يكشف أحدهما للآخر عن أسراره..

مضى ود بندة يوما إلى البرية، على أطراف حاضرة دار صباح، وقعت عيناه على خميلة لم يلاحظها من قبل.. إقترب منها، فوجد في قلبها كوخ صغير.. إقترب من بابه وطرق عليه، ففتحت الباب صبية لم يرى من هي في مثل جمالها من قبل.. فوقعت من قلبه موقع العشق.. سألته:

"ما الذي جاء بك إلى هذا المكان، الذي لم أرى فيه رجلا من قبل؟"

فرد مسحوراً:

"الصدفة"

كان صوت حجب النور عذباً كموسيقى ساحرَّة لم تعزف بعد.. وبينما هي تحادثه إذا بأمها تجيء من أطراف الخميلة جزعة وهي تصيح:

"ما الذي رمى بك إلينا؟"

"الأقدار يا خالتي".

"إذهب لحالك، فنحن نساء ليس معنا رجل، ولا تحدث أحداً بما رأيت، وإلا أهلكت إبنتي على يد أبي هلال"

"أريد أن أكون حصنا لها"

"أنت لست من نطلبه"

تراجع ود بندة محسوراً تتابعه عينا حجب النور، في شفقة ومحبة...

الوجد الذي أصاب ود بندة، جعله مكروباً. هائماً، يكره المخالطة، حتى صديقه الوحيد الكرسني لم يعثر له على أثر.. بحث عنه في أماكنهما المعتادة دون جدوى، فوسع دائرة البحث حتى وجده في فلاة بعيدة.. اقترب منه وألح عليه في السؤال، فأضطر إخباره أمره مع حجب النور...

عرف الكرسني مكان الكوخ، المخبأ بعناية بقلب الخميلة، فمضى يحاول مداواة جرح صديقه الوحيد بإقناع بت فدرالله بقبول ودبندة بعلاً لحجب النور.. لكنه ما أن رأى حجب النور، حتى وقع في غرامها، كان قد فقد السيطرَّة على نفسه، ونسى ودبندة وأبي هلال وكل شيء.. ولم يعد يعي سوى هذا السحر الذي يجذبه إليها في هدوء وتؤدة..

كان يراها كهالة من الضوء والروائح، التي يتوجها الدعاش.. أغمض عينيه، وتركزت حواسه.. كل حواسه في حاسة واحدة: الشَّم.. فمضت خياشيمه تغوص وتمضي بعيداً بعيداً، تفرز الكركار من الودك من الخُمرَّة، من أريج الخميلة، وهذا الدعاش المجنون..

حاصرته رائحتها المتماهية في مزيج روائح باردة، منعشة مع رائحة المكان.. عرقها.. رائحة إبطيها شذى زهر ولا زهر.. كركار شعرها.. الدلكة والخُمرة المنبعثة، من رائحة غطاء الكنداكة.. وهذه الرائحة التي تتوج كل روائحها، رائحة نيل دار صباح ,عندما تحملها في الصبيحات الباكرة رياح الصعيد النديانة..

شمَّها بعمق، وهو يتقدم ببطء.. يتبع هذه الروائح، مقترباً أكثر فأكثر.. توقف على مسافة خطوة واحدة، يمتص بأنفه الدعاش المتصاعد من ثيابها، الخاضعة لتأثير غطاء الكنداكة..

كان قد شعر بمتعة كالهوَّة التي لا قرار لها. فيما سرَّت فيها رعدة قوية فأنتفضت.. كأن أطياف ذاكرة ثوب الكنداكة، تخرج جميعها في هذه اللحظة، من أعماق مواجدها وتوجداتها لتهاجمها في هذه اللحظة بالذات..

كانا كالغائبين عن الوعي.. فجاء صوت بت فدرالله كصهيل حاد، ينتزعهما من هذه الغيبوبة اللذيذة.. وقع إذن في غرام حجب النور، فطلبها لنفسه.. زجرته بت فدرالله، فمضى وقد أضمر في نفسه أختطاف حجب النور..

وهكذا أخذ يراقب الكوخ ويترصدهما مع بعض خاصته، من الخدم المخلصين. إلى أن تأكد من خلو المكان من بت فدرالله، فهجم على الكوخ وأختطف حجب النور، ولاذ هارباً بها إلى إحدى البلدات البعيدة..

لاذ خاصته من الخدم بالصمت، متكتمين على سره، حتى عن والده الذي بحث عنه طويلاً، إلى أن إستيأس، تمضي به الظنون الآن، إلى أن لابد أعداءه الفقرا أتباع جانو قرمط، أختطفوه وقتلوه، خاصة أنهم كانوا قد بدأوا ينشطون سراً، دون أن تدركهم عيونه...

عندما عادت بت فدرالله ووجدت الدار خلاء، عليها أثر الدهم، ظنت أن هذا فعل أبي هلال.. فبكت وغادرت المكان، إلى الحاضرة التي فارقت سكناها منذ وقت بعيد..

السيرَّة الجنسية لأبي هلال من الغرابة، بحيث تكتمت المدونات على سرد وقائعها وأحداثها، حفاظاً على ما تبقى من غرور ذكوري مراق..

فأبي هلال لم تسلم منه، حتى تلكن الأسيرات اللاتي كانت تجيء بهن جيوشه، من غزواتها المختلفة في أنحاء البلاد الكبيرة..

سبب أبي هلال هلاكاً مروعاً لآلاف مؤلفة، من أهل البلاد الكبيرة، فإلى جانب كل أساليب التعذيب التي اتبعها،كان يدمن قطع أيدي وأرجل خصومه من خلاف، واغتصاب نسائهم وبناتهم أمام أعينهم، ولذلك كان أصدقاؤه يخافونه على حياتهم أكثر من أعداءه، إذ كانوا يخشون أن تدور بهم الدوائر على يديه فيقتلهم ويدفنهم عكس إتجاه "القِبلة" رغبة منه حرمان نفوسهم الراحة والسلام بعد الموت أيضاً..

فرسان دار صباح الثماني عشر، الذين حاولوا الإنقلاب عليه والذين يشتبه أنهم من الفقرا أتباع جانو قرمط، قتلهم ودفنهم ووجوههم عكس إتجاه البحر الملون، حيث تشرق الشمس،كان يتمنى لهم ظلاماً دامساً في الآخرة أيضاً..

كان كل من يدخل إلى حضرته، يقف مكتوف اليدين، مسبلاً عينيه إلى الأرض، ينتظر أمر جلالته بالجلوس، وكان هو يجلس دائما على عنقريب من "القِّد" مفروش بحصير عليه فرو فوقه دمقس وحرير، فإذا أمر أحد بالجلوس، فإنما يكون جلوسه على الأرض مقعياً كالكلب، ولا يتحرك حتى يطلب منه المغادرة..

وكان لا يسمح لأي مخلوق بأن يمعن فيه النظر، ففي حضرَّة أبي هلال يجب أن تكون هضيماً كسيراً، خافضاً جناح الذل من الخوف..

في حبل أبي هلال أربعة نساء ورثهن عن رجال دولته، الذين قتلوا أو ماتوا في حوادث غامضة.. وأربعمائة آخريات هن سراريه وجواريه، من بنات الصعيد ودار الريح اللاتي تم أسرهن في حروباته التي لا حصر لها..

وقد قسم أبي هلال نساءه وفقا لألوانهن، فالبيضاوات وحدهن والسمراوات وحدهن والسوداوات وحدهن، إلخ...

وكانت المحظيات هن من يشرفن على توزيع هباته عليهن حسب درجة جمالهن وقربهن من نفسه، فلتلك نسيج قطني ملون الحواشي، ولهذه ثوب من الحرير جاء به تجار المراكب من الأسواق خلف البحر الملون، ولهذه شيلان من الصف الجيد، إلخ..

ولما كان أبي هلال قد وَرِّث من أسلافه التركة المعنوية لثقافة الجبر والقهر والاستبداد، فقد منع نساءه من التزين بالذهب والفضة إلا في حضرته، فكن يتزين عادة بالخرز والصدف..

عندما تستعيد روح ود بندة الآن ذكريات حياتها، التي أنهكها حصار أبي هلال، تتلفت بين مصدقة ومكذبة أنها نجت من سلطان هذا الرجل الرهيب..

في الأسر الرهيب كان ود بندة يستعيد كل تلك الحكايات، التي تقع على سمعه، داخل قصر أبي هلال.. حكايات التجار القادمين عبر البحر الملون الكبير، الذي تمخر عبابه مراكب كبيرة، لأيام طويلة دون أن تلوح لها اليابسة، فتشتد رغبته في الهرب متحينا الفرص..

كثيراً ما كان يتخيل نفسه على ظهر إحدى هذه المراكب، وعندما تمكن من الهرب تلاشى كل أمل لديه في إمتطاء صهوة البحر..ل

م يكن أمامه سوى خيار وحيد.. قالت بت فدر الله:

"وجهتك عكس إتجاه البحر.. ستهرب إلى الشلال.. شلال مارتجلو"

أغلق ود بندة عينيه تاركاً العنان على عواهنه، لذكريات متداخلة، تستيقظ في نفسه فتمر كل الصور والوجوه التي رآها في حياته.. تمر وقائع ما وقع تحت سمعه وبصره، وأصبح اسمه ذكريات.. رأى نفسه يتبختر في خميلة حجب النور.. رأى نفسه ينسحب رويداً رويداً خلف أسوار عزلته، يتحصن بالفلوات البعيدة،كان كأنه يرغب في الانعتاق من حب حجب النور، بابتعاده عن كل ما يثير حضورها الطاغ داخله..

يتنهد ود بندة وهو يستعيد تلك اللحظات، المشحونة بالتوتر. التي بدأت تتراءى له فيها وسائل نجاته الوشيكة، بمساعدة بت فدرالله نهباً للهواجس والظنون...

وقتها كانت خواطر بت فدرالله، قد هدأت بعد أن أكد لها بحث الفقرا، أن إبنتها ليست في قصر أبي هلال، من اختطفها وبنى بها هو إبنه الكرسني، الذي لا يعرف حتى والده نفسه، عن فعلته شيئاً، وأن ودبندة المحاصر بالعيون، لن يستطيع إزاء ما حوله من شكوك، فعل أي شئ، وأنهم يرون أن من الخير إخراجه من هذه الورطة التي أوقعوه فيها...

أرشد الفقرا بت فدر الله، إلى المكان الذي خبأ فيه الكرسني حجب النور، التي كانت وقتها قد أنجبت له طفلاً وسيماً سيحقق النبؤة، التي لطالما داعبت أحلام الزبالعة..

أصبح هاجس الزبالعة وبت فدرالله إنقاذ ود بندة، خاصة و قد تأكد لهم أنه ليس من حكت عنه النبؤة...

وهكذا باتت تتراءى لود بندة.. وسائل نجاته، كما تتراءى خيوط السراب للتائه الظمئ.. فأخذ التخطيط للهرب، يحتل كل اهتمامه، ويستحوذ على كيانه إستحواذاً تاماً.. خاصةً أن بت فدرالله في لقاءاتهما السرية الحذرَّة، قد ألمحت له أكثر من مرة، أن ميقات إنعتاقه قد حان...

راود خيال ود بندة الأمل بالنجاة، فبدأ يحلم ببناء دولته الخاصة، التي لا ينازعه عليها أحد، بعد أن تأكد له أن وجهته ستكون دار الريح...

وفي سبيل ذلك كان يدرك، أن عليه صنع تركيبة من القرارات المتداخلة، تمكنه من تحقيق غاياته، دون أن يلاحظه أحد. خاصةً أنه عندما كان ينظر للصراع الحاد -في تقدير الكلس- بين من يطلقون على أنفسهم أشراف دار صباح والصعيد، يصل إلى قناعة كاملة، بأن النزاع المعلن بينهما -إلى جانب النزاع البيني لهؤلاء الأشراف المزعومين، وبينهم وبين عموم أهالي دار صباح- في جوهره ليس حول من يجب أن يخطط للآخرين حياتهم، بقدر ما هو حول مركزية هذا التخطيط ممثلاً في أبي هلال وأشرافه الهلاليين.. دون تقسيم لهذا التخطيط..

كان ود بندة يدرك مدى رعونة أبي هلال، فعمل على اتقاء شره بالإطناب في مداهنته ومدحه.. ولذلك تمكن من تفادي الزَّج به إلى إحدى سجون أبي هلال الرهيبة.. وربما أن أبي هلال أبقى على ود بندة حياً، لأنه يذكره بإبنه المفقود، إذ كان كثير الشبه به،كأنه تؤامه..

وربما هو ذلك النوع الغامض من الشعور بالإنتماء إليه، فللدم حنين لا يخطئه القلب..

تمخض عن مداهنات ود بندة تقربه أكثر من أبي هلال، الأمر الذي مكنه من التعرف على طباعه جيداً، كما أشبع ذلك أيضا رغبته في إمتلاك معلومات حقيقية، تساعده في خطط هربه.. أبي هلال نفسه بتقريبه لود بندة،كان مدفوعاً بأن هذا الغريب، الملم بشؤون الحكم والسياسة، سيفيده كثيراً في خططه، التي لم يفكر فيها بعد، خاصة أنه كان على جهل فاضح بشؤون السياسة، وقد ذهب به فكره، إلى أن خروج ود بندة من دار صباح سيشكل خطراً داهماً عليه، إذ قد يغري السلاطين الآخرين بالتوحد ضده..

كما أن أبي هلال رمى من تقريبه لود بندة، إشباع غروره بإستغلال ذكاءه الوقاد، ولهذا لم يتعجل سجنه أو قتله.. ومع ذلك كان أبي هلال شديد الحذر، فثمَّة إحساس خفي لا يفتأ يخزه، مشعلاً هواجسه وظنونه الملوكية تجاه ود بندة..

فأعتنى به عناية خاصة أكثر من ذي قبل -حتى- من تلك العناية التي أسبغها على بعض الأسرى، المشكوك في إنتمائهم للفقرا أتباع جانو قرمط، بصورة غير مؤكدة..

والذين كانوا قد عاشوا حياة بسيطة، قوامها تقديم خدماتهم لقاء الطعام والشراب والملبس..كانوا يتجمعون في ميدان سوق الرقيق، بإنتظار من يطلب خدماتهم فيصيب حظهم أحياناً، وفي أغلب الأحيان يخيب، فالأهالي لم يكونوا بأحسن حال منهم..

كان الحصار المضروب حول ود بندة على أشده، إذ لم يكن مسموحاً له بالحديث، إلا مع قلائل هم الحرس الخاص، الذين كانوا هم أيضا تحت رقابة العيون الخفية لأبي هلال، لذا لم يكن مسموحاً لود بندة زيارَّة بيوت الآخرين، أو زيارَّة هؤلاء الآخرين لمسكنه الرَّث البائس، الذي كانت حياته في البرية، فيها من الرَّفاهية ما يفتقد هنا..

لكن لم يكن هذا الحصار ليقف مانعاً، لرغبته القوية في الهرب، مدفوعاً بروحه التواقة للتحرر...

بينما تبدأ في الفضاء الحلمي لشقة الكلس، عوالم بني هلال تذوي لتنهض جلابي كخط دفاع آخير، تتداعى عوالم أخرى غامضة معطونة، في الهوية المجهولة لبني هلال.. هذه القبيلة الغامضة..

فإذا برياح محنة جلابي نفسها، تهب ببدء جيوش الإنجليز في التدفق.. معلنة نهاية المرحلة الهلالية في دار صباح، ومؤرخة لبداية عهد جديد من التمزقات الكبيرة، وكل أنوع سقط التاريخ والأفكار..

كان جلابي قد أسقط في يده، إذ تلفت حوله دون أن يجد أحداً، فرجاله وحاشيته من الهلاليين، بل وكامل قبيلة بني هلال،كانت قد تسللت للإنضمام إلى جيوش الإنجليز التي في طليعتها دبك..

فلم يعد يرى نفسه سوى مشنوقاً يتدلى من السقف..

فيما تبدأ في هذا الفضاء الحُلمي، الحيَّاة المتجذرَّة لبت فدرالله، حجب النور، الدريب.. الكرسني، العاتي وجانو.. تنسحب خلف آخر أطياف مملكة مارتجلو البائدة.. في هذا الفضاء الضيق المخنوق تنهض على أنقاض الذكريات، ذكريات أخرى، فتبرز الأرباب...

كان كل شئ في فضاء الغرفة، لايكف عن بعث الماضي، الذي يحتل هواجس الكلس، فيجعل حركة أصابعه على شعر غلوريا، متوترة لا تخلو من الإنقباضات اللا شعورية.. تخرج من أعماق التاريخ، وذاكرة الحجر والتراب والحكايا المختزنة، التي لا يكترث أحد لسماعها، إلا ويراوده القلق والتوتر الممضين..

تلك الحكايا المعزولة، المقيدة، التي تواطأ الصمت للقضاء عليها، قبل أن يولد الكلس في مكان ما، بعد عشرات السنوات، ليحررها.

فانفتحت تتموَّج في فضاء الضوء الخافت، لشقته المحاصرة بكتب التاريخ والمخطوطات والمدونات، وشتاء برينسس آن الرابضة ببؤس شديد، في قلب الساحل الشرقي للأطسي الرهيب،كفنار كئيب لم يضئ للسفن سوى مرَّة واحدة.. أنطفأ بعدها إلى الأبد..

هناك في منتهى دريب الريح.. عند مفرق الأودية الثلاثة، أقام دالي قصره المهيب وزرع العردية -التي ستعرف بعد عشرات السنوات الضائعة، وعندما يتغير إسم مملكته للمرة العشرين فيصبح إسمها الأرباب، وتعرف ب"عرديبة الدود"- وفي هذه البلدة "الأرباب" سيولد من رحم سلالة جانو قرمط أبو جريد صغير آخر، هو والد الأشرمين اللذان سيعبران إلى الجانب الآخر من الهاوية، بعد أن تدك الجيوش المتحالفة بلدة الأرباب..

وهناك بعد عشرات السنين الأخرى سيولد دبك آخر، والذي سيحمل لواء الثورة، في محاولة يائسة لاسترداد أمجاد مملكة مارتجلو البائدة..

وعندما تنتقل مسك النبي إلى الجانب الآخر من الهاوية، سيجدد ولديها الأشرمين ضريحها، قبيل مغادرتهما العجلى إلى دار صباح.. يودعانها إلى الأبد.. لكن دون حزن يفطر القلب، سوى الذكريات التي سيحرصان أن تحيا في سلالتهما، التي ستتنازعها كل الحكايات العتيقة المتجددة، في محن الفقرا أتباع جانو قرمط وإبتلاءاتهم، منبثقة من قاع عواصف التاريخ وأغبرته، التي تراكمت على ذاكرة الجدة بت فدر الله، التي تمنح حجب النور خلاصة الحكمة، التي تقي من كل موت وشيك!..

هذه الحكمة المتوارثة والتي تنتهي عند الأشرمين، كمعارف أنهكها الترحال في الزمان والمكان، دون أن تخبو جذوتها لامعة كسطح حجر كوتو المقدس، والمرآة السحرية الملساء.. عتيقة كغطاء صوف الكنداكة ورماد جمجمة جانو..

هذه التركة التاريخية التي سترثها سلالة حجب النور، ستضيع في اللحظة ذاتها التي يدخل فيها الإنجليز في مؤخرة طلائع جيش دبك...

في هذا الفضاء الحلمي لشقة الكلس، تنهض غلوريا كعالم قائم بذاته، عالم منغلق على كتلة من التوحد الكلي، تشغله فكرة "التخلي"..

أخذت غلوريا تردد هذه الفكرة داخلها كالمنومة مغنطيسيا..

بدت لغلوريا فكرة التخلي عن الكلس، فكرة جد مريعة، لكنها تستولى على كل حواسها الآن..كانت لا ترغب في التراجع عنها.. ستمضي لتضع حملها بعيداً.. بعيداً عن متحف التاريخ والقنابل الموقوتة، التي يطلق عليها الكلس مختلف التسميات، فهي حيناً كوارث الماضي، وحيناً آخر هي إعادة إكتشاف الذات والإيمان..

هذه القنابل المختزنة، في مخطوطاته العتيقة ومدوناته القديمة، التي لامحالة ستنفجر بوجه مولودها ذات يوم، فيجد نفسه جزء من هذه الحلقات الدائرية.. فيتحول إلى شظايا شبيهة بأبيه..

كانت ثمة دوافع مختلفة تتحكم فيها، فتحيك سيناريوهات مختلفة لإختفاءها، عن عالم الكلس، بحيث لا يتمكن من اقتفاء أثرها أبداً..

كانت ترسم السيناريو تلو الآخر، وتضيف هنا وتحذف هناك، وتبني هذه الحبكة لتعدل في تلك..

كانت غلوريا تعلم أنها ضعيفة في حضوره.. وربما هذا السبب بالذات أكثر من غيره، يغذي رغبتها في الهرب من عالمه الكارثي...

كثيرا ما تشعر بنفسها كسجينة لشبكة عنكبوت عملاق.. شبكة مهولة النسج، لا فكاك منها.. وظلت تحاول مقاومة هذا الإحساس المعقد الغامض، وتغذي هذه المقاومة لتتراكم كمخزون، يقويها على تنفيذ قرارها في اللحظة الحاسمة..

وفيما كانت تخامرها هذه الخواطر والأفكار،كان الكلس يشعر بنفسه وحيداً، في هذا العالم المتمزق المعطون في الكوارث.. هكذا شعور بالوحدة الشاملة يداهمه.. شعور حاد كالنصل، يخترق قلبه.. يحاول تفسيره بأنه ربما بسبب، تأثير عوالم الماضي المرعبة!...

القسم الثالث:

١

إستغل ود بندة توليه مهمة الإشراف، على سقاية أحد زراعات أبي هلال، على أطراف الحاضرة، في التخوم القردود للنيل، فأخذ يستغل السوانح للقاء بت فدر الله، أو بقايا الفقرا أتباع جانو قرمط، الذين كانوا يوماً طائفة قوية، تهدد حياة أبي هلال،كما هددت حياة الحكام الهلاليين، على تعاقبهم في عهود خلت وأنقضت، إلى أن دالت الدولة إلى أبي هلال..

فقائد الفقرا الراحل "جانو"كان قد أدرك منذ الوهلة الأولى، في سيرته الملأى بالوقائع والأحداث، بأن هناك دونما شك، كيانا ذو معرفة هامة جداً، لكنها غير منتظمة، وليس من الممكن أن تطبق عملياً، في تلك اللحظة التاريخية، التي عاشها بكل حذافيرها، والتي كانت تمر بها دار صباح، وربما أن هذا النوع من التفكير بالذات، هو ما أودى بجانو إلى التهلكة..

فالهلاليين كانت إحدى هواياتهم المحببة، قمع الطوائف المختلفة، معتبرين أنهم البحر الذي لا لزوم لموارد الماء الصغيرة إلى جانبه.. فضحوا بالمعارف المتناثرة لهذه الطوائف، وبالتالي لم يتمكنوا من رصفها إلى جانب معارفهم، التي جاءوا بها من خلف البحر الملون، ليتمكنوا من بناء مملكة واحدة منسجمة، تتخطى حدود دار صباح، لتلقي بظلالها على كامل تراب البلاد الكبيرة...

كان ود بندة يقضي معظم وقته في الفسحة الكبيرة، المواجهة لقصر أبي هلال، والتي لم يكن مسموحاً فيها على الإطلاق بكتابة أي شئ، لأن أبي هلال كان يرى أنه من العار أن يفعل الآخرين، أشياء لا يعرف هو شخصياً كيفية فعلها، ورغم ما أبداه من ريبة وحذر تجاه ود بندة، إلا أنه كان يضطر إلى دعوته، لاصطحابه إلى حيث يريد، وغالباً ما يريد هو بعض الرحلات الداخلية، وفي كثير من الأحيان كان يستشيره في أمور الحكم..

في الأيام الآخيرة، بعد ثلاث سنوات من المجاعة الكبيرة، التي ضربت دار صباح دون شفقة.. وصل إلى دار صباح من طريق الملح "مالحة" الشيخ أبو خيرَّة، الذي هو في الحقيقة رئيس فرقة جمال درب الأربعين، ولم تكد قدماه تطآن أرض دار صباح، حتى مثل بين يدي أبي هلال، حيث أخبره بأنه سمع بأن هناك مملكة كبيرة غنية، في دار الريح إسمها شلال مارتجلو.. وأنه رأى أن من الخير لدار صباح، غزو هذه المملكة واحتلالها، فهذا وحده ما سيخرج دار صباح، من أزماتها الطاحنة...

فسأله أبو هلال، إن كان يعرف مكان هذه المملكة بالضبط، فدار الريح كبيرة، بل هي أكبر أجزاء البلاد الكبيرة، فأجاب أبوخيرة أنه لا يعرف، فهي مملكة تسورها العزلة من كل إتجاه، تحميها من فضول الجوار وأطماعه..كما أنها بعيدة عن طريق الملح، وخارج ملتقى درب الأربعين مع الدروب الأخرى، ولكن.. مع ذلك ليس من الصعب العثور عليها...

لم يكن أبوخيرَّة سوى أحد القادة السريين للفقرا أتباع جانو، الذين ظل أبوهلال يستهدفهم، وإنما قال ما قال -في الظاهر- إعرابا عن حرصه على ملك أبي هلال، وحتى يبعد عن نفسه الشكوك، فتسهل مهمته في تهريب ود بندة، كما خطط مع بت فدرالله..كما أنه كان على إدراك تام، أن مثل دار صباح المضعضعة، لن تستطيع غزو مملكة، مثل الشلال تحتمي خلف أسوار العزلة..

ولم يكد أبو خيرَّة يمر في الساحة الكبيرة، أمام القصر ويرى ود بندة، حتى همس في أذنه:

"لقد أتيت لمساعدتك، فاجتهد في مقابلتي".

فتردد ود بندة، فأكد الرجل:

"بت فدرالله أرسلتني وبعد أن اتفقا مضى أبوخيرة تتابعه نظرات ود بندة، في حذر شديد إلى أن اختفى"...

لم تعد شقة الكلس هي تلك الشقة ذاتها، بفضائها الحلمي المزكوم برائحة التاريخ.. بأصص الزهور في شرفتها، وتماثيل الأبنوس الموزعة في نظام دقيق..كان كل شيء يبدو خواء إلا من أشباح تشاركه الصمت..

فغلوريا التي أعطت من روحها كل شيء هنا، لم تعد جزء من ذاكرة الشقة..كأنها لم تكن يوما..كأنها محض حلم مبتور..كأنها...

فكرة تخلي غلوريا عنه هكذا دون مقدمات، وعلى هذا النحو المباغت ترعبه.. أي حزن هذا الذي كتب عليه، أي جنون هذا الذي أقدمت عليه، وأي غضب يمور بداخله كالمرجل...

غلوريا بلونها القمحي المشرب بالأصيل، مرفأه في رحلات البحر الملون.. مرفأه هو الحزين الوحيد، الملقى بعيداً في أكثر أركان العالم رعبا.. لكم يحتاجها الآن، لتمسح على رأسه كطفل غرير، تطارده المخاوف من البعاتي وأب لمبة..

تهدهده.. تسند رأسه إلى صدرها، وتحكي له عن الأميرة والأمير، اللذان عاشا في تبات ونبات، ورزقا البنين والبنات، فينام إلى آخر الحكايات من جنس المخدر الموضعي.. وتختفي الأشباح، التي تمور في أتون أعماقه المجروحة..

في عيون غلوريا تختبيء كل عوالم مدوناته.. مخطوطاته..كتبه.. تاريخه الشخصي كحفيد لدبك شخصيًا..كل شئ..كل شئ يختفي.. فلا يبقى من رعب التاريخ سوى لذاته وملذاته...

كان قلب الكلس يتموج، كزورق في مهب الأنواء.. في قلب البحر الملون.. يصطدم بمركب الدريب، يتحطم معها على الجزيرة الصخرية.. وغلوريا إبنة ملك دار صباح تغرق.. تغرق.. ليلفظها الموج على الجانب الآخر من العالم.. بالتحديد هنا في هذا الجزء المنسي من الأطلسي الرهيب.. بالتحديد هنا حيث ترسو السفن، قبل أن تحط رحالها في بلتيمور.. بالتحديد هنا حيث ينفلق قلبه، كنافذتين واحدة للشمس وواحدة للغبار...

بكى الكلس كما لم يبك من قبل.. لم يكن يحس سوى شهيق بعيد، كصدى مكتوم...

٢

في المساء. داخل الديوان الكبير. باغته أبوخيرَّة بانعطافه الحاد أمامه، فتبعه إلى أن تخطيا الرواق الملحق بالديوان.. وعندما أستوثقا غياب عيون الناس، وبُعد الآذان عنهما، مد له أبو خيرة صندوقا خشبياً صغيراً، تفوح منه رائحة هي مزيج من رائحة البن والقرض:

"افتحه في مكان آمن، وأقرأ ما في قاعه من أوراق بانتباه.. بعدها قابلني غداً في هذا المكان"

أخفى ودبندة الصندوق الصغير داخل ثيابه ومضى..كان أبي هلال قد دعاه في تلك الليلة، لتناول العشاء على مائدته، فقرر دفن الصندوق على أن يستعيده بعد العشاء...

وكالعادة تركزت أحاديث أبي هلال أثناء العشاء، حول الأزمة الطاحنة في دار صباح بسبب المجاعة، والجفاف والتصحر.. هذه الأحاديث الملوكية، حول هموم دار صباح، لم تكن مؤشراً على ثقة أبي هلال، في ود بندة لدرجة الاستئناس به، فيما يشغل فكره..

فأبي هلال المجبول على الشك والريبة، لن يتردد لحظة واحدة، في إنزال العقاب الصارم، على ود بندة حال تأكد ظنونه..

لذلك لم يكن ود بندة يتردد، في كل مرَّة يقابله فيها، من إظهار ولائه وإخلاصه.. وبدى لود بندة واضحاً أن بال أبي هلال، منشغل أكثر مما هو مألوف.. ربما كان ذلك بتأثير الأحلام التي أشعلها في نفسه، أبو خيرَّة بحديثه عن مملكة الشلال..

بدى للكلس أن أبي هلال هنا، أشبه بجلابي أكثر من غيره من الهلاليين، إذ لديه نزوع قوي للانقياد، مغرم بحفظ تعليمات العرَّافين، وتنفيذها..

الفرق بينهما، أن أبي هلال كان ينتج أفكاره، بطريقة عجيبة، إذ ينفث ذلك النوع من الدخان، الذي يتموج في دوائر حلزونية في قاع دماغه، ومن قلب هذه التموجات، تتشكل أفكاره اللعينة، التي سرعان ما يتلقفها رجاله، وحاشيته ويشرعون في تنفيذها..

في التقديرات المبدئية حول أزمة دار صباح -التي استنتجها الكلس قبيل مباغتة غلوريا له باختفائها عن عالمه- أن مشكلة دار صباح الإقتصادية، هي في أحد جوانبها، معاناة نوع من التكيف السريع مع المتغيرات، ذات الصلة بالموارد المتاحة للأفراد، الذين في الواقع هم لا يدركون سبب هذه التغييرات، التي صنعتها المجاعة، وذلك بسبب تداخل مجالات رؤيتهم الفردية المحدودة، ورؤية أبي هلال الأكثر محدودية...

الأزمة الخانقة لدار صباح كانت قد شملت كل جوانب الحياة، فالتغيير الذي أحدثته حروب أبي هلال مع الجوار، في الصعيد والسافل وما تاخمه من دار الريح، إلى جانب المجاعة والصراعات الداخلية، كل ذلك أوجد نوعا من التغييرات الخانقة، التي أصبحت ليست بذات أهمية للناس بمرور الوقت، فلشدة ما تحكمت في الحياة العامة، دخلت طور المألوف والعادي...

بعد أن استعاد ودبندة صندوقه الصغير، أسرع إلى كوخه البائس، وهناك أشعل المصباح الزيتي العتيق، وفتح الصندوق بمدية صغيرة أشتهر بصناعتها حدادي كركوج.. ووجد ورَّقة صغيرَّة مكتوب عليها بالعمار ملخص لخطة هربه..

لم تمض سوى أشهر قليلة، حتى أفاده أبوخيرَّة أن الجمال المعدة لتهريبه، ستصل في اليوم التالي للأحد الثالث من ذلك الشهر..

كان ذلك بعد عامين من الفيضان، الذي تلى المجاعة بعام.. ظل ود بندة ينتظر بخوف، تدفعه إلى الأمل وقائع العذاب اليومي، الذي عاشه منذ وطأت قدمه قصر أبي هلال..

كان خوفه نابعاً من أن تعترض سبيله عوائق، غير متوقعة قد تفضي إلى قتله.. وعلى أي حال كان شديد الشوق إلى ليلة الهرب، إلى أن جاءت بخطاها المتثاقلة، فألتقى أبوخيرَّة عند مدخل الديوان الكبير، الذي همس في أذنه بسرعة، يدعوه إلى الإستعداد للهرب..

كلهم يخططون للهرب.. ودبندة.. غلوريا.. هو الكلس شخصيا.. لكن كيف لم يلحظ رغبتها في الهرب..كيف لم ينتبه في ذلك المساء.. عندما بدت متعبة قلقة، تحمل من حزن العالم ما يكفي كل المجرات.. حزن شفيف نقي كقطرات الندى والدمع، على غير ما ألف.. بدى له جسمها في ذلك المساء، رقيقاً وناعماً في اكتنازه، بتأثير الحمل، الذي دفع بكل أنوثتها إلى الخارج، فغاصت في الفضاء الحُلمي للشقة.. وعبر وسنها الضبابي تكلمت عيناها في همس وديع، لكنه غامض -كيف لم يلاحظ ذلك- لحظتها كانت قطرات المطر العجولة، تتساقط على أرض البلدة المتعبة، من كر وفر ملذاتها.. فتتدارى كل تلك الروح المشاكسة، تمسي البلدة وديعة. هادئة. مستسلمة فيزحف كآخر الغزاة..

قبيل غروب شمس ذلك اليوم،كان ود بندة قد أكمل كل ترتيبات هربه، مبتدعاً من أساليب التضليل، ما لن يخطر على بال أبي هلال.. فبمعرفته لأبي هلال، كان يتوقع أن يأمر أولاً بالبحث عنه داخل الحاضرَّة، وسيستغرق هذا البحث وقتاً كافياً لمغادرته الحاضرَّة، وبعد ذلك فحسب

ستنقب عنه عيون أبي هلال وجنوده، خارج حاضرَّة دار صباح، بعد أن يكون في الواقع قد كسب وقتاً كافيا للفرار..

كثيراً ما يتساءل الكلس حول تجربتي ودبندة وأبي هلال: هل كانا يدركان بفطرتهما، أن الحضارات تتقدم خلال إطالة أمد عدد كبير من العمليات الهامة، التي يمكن للناس القيام بها دون التفكير فيها، كما كان جانو يتصوَّر على نحوٍ غامض؟!..

وهل هذا الإدراك الغامض هو ما حفز ودبندة فيما بعد، بالحلم بتطوير نظام بديل للنظم في دار صباح والصعيد والسافل، بإبتداع نظام يحافظ على الخصائص المميزة للهلاليين والجنكويز ويمكنهم من إختبار مساعيهم، وإستخدامهم الحر لمعارفهم ومهاراتهم؟!..

في الحقيقة هذه الطريقة في التفكير تختلف تماماً، عن كل ما حلم به أبي هلال.. فمن الأمور الغريبة، أن أبي هلال وحاشيته ورجاله، الذين يقومون بتوجيه الناس، كانوا لا يدركون أن هؤلاء الناس لا يعرفون لماذا يتوجب عليهم أن يعملوا ما يقومون بعمله!..

ولذلك كان بال أبي هلال دائم الإنشغال، بما كان ود بندة يقوله حول هذا الأمر..كي يعمل الأفراد الأشياء المرغوب فيها، دون أن يكون هناك أحد يخبرهم بما يتوجب عليهم فعله..

عندما شارف الليل على الانتصاف، وبعد أن آوى الجميع في دار صباح إلى مخادعهم، يسبقهم أبي هلال. حمل ود بندة الفروَّة التي أعتاد الرقاد عليها، وتدثر بها فوق ثيابه الصوف، ثم خرج في هزيع البرد ليلتقي أبي خيرَّة، الذي كان ينتظره بحمار معد لركوبه..

أسرع ودبندة في المسير خلف أبوخيرَّة.. في تلك الليلة الباردة..كانت رياح السافل، قد أخذت تشتد شيئاً فشيئاً، وبينما كانت تدفع أهالي دار صباح، للإنزواء على أنفسهم في عناقريبهم القِّد، كانت تدفع أبوخيرَّة وود بندة، للإسراع في المسير أكثر فأكثر..

سارا في طريقهما دون أن يصادفا أحداً من الناس، حتى وصلا إلى الطرف الآخر من دارصباح، حيث توقفا أمام قطية متهالكة!..

من خلف تلك القطية، خرج رجل يسحب وراءه جمل معداً للسفر.. افترق عنهما أبوخيرَّة، فبدأت رحلة ود بندة مع دقاش..

كانت الخطة أن يمضي معه دقاش، العارف بسباسب الصحراء ووهادها، إلى حيث تنتظرهما، على بعد مسيرَّة يوم من هذا المكان، الجمال المعدَّة للإجتياز بهما إلى دار الريح..

هذا الشارع الذي يمر فوقه الآن.. هذا الشارع الذي لا يشبه درب الأربعين أو طريق الملح.. هذا الشارع الذي لا يفضي لمالحة أو الشلال، هذا الشارع الذي يمر فوقه الآن: سمرست آفنيو، قطعاه معاً مشياً على الأقدام عشرات المرات..

مرَّت فوقه غلوريا لوحدها آلاف المرات.. هذا المطعم، هذه الساحة، تلك الشجرة التاريخية، التي كان يشنق فوقها العبيد..

وكل شيء في برينسس آن، في هذه اللحظة تنطبع فيه رائحة أنفاس غلوريا، المزيج من الماضي والذكريات الحزينة...

عندما وصلا إلى البقعة، التي كان دقاش قد خبأ فيها الجمال، همس دقاش في أذن الجمل فبرك، ونزل ودبندة الراكب على الجزء الخلفي من السرج وراء دقاش مباشرة..

ركب كل منهما جملاً وتابعا رحلتهما، لا يحول بينهما والمسير حلكة الليل وبرودته، وأنتشار الأشجار الشوكية، إلى أن أطلت أولى خيوط الفجر، فوجدا نفسيهما عند وادي المرفعين...

فيما كان الكلس يحاول استجماع ذاته المتهاوية، بسبب ما خلفه هروب غلوريا من أثر عميق..كانت غلوريا لحظتها، على الضفة الأخرى لنهر الا (بكموك) تحاول إستعادة حياتها، التي شعرت بها توشك على الإنتهاء والتبدد في عالم الكلس..

كانت تخشى أن تكون بالفعل جزء من نسيج هذا العالم المتفاقم.. لم يعد لها الآن -مع ذلك- سوى الحنين.. لكن الحنين إلى ماذا.. فالكلس وعالمه لا ينفصلان، فهما متماهيان، والحنين إلى

أحدهما يعني الحنين إلى الآخر.. وكليهما ينطوي على قوة تدميرية مهولة، لا يتشكل من أنقاضها سوى حلم يتيم، هارب يصعب الإمساك بتلافيفه...

ترى غلوريا نفسها الآن كمن استفاق من حلم عميق.. حلم سارت فيه عمياء بخطى واثقة، لتحبه دون تفكير.. نعم أحبته بعقل غارق في الوسن الضبابي، الذي يحيل كل شيء إلى أشباح شاحبة، لا يمكن تبين ملامحها.. أحبته بقلب مشرع لكل إحتمالات الجنون، دون رغبة في مقاومة هذا الجنون اللذيذ...

حب مراهقة مسكونة بحكايات الحبيب، الفارس المجهول، الذي ينهب بحصانه الأبيض مسافات التاريخ، ليختطف محبوبته من براثن أزمنة غابرة.. لكن ليمضي بها إلى أزمنة أشد عُكرَّة من غبرة دار صباح.. أزمنة -وإن كانت مسكونة بهواجس الماضي وكوابيسه إلا أنها- تتبدى عن حبيب ينتظر على الضفة الأخرى، منساقاً بالحنين والحنين، إليها وحدها.. أنثاه.. قدره المكتوب... ربما حبها له -من الجانب الأخر- هو ذاته نوع من الحنين، لحبيب يمتلئ بحياة تفتقدها.. حياة تنتمي إليها لكن تفتقدها. ربما كان تعلقها به، شيء كتعويض ذات أنثى غامضة.. هائمة في فضاءات التاريخ، تطل من حين لآخر، تطل بالتحديد في حضوره القوي، من أغوار عالميهما المتشابكين لتطارد أحلامها، تعويض تجد فيه نفسها.. تجد فيه ذات الأنثى الضائعة...

لطالما أحست بهذا التعويض، في لحظات توهجهما الكبرى.. توحدهما كما يتوحد الوجود، مفضياً إلى العدم.. فناء ذاتيهما في ذاتيهما، بكل ما يشكلهما من روح وجسد..

كان هذا الإحساس بالفناء الوشيك.. اللحظة المنتظرة.. لحظة التتويج، يبدأ بتلك القشعريرة، التي تدب في حلمتيها تحت لسانه، وتزحف في سلسلتها الفقرية، تتخللها فقرة فقرة.. تسري مسرَّى الدَّم، وعندما يمتزج كل شيء بكل شيء، وينامان منهكين تسافر روحهما المتوحدة، كسحابة تروي أرض دار صباح العطشى، التي أنهكتها المجاعات..

ربما أختارت عماها منذ البداية، ففي ذروة العمى يمكن استبصار كل شيء، فترى ما بداخل هذه الحفرَّة، التي لا قرار لها، حيث تقبع فقط عيون البحر الملون، فلا ترى نفسها فيه، إلا كموجة عاتية، تحطم مركب الدريب، فلا يبقى سوى الدريب، شاهداً على مبتدأ ومنتهى خبر إبنة ملك دار صباح شهرزاد...

نعم إنه نوع من الحب المدمر -لكليهما ربما- هذا الحب الذي هربت منه، والذي سيظل يطاردها كل لحظة.. وستراه في ثمرته، وهي تنمو وتكبر شيئا فشيئاً، في رحمها كل يوم...

فهي ثمرة أشبه بالمعجزة، حتى أنها لاتصدق، هي التي لطالما أكد لها الأطباء، إستحالة أن تحمل، حملت فتنازعتها المشاعر المتناقضة، فهربت.. أكل المعجزات شقيقات للمخاوف والهواجس والظنون..

٣

كان دقاش شاب صغير السن، مسترسل اللحية.. سأله ود بندة:

"إلى أي القبائل تنتمي؟"

فأجاب:

"نحن من جبال كتري".

دون أن يزيد حرفاً واحداً، فأكتفى ودبندة بهذه الإجابة الغامضة، وغير الموضوع:

"إلى أي مدى بعدنا من عيون أبي هلال"

فأبتسم دقاش ورد في هدوء:

”ليس أمامنا سوى الدعاء، بأن تقوى جمالنا في مسيرها“

ثم أستطرد:

”لا تخف، فأنت مع دقاش..“

وحكى دقاش لود بندة:

”أيام حروب الجهنية والجهادية بهذه الجبال، آوى أبي أحد الهاربين المطاردين من جند الترك، الذين كانوا قد إتهموه باللصوصية، والاعتداء على أحد الجهنيين الجلابة.. أسر الترك زوجاته، أما هو فقد وجد عضداً قوياً في الإحتماء بأبي، الذي كان قد دفع مالاً كثيراً ضماناً للرجل، وعمل على استصدار العفو عنه، ولم يكتف بذلك، بل قدم نفسه كفالة عن زوجات الرجل الأسيرات.. هكذا نحن آل دقاش الكبير.. لا تخف“..

تابعا فرارهما بأسرع ما يستطيعان، وجمالهما في عدوها، لتكاد تطوي الأرض طياً.. إلى أن غربت الشمس فوجدا نفسيهما، قد أقتربا من مشارف سودري، فنزلا عن جمليهما ليواصلا سيرهما ريثما يعلفان الجملين ويستريحان...

بقيا في الخلاء الذي يحيط بسودري، زهاء الساعة، أكلا فيها من البلح والكسرة الناشفة ما يقيم الأود.. وتجرعا من ماء القربة، ما يكفي لدرء ظمأهما، ويعينهما على مواصلة المسير...

في تأملها لمويجات نهر البكموك المتقاطعة،كانت أفكارها هي الأخرى، تتقاطع في لحظة محددة.. اللحظة التي وجدته فيها بعد بحث طويل..كانت حريصة على التعرف على عالمه، وعندما تعرفت على هذا العالم، لاذت بالفرار. لم تعد راغبة في هذا النوع من المعرفة، الآن تحدثها نفسها، ربما هي تريده وحده بمعزل عن عالمه.. هويته الرهيبة، ولكن هل يمكن الفصل بين الذات وموضوعها..

من أعماق عقلها المضطرب تشتاقه.. تحن إلى أحاديثهما عن السحابة الحمراء، زعيم الهنود الحمر، وهل كان صنواً لدالي..

تحن لسرده المتوتر في سيرة الممالك الغابرة، هنا على هذه الضفة، وهناك على الضفة الأخرى من العالم.. تحن إلى قصتهما، قصة حبهما الذي لن يكتمل.. تحن إلى نزهاتهما معا على سمرست آفنيو، في العشيات عندما تبدأ قطرات المطر، تزخ أشواق السماء...

توهمت أنها تعلمه كيف يستمتع بالحياة، ففوجئت به يأخذها خلف أفق سحيق..كانا كشمس غاربة كل ما حولهما محض غسق:

"هذا أحد المعان العديدة لسؤال الإستمتاع بالحياة"..

خافت أن تضيع في هذا الغسق الرحيب..كان غسق خلق خصيصا للضياع فيه..غسق من وحي عوالمه الغابرة:

"الضياع نفسه من معان الحياة"..

فهربت.. عند شروق شمس اليوم التالي، كانت الجمال قد قطعت في مسيرها، مسافة طويلة، فأراحا جمليهما. يستظلان بشجرة تبلدي ضخمة، طاعنة في السن، يغطي جزء من جذعها فوهة كهف منحدر من الرمل إلى الصخر.. إتكأا على جذع التبلدية يغالبان التعب والنعاس...

عند الغروب سمعا صوتاً كالخطى البعيدة، فأخذا يتلفتان حول التبلدية، لتحديد مصدره دون أن يريا شيئاً، فمضيا يسرعان في إسراج الجملين، لينطلقان مرة أخرى...

تابعا طريقهما، في طريق تميل إلى الصعيد المتحدر، إلى دار الريح قليلاً، قليلاً. كانا يخترقان التلال والقيزان، ولم يكد الليل يرخي سدوله، حتى تخطيا مسافة بعيدة، وعندما لاح ضوء الفجر، إبتسم دقاش في وجه ود بندة وهو يقول:

"لقد قطعنا نصف المسافة تقريباً"

"إلى الشلال"

”إلى حيث تبدأ في الشعور بالأمان.. من هناك يمكنك أن تبحث عن الشلال دون خوف إلى أن تجدها“

خلال كل هذه الرحلة الطويلة الشاقة، لم يتغير منظرهذا الجزء من البلاد الكبيرة، إلا في القليل النادر.. فهي أرض صحراوية، وخلاء قردود في غالبها، تتخللها شجيرات القضيم والسناسنا، وتلال الصخر والجبال الصغيرة، بصورة متفرقة في بعض نواحيها...

علاقتهما.. علاقتهما هذه العلاقة الغريبة، لهي أشبه بالتمزق التام.. نوع من الضياع في متاهة معقدة النسج، يبحث فيها كل منهما عن الآخر، وعندما يعثر عليه، في اللحظة ذاتها التي يعثر فيها على منفذ الخروج من هذه المتاهة، يفقدان رغبة النفاذ خارج المتاهة.. يفقدان رغبة العثور على بعضيهما.. بطريقة ما كانا: الكلس وغلوريا يبحثان عن ماض ما، يدركان بصورة خفية مدى اخافته ورعبه.. يبحثان فيه عن إجابات لأسئلتهما الوجودية الحارقة، إجابات تهدئ روع خواطرهما المضطربة.. بطريقة ما كانا يريدان تأكيد ذاتيهما، فيما يدفع الناس للهروب، وهكذا لم تكن علاقتهما سوى مسيرة مزعجة، لذات تبحث عن آخرها.. أو آخر يبحث عن نفسه في ذات مضعضعة...

٤

سارا دون توقف..كان طعامهما قد نفد، ولم يكن لديهما سوى القليل من التمر، الذي راحا يتزودان به على ظهر جمليهما من حين لآخر، دون أن يضعا ركابهما..

عندما بدأت الشمس في الإنحدار، شاهدا قطيعا من الغنم، يقوده بعض الرُّعاة، فأضطرا إلى تحويل خط سيرهما، حتى لا يراهما أحد.. وعندما شعرا أن الرعاة شاهداهما، أسرع دقاش إليهم بجمله ليلتقط الأنباء، ثم عاد ليطمئن ود بندة، بأنهم لا يعرفون شيئا، وتابعا السير.. متجنبين الدروب المطروقة، التي عليها آثار خطوات الحمير والجمال والماشية، أو تلك التي لا تخلو من علامات كالصوى..

لم يبد لهما طوال رحلتهما أن ثمة ما يتعقبهما.. وكان ود بندة يصر:

"الحذر واجب".. واصلا إلى أن وصلا خلاء فسيح أجرد من كل شئ.. فقال دقاش:

"تلك البقعة التي بلون الرماد، هي طريق القوافل التي تربط طريق الملح ومالحة بدرب الأربعين.. إذا تمكنا من إجتيازها دون أن تلمحنا العيون، لن يكون هناك ما يخيفنا بعد ذلك.. فكل ما بعد هذه البقعة أرض صَّيْ، لا يطأها أحد! فلا شيء من النبات والأعشاب فيها. بعد صمت قصير أضاف دقاش: "سنجد مكاناً آمنا عند تلك الرَّابية الصخرية منذ توغلا هذه الفيافي، لم تغشى إبتسامة واحدة وجهيهما، إلى أن إبتسم دقاش في هذه اللحظة بالذات، فأدرك ودبندة أنهما نجيا من الخطر، فواصلا مسيرهما وكل منهما يضرب جمله شديد التعب دون رحمة.. تخطيا التلال.. المنحدرات الرَّملية المغطاة بالحجارة السوداء، التي تختلف في حجومها.. والتي تنهض في صفوف منتظمة، حتى ليخيل لمن يشاهدها، أن هناك من قام برصفها على ذلك النسق البديع..

وإلى جانب هذه الحجارة كانت ثمة صخور متناثرة، يبعد كل منها عن الآخر، مسافة تكاد تكون متساوية، لا شك أن جمليهما كانا يجدان صعوبة في السير، في مثل هذا الخط الحجري الصخري..

لحظتها أخذ ود بندة يفكر في أبي هلال، والحصار الذي ضربه حوله، وتلك الأحاديث بينهما: في شؤون الحكم والسياسة، وافتراضاته المضحكة بأنه وحده يمتلك كل الحقائق..

هذه الافتراضات التي لم يتمكن معها، من تحديد مشكلات دولته.. ببساطة لأنه لايريد أن يرى، أن الحلول تكمن هنا.. في تفاعلات شعبه مع الحياة، والكون وكل ما يحيط بهما.. تفاعلات هذا الشعب مع المشكلات.. هذه المشكلات، التي أبدع أبي هلال في خلقها وتصميمها..

لم يكن أبي هلال مقتنعا بأن كل فرد في شعبه، يمتلك جزء من المعرفة، وجزء من رؤية الحل..كان يتصرف كإله بشري صغير، لكن صغير جداً بين من يتوهمون في أنفسهم القداسة..

المعرفة الجزئية للناس لو عمل أبي هلال على تجميعها، لرأى الطريق أمامه واضحاً.. فهؤلاء الناس لا يريدون محاربة أحد.. أنهم محض جياع عُرَّاة، إلا من أحلامهم في الإستقرار.. أحلامهم بأن يكونوا وسط أسرهم، ملتفين حول شاي الصباح والمغربية وقدح الغداء.. يتبادلون السمر العائلي، في تلك الحكايا التي تهيمن عليها ذاكرة جداتهم، ولا يتجسس عليها العسس.. لكنه لا يريد لهم إلا أن يعانوا في دار صباح ما يعانونه الآن، إزاء سنابك خيل الصعيد والسافل التي تقترب من بواباتها...

نهض الكلس يفتح درفة نافذة شقته المطلة على سمرست آفنيو وغاص حتى ركبتيه في نور المساء..كان جسده ملتهباً كجذوَّة مشتعلة أطفئت لتوها..كانت الشمس لحظتها تتحدر على الضفة الأخرى لنهر البكموك وتمضي حثيثاً حثيثاً كالمحمولة على سواعد سحابة مهاجرة، إلى أرض البلاد الكبيرة، ترحل في المدى اللانهائي لتاريخ المجاعات والهمبتة، والنهب والغزو والسبب، فيهب أهالي دار صباح إبنة ملكهم للنيل، فتحط السحابة رحالها، تمطر.. يفيض النيل "فيغتصب" أبي هلال كل الإناث: من حاضت ومن لم تحض بعد.. يقتلهن فلا يدري بسر عجزه أحد...

الذكريات وحدها.. نعم لم يعد يملك سوى الذكريات وحدها، منذ غادرت غلوريا عالمه..كانت تردد بهمس في أولى أيام علاقتهما:

"ستكون ملاذي دائما"

”وأين أجد أنا الملاذ؟“

”في أحضاني“

فيزحف، وتتوتر أصابعه على عوالمها الداخلية السرية.. عوالمها الدفء.. يتسلل إلى مواطن القلق واللهفة الأزلية، ويمضي ليحفر عميقاً عميقاً.. أعمق من خيال دبك ونينا...

قبل أن تغرب الشمس، لاح لهما من بعيد، جبل ممتد أفقيا لمسافة طويلة، فتدرجا من سفح أحد النجود، مضيا في طرق ملتوية، حتى وصلا إلى وادٍ قائم بين التلال الصخرية، حيث أراحا جمليها وكانا راغبين في المسير على الأقدام. جلسا على الأرض، بعد أن انزلا السرجين عن الجملين، وأكلا قليلاً من البلح الذي تجرعا بعده من ماء القربة، ما يكفي لدرء الإحساس بالعطش..

”اقتربنا من غايتنا فانتظرني هنا“

قال دقاش ذلك وهو ينهض متوجهاً إلى بقعة مجاورة،كان من المفترض أن يلتقي فيها أحد أتباع الشيخ أبوخيرة.. لاحقه صوت ود بندة:

”وما حاجتنا إليه؟“

هتف دقاش دون أن يلتفت:

”أنت تعلم أنني ينبغي أن أسلمك إليه ليواصل معك الرحلة“

كان ود بندة قد أِلف دقاش، ونشأت بينهما علاقة غامضة، فأحس أن لا أمان له إلا معه.. ولذلك لم يكن راغباً في تنفيذ هذا الجزء من الخطة.. بقى ود بندة وحده بعد أن تركه دقاش، ومضى ليبحث عن تابع أبي خيرة، فأخذ يتأمل سيرة حياته كلها، منذ الطفولة الباكرة وحتى هذه اللحظة، التي يمضي فيها كنبي طريد شريد..

كان يتأمل المستقبل وعلى مخيلته تتواتر الصور والأحداث كوقائع مجسمة.. كل شيء ينهض الآن في داخله بوضوح...

طرح ود بندة جسمه المنهك، على الأرض ونام.. لم يستيقظ إلا قبيل منتصف الليل بقليل، فتذكر دقاش الذي مضى يتفقد مكان لقاءه بتابع أبي خيرة، فداخلته الوساوس والشكوك..
وحدثته نفسه أن عدم حضوره حتى هذه اللحظة، سيحول دون عبوره إلى دار الريح ليلاً.. وظل هكذا منهوباً، منتهباً بالوساوس والظنون، إلى أن سمع قبل الفجر بساعة، وقع أقدام تبين فيها خطى دقاش...

"أعلم أنك تحبين برنسيس آن ولن تغادريها إلى أي مكان. لذا سأظل أبحث عنك هنا في هذه البلدة.. هنا في مقام حنينك.. لا أدري كيف تجردت عن ذاتك، وهربت بقلب تمزقه الوحشة"..
كان يناجيها من الضفة الأخرى للبكموك، وكانت بدورها على الضفة الأخرى تناجيه.. فلا يريان سوى الأخيلة، وظليهما اللذان يلقيان بنفسيهما، على المدى الرحيب الذي يفصل برينسس آن عن بكموك..

لم يتمكن دقاش من العثور على تابع الشيخ أبو خيرَّة، في المكان المحدد..كانا قريبين جداً من بلدة عامرة بالناس، فأختبأا بين الصخور، إلى أن حل الظلام، فسارا مسافة طويلة تبعدهما عن البلدة، ثم توقفا بعد أن نال منهما التعب والبرد، ليختارا فراغاً بين تلين صخريين متجاورين، أضافا إليه أحجاراً بحيث أصبح كالغرفة المغلقة من كل الإتجاهات.. دخل فيه ود بندة حاشراً جسمه حشراً، بينما مضى دقاش يبحث مرَّة أخرى عن تابع أبي خيرة...
حفر ود بندة حفرَّة عميقة في مغارته، تمكنه من مد ظهره، وما أن أراح جسمه حتى تدفقت الذكريات مرة أخرى، كأنها تطارده بمراراتها وخذلاناتها..

كان قد عقد العزم في كل الأحوال، على العبور إلى دار الريح هذه الليلة، سواء وجد دقاش تابع أبو خيرة أو لم يجده، فرغم كل شيء كان ثمّة ثقة وأمل بلا حدود، يملآنه ويحشدان داخله كل الطاقات، التي نمتها تجاربه الثرَّة لعشرات السنوات...

ربما يراها هنا في هذا الزحام.. تخللت نظراته أكداس البشر.. ربما يراها هنا في هذا الزحام، بين المصطافات على شاطئ أوشن سيتي.. ربما هي تلك التي في ثياب البحر الزرقاء.. لا، ربما هي هذه التي ترتدي المايوه البرتقالي..

كان يبحث في الأماكن التي لا يتوقعها فيها بالذات.. بنظراته العجولة، التي تحمل آلاف التساؤلات.. نفض عن ثيابه حبات الرمل ومضي يزرع شاطئ الأطلسي الرهيب جيئة و ذهابا...

ثمّة وجه بين الزحام.. وجه كوجهها، نظر إليه بسرعة وأشاح.. سار يتبع الوجه ببطء، غارقاً في ملامح وجه غلوريا المتنائية.. حالما شعر بنفسه يقترب من الوجه،كان الوجه قد إختفى في قلب الزحام.. ربما غطست في الماء.. ربما..

كان قلبه ينتفض بشدة خلف حجب "التخلي" والإختفاء المباغت!.. يطل وجهها كنداء غامض لغريق في بحر متلاطم...

لا يدري لماذا لا يشعر تجاهها سوى بالحب وحسرَّة الفقدان.. دون أدنى إحساس بالحقد.. يفترقان دون ضغينة أو غبن.. مضت إلى حال سبيلها، تحمل جزءً من كيانه معها. لم تترك خلفها سوى ذكريات حبيبة إلى النفس..

مع غلوريا، ورغم كل شيء، كان كمن يولد كل يوم من جديد..كان يولد في كل شئ: في زخات المطر التي تسيل على زجاج النافذة.. في أصص زهور الشرفة التي أعتادت سقياها.. في تماثيل الشقة التي أعادت ترتيبها كما تهوى.. في الضوء الحُلمي الذي يبقيانه وحده، بعد أن يطفئآ جميع المصابيح..كان يتوحد مع روح غلوريا، المتوحدة في كل شئ، فيشعر بنفسه كعصفور يحلق في المدى اللانهائي لحياتهما.. غلوريا هي هذا المدى الذي يحلق فيه..

إنتظر عودة دقاش عبثاً..كانت الشمس قد غربت، وبدأ الليل في الدخول متمهلاً، فبدأت تساوره الشكوك: لابد أن خبر هروبه قد ملأ دار صباح، وما تاخمها من دارالريح المترامية الأطراف، وليس كما تصورا.. لابد أن عيون أبي هلال قد أمسكت بدقاش...

وهكذا قرر ود بندة مواصلة الهرب وحده، فسار في اتجاه الصعيد المتحدر إلى دار الريح، في ظلام دامس، تزيد حلكته ما في مخيلته من وساوس وظنون.. ولم يتوقف عن السير إلى أن لاح نور الفجر..كان وحده وأفكاره المشتعلة ونور الشمس...

غلوريا.. هذا الجرح الغائر داخله.. ضمدته.. سيجته بإكسير حبها.. أحتملت مزاجه العصبي كثيراً.. "أولم يحتملها هو الآخر.. أولم يحتمل رعونتها وجنونها.. لماذا تركته تحمل طفله داخلها ومضت؟!"..

إحتملا بعضهما كزوجين، نبتت بينهما المغفرة.. نبتة خضراء مزهرة، لم يكفا عن رعايتها.. لم يتركاها تذبل.. لكنها مضت.. مضت دون أن تقول لماذا.. هكذا فجأة تحمل أفكارها وتمضي.. تحمل مشاعرها وتمضي.. تحمل دالي الصغير وتمضي.. ربما ليس دالي، أهو سحابة حمراء أخرى أم جلابي صغير.. لا يدري.. الكلس لم يعد يدري..كل ما يعرفه أنها مضت تحمل شيئا من ذاته المنهوبة...

بغروب الشمس، كان قد توغل في حدود دار الريح، فتأكدت له النجاة. ولم يعد يخشى شيئًا.. إنحرف بجمله إلى اتجاه الشمس، وغذ في المسير على القيزان، وبين الوديان الرملية والتلال الصخرية.. سار على تلك الحال يخب بجمله الأرض، زمناً لا يعرف مداه!..

تشرق الشمس وتغيب، فيستريح في مكان هو أرض قردود أحياناً، وحيناً رمل، وأغلب الأحيان غابة مبعثّرَة الأشجار، يبقى هنا وهناك زمنا قد يطول أو يقصر..

كان قد استعاد حيوية البرية التي فقدها منذ دخلت حجب النور عالمه، فقذفت به إلى عالم أبي هلال.. هذه الحيوية المستوردة، ساعدته على البقاء حيا في هذه الأماكن المتوحشة، بل يشعر الآن بالأُلفة مع كل ما حوله، لا يؤرقه شيء سوى أن يجد مارتجلو.. الشلال.. مملكة العزلة..

إنها الغربة.. هذا السوس.. هذه الأرضة بخطاها التي تزحف وئيداً وئيداً، تتسلل دمه، تنخر نخاعه فيستحيل.. هو الكلس.. إلى شيء عتيق، كمخطوطاته.. شئ رَّث كهذه المدونات، التي تنضح بعوالم بائسة.. عطنة كرائحة الشعراء، كرائحة التاريخ، كرائحة هذه الكتب التي تضج بأحوال الناس والمكان، دون وقار، دون خصوصية، دون حماية للأسرار، التي شكلت الانهيارات المتتالية والمدوية، للناس والأماكن، وتحولات الحجر والشجر.. يتجلى الضمير الإنساني كسيل عات، يجرف كل شيء بعيداً بعيداً، فيلوح في أفق هذا الهلاك المريع أن كل شيء يوشك على التلاشي، في ذمة التاريخ...

عند غروب الشمس وقف عند مدخل الدغل..كان لفح الريح القاسي يتبدد أمام احساسه بالانعتاق، عن عوالم أبي هلال الملأى بالخيالات المرعبة والكوابيس.. الآن يغادر عالم أبي هلال الضباب، إلى غير رجعة.. غادر مدخل الدغل وهو يستنشق هواء الوادي بعمق، وسار منحدراً مع وادي دوماية، دون توقف، متخللاً المنحدرات التي تنهض على جانبيها أشجار القبيل، والقنا وصندل الردوم...

تفقد ود بندة الوادي، فرآه خلواً من الناس، فأسرع ليروي ظمأه من المشيش.. أنزل السرج عن الجمل وتركه يرعى في الوادي.. مد جسمه تحت شجرة قمبيل طاعنة في السن..

كان يتبع حدسه، يخالجه شعور خفي بالوصول، إلى محطته الأخيرة.. والشعور بإسترداده حريته يتنامى.. نام.. عند غروب الشمس أفاق على حركة حوله..كان شخصاً بوجهٍ أليف، يقف فوقه يتفرس فيه أثناء نومه.. نهض.. تبادلا التحية. قال الرجل:

"ليس من عادتنا في الشلال سؤال الغريب.. تبدو كالخارج للتو من متاهة عظيمة؟"

فحكي له ودبندة عن متاهة دارصباح، فلم يبد عليه أنه سمع بأبي هلال ودولته من قبل، إذ إكتفى بالقول:

"أنت في أمان الآن، كل من يدخل الشلال فهو آمن.. أنا أبوشوك وهذا مرين حفيدي.. وأنت الآن ضيفا علينا"

وللمرَّة الأولى يلحظ ود بندة الصَّبي الصَّغير الذي بصحبة الرجل، والذي كان قد إختبأ خلف فروع القمبيلة، فلم يبن سوى وجهه..

مضى ثلاثتهم في طريق جبلية خلف أدغال القمبيل، أفضت بهم إلى درب بدى أنه نادراً ما يتعرض لخطى السابلة.. انتهى بهم الدرب إلى حيث يخيم أبو شوك وحفيده..

"هذا المكان إسمه شوف العين وهو متاخم للشلال.. أحب الصيد فيه قال"

أبو شوك، وهو يجمع لدايات الحجارة، ويضع عليها الأعواد الجافة، ثم أخذ يحك أحد أعواد الأندراب بحجر صوَّان، مشعلاً النَّار.. ثم أسرع بعد ذلك باحضار أرنبين ودجاجة وادي، يبدو أنه كان قد اصطادهم وجهزهم قبل أن يعثر على ود بندة..

قضيا سحابة ذلك اليوم يتسامران حول دار صباح، ودار الريح ووقائع أحداث ما جرى لود بندة، وأحوال الناس والمكان في دار الريح، وهذا المكان

"شوف العين"..

أحمد ضحية

برينسس آن، ميريلاند

2009 - 2008

أحمد ضحية

بلدة الأرباب

"الجُزءِ الثاني من ثلاثية المواطن عابر السبيل"

رواية

إهداء

إلى روح جدتي جادينة جانو،

حنين دائم لتلك الليالي المقمرات،

ونحن نغرق على رشفات الحليب الدافيء..

في حكاياتها المترعة بالشجن عن: الوادي

والأمكنة والليل والقمر والمطر..

أحمد

أنا أعرف كل شئ، إلا نفسي!

فرانز فانون

القسم الأول:

١

حدق"أبو جريد" عميقاً في عيني"مسك النبي" يحاول أن يمسك ببصره، رموش عينيها اللتين أنكفأ جفناهما، على الأفق السحيق.. انطويا على الطبيعة، التي بدأت تتغير حولهما.. بدت السماء الزرقاء معتمَّة، والصَّمت الذي يسبق العاصفة يخيم شيئاً فشيئاً، منذراً بدوامة من أحاسيسهما وأحاسيس الوادي، التي تشد كل شيء بعيداً بعيداً..

دنا منها قليلاً، فلم تحرك ساكناً.. كانت إحدى كفيها على حجرها، وكفها الأخرى تنبش الرمل حيناً وتخط عليه خطوطا وأشكالاً متوترة، حينا آخر.

كانت السماء حولهما قد أظلمت تماما، وأوحى الجو بنذر عاصفة، بدأت تتشكل داخلهما.

أخذت الريح تهب خفيفة،ولا تخلو من ذرات الغبار العالقة في الهواء، ثم أخذت تشتد وتقوى، وقد بدى صوت تساقط أوراق الشجر الجافة، والأغصان اليابسة الهشة، واضحاً يطرق أذنيهما كسندان.

نهض أبو جريد.. أمسك بمسك النبي من وسطها، يجذبها إليه.. ليحتميا تحت شجرَّة قمبيل هرمة.

أخذت البروق والرعود تضئ الدَّغل بلمع خاطف، متقطع بين حين وآخر، ثم توالت الرعود تصم الآذان، ومع أول رعدة داوية، انكفأت مسك النبي، في أحضان أبو جريد كطفلة صغيرة مذعورة.. كأنها لم تعد مسك النبي.. تلك الفتاة المتوحشة، التي عاشت الوحدة والوحش، بهذا القفر لوقت طويل، فمنذ دخل أبو جريد عالمها، تغيرت عاداته، وانقلبت حياتها رأسا على عقب، فلم تعد هي.. هي ذاتها...

اختبأت عميقاً في أحضان، وهو يربت على ظهرها بلطف، وكلما أشتد الرَّعد التحمت به أكثر..

كان ذلك محض ذكرى بعيدة، لا تفتا تداعب خواطر الأشرمين، منذ انتقلت والدتهما مسك النبي، إلى الجانب الآخر من الهاوية، فشيدا لها ضريحا في"دريب الريح" وغادرا المكان إلى"دار صباح" في الوقت ذاته الذي كانت جيوش دار الريح ودار صباح، والصعيد والسافل، المتحالفة تداهم "بلدة الأرباب"..

اجتاحت الجيوش المتحالفة بلدة الأرباب، بعد أن أسقطت كل حواضرها، واحدة تلو الأخرى، ذات فجر غريب، بدى غامضاً منذ لحظة انبلاجته الأولى.. فجر بدى منذراً بحوادث وصروف، لم تخطر على بال "أبو جريد" ذاته طيلة حياته، التي أنفقها في تأمل النظام والكون، وسلطة الجسد العاري، لتتكلل حياته في النهاية، بالقتل مسموماً بسم ثعبان "أبو الدرق" القاتل..

هكذا انتهت مسيرته العامرة بالحيوية، والقلق والتوتر والحكايات العاطفية التي لم تتم، على نحو مأساوي -كان متوقعاً منذ وقت طويل، لكنه تأخر كثيراً- ظل يثير الريبة، لوقت طويل، ولم يجد له الكلس تفسيراً منطقياً، يتسق وتسلسل وقائع علاقته بالارباب كما، كما دونها دبك في مدوناته الملفقة!..

فأبو جريد ببصيرته الماكرة، كان يريد صياغة "بلدة الأرباب" على نحو كوني، يجابه به تلك التطورات التي أدت في "دار صباح" إلى إستعمار الناس، واستيراد المزيد من الجماعات الإثنية إلى أسواقها، دون تقسيم محدد أو واضح للعمل، أو إعطائهم الحريات الكافية، التي تمكنهم من أن يكونوا ذاتاً كغيرهم في مجتمع دار صباح المنغلق، الفج إلى حد الرثاء.

لذا كان أبو جريد يتصور بلدة الأرباب كمشروع كوني، يقوض الأسس التي نهضت عليها دار صباح، و توابعها في مشرق الشمس ومغيبها وصعيد النهر وسافله..

هدمت الجيوش المتحالفة كل بيوت البلدة، ووضعت الأرباب العجوز الماكر في خازوق، تحت "عرديبة الدود " بعد أن عرته و اقتلعت عينيه من رأسه.

أحرق جيش المتحالفين مع الهلاليين بيت الأرباب وقبته، التي كانت وقتها ترقد داخلها "تاجوج" طفلة "ود النمير".. وبعد أن خوزقوا الأرباب، وأحرقوه.. مضوا فاحرقوا "عرديبة الدود" التي اجتثوها من عروقها. وردموا الأودية الثلاثة، ولم

يبقوا حتى على مفرقها، وأحرقوا الدغل المتكاثف في "عرين الوحوش".. وهكذا أصبحت كل أرض البلدة جرداء، كأن بلدة الأرباب لم تكن يوماً واقعا متجسداً!.

فعلوا كل ذلك في لمح البصر.. وكأن جنوداً من الجن تحارب، وتخرب وتحرق معهم. ثم قتلوا كل الرجال .ولم يأخذوا معهم أي غنائم أو أسلاب، سوى غطاء الكنداكة ورحط عرسها بأحد حواريي المسيح -كما زعمت مدونات دبك- وبعض النساء الجميلات.

كانوا وهم منسحبون بالنساء الأسيرات، حريصون، على إحراق كل ما نسوا إحراقه، أو لم تصله نيران الحرائق، التي أشعلوها في كل أركان البلدة.

وهناك عند منتهى "دريب الريح" حيث مقام "مسك النبي" العرافة العجوز، صاحبة القهوة، أوقفوا حشودهم، لتقسيم الأسيرات بين جيوشهم المتحالفة.

ولجمال فاطمة السمحة الفتان اختلفوا عليها، اختلافاً كاد يفضي إلى سفك الدماء بينهم، إذ كل فريق منهم، أرادها أن تكون من نصيبه. فنهض عمدة "الصعيد" و"السافلل"وانتحيا ركناً قصياً يتشاوران.

جاءا بعدها مع بعض فرسان الهلاليين ودارالريح، ونادا بفاطمة من بين صفوف الأسيرات، فلما اقتربوا منها، طعنوها طعنة رجل واحد، في ثمرَّة الفؤاد تماما!.

ماتت فاطمة السمحة -وربما لم تمت، فقد رآها الجميع تحلق فوق رؤوسهم، ولا يزال دمها دافئاً، ينقط على وجوههم المذهولة- واندثرت بلدة الأرباب، التي أبدا لم تكن يوماً مكاناً دافئاً. يأوي إلى حضنه الأهالي!.. فهي بلدة مضعضعة. شيدت من الدم والدموع، وأوهام جانو قرمط كأحد أكبر كوابيس الغربة والحنين.

وبعد عشرات السنوات. ستنهض مكانها بلدة أخرى، تستمد أسباب وجودها من ذاكرة المكان، حيث كانت الأرباب يوما، يمضي فيها التاريخ على نحو دائري، فتتكرر الأحداث والشخصيات والوقائع..

بلدة الأرباب مع ذلك نهضت في النظام، محتشد الموارد والقدرة الباطشة.. النظام الغني إلى حد الفشل والإخفاق وإثارة الرثاء أو السخرية.. فكان من الطبيعي، ألا توجد موارد معارضيه إلا داخله، غير أن الأرباب كبلدة مركزية -لا بالنسبة إلى حواضرها فحسب، بل هي متمركزة حتى بالنسبة للديار الأخرى- عملت على أن لا يكون ثمة ما هو خارج لها، إلا بقدر ما يمكن أن يكون في الديار الأخرى، التي تطمح للاستيلاء عليها!

ولذلك رغم سطوتها على أهالي الأرباب، كانت سلطتها خفية لا ترى، إلى درجة الزعم بأن لا وجود لها البتة!...

ذلك أن الأرباب -إستلهاماً لأفكار أبو جريد وجانو قرمط من قبل- جعل خيطاً رفيعاً وحسب: هو الذي يفصل بين هيمنته، وحرية أهالي الأرباب، فلم

يستشعر أحد، أي شكل من أشكال المركزية، في بلدة الأرباب رغم المشاعر الغامضة، التي تتناهبهم، بأن بهذه البلدة ثمة أمر غريب.. غير مألوف. يضرب سياجاً من الرقابة، على كل شيء حولهم. بعد عشرات السنوات، ستنهض مكان هذه البلدة المسماة "بلدة الأرباب" بلدة أخرى باسم آخر -لا يزال في رحم الغيب، أو أن ذاكرة النسيان طوته- لكن سيظل دائماً محور تفكير العابرين، بذاكرة الأرباب، هو تلك المرحلة المهمة، من تاريخ الجغرافيا التي نهضت فيها البلدة، و مراحل الحياة المتعاقبة على هذه الجغرافية، حيث يتوقفون -هؤلاء وأولئك العابرون على ذاكرة الأرباب- عند مرحلة بلدة الأرباب ذاتها، هذه المرحلة الوسيطة، المعزولة والغامضة، من تاريخ البلاد الكبيرة، التي تعتبر الأرباب جزء ضئيلاً جداً منها.

وهكذا يظلون يطرحون أسئلتهم العديدة، دون أن يحصلوا على إجابة واحدة مؤكدة. سوى أن هذه الجغرافية، المدعوة بالأرباب، تنهض الحياة فيها وتندثر، ثم تنهض مرة أخرى نابضة بالحياة، وهي تحمل اسماً، غير الذي حملته عبر آلاف السنين.. اسم "بلدة الأرباب" برجالها الذين يتسمون بوسامة خبيثة، ونسائها ذوات الجمال الشرير، وأرواح سكانها. كل سكانها.. أرواحهم المسمومة..

لم تكن بلدة الأرباب قد فرغت بعد، من بناء نفسها كأمة واحدة، عندما بدى العالم الذي يمدها بأسباب البقاء يهتز ثم ينهار..

لم تكن قد فرغت من تشبيك نفسها كأمة واحدة، من هذا الخليط غير المتجانس، الذي يكوِّنها: خليط الأرقاء والمنبتين والجواري والمجرمين وما تبقى من أتباع جانو قرمط، الذين افلتوا من قبضة سلاطين "دار الريح" و"الصعيد" و"السافل" و"دار صباح".. هؤلاء الذين توافدوا من كل هذه الأماكن، وشكلو الخليط، الذي كوَّن النسيج الإجتماعي، لبلدة الأرباب..

كانوا مهدَّمين في داخلهم، إذ إمتلأت جوانحهم بالشروخ والإنهتاكات، ولذلك لم تتسم بهم بلدة الأرباب بالخلود، كالنقش الذي على ُجدُر كهوف "عين فرح" أو "البر كل" أو معبد الكبش بوهين.

لم تتسم الأرباب بالخلود، كالحضارات التي تعود لآلاف السنين، فقد كانت بلدة مضعضعة، غير مستقرة، مأساوية الطابع، يعصف بها الشقاق والحنين، ولذلك فان كل شيء فيها، كان عابراً وهشاً وغير موثوقاً تماماً! ..

ليس ثمة رسوخ يسم أي نوع من أنواع الحياة فيها: لا زواحفها أو طيورها وحيواناتها، وكائناتها المائية ولا إنسانها، كل شيء فيها كان سريع العطب، وعرضة للفناء على نحو غير مألوف.. حياته قصيرة، سريعة التبدد والزوال. فالأرباب ليست حضناً يتم الإيواء إليه بحميمية، وليست وطناً يلتمس فيه الدفء. فهي محض مكان مضعضع، ومبهم وغامض، شيد من عجين دم "أبو جريد" الصغير، وذكريات الخيانة والهروب..

”تاريخ الأرباب هو تاريخ الغزوات التي تعرضت لها!“

تنهد أبو جريد بعمق وهو يلقي بكلماته الأخيرة، محاولا تقيؤ السُّم من أحشاءه. هكذا إذن كانت الأرباب، غريقة في ظلمة غير محسوسة.. ظلمة تلف روح أبو جريد المغادرة للحاق بأسلافه، بغلالة خشنة. شكلت من فلسفته ونمط الحياة والعمل. وطريقة الرؤية للأشياء، والاندماج في المجتمع.. الرؤية التي أرادها للأرباب يوما.. ليرتاح أخيراً من كل عذابات هذه الحياة، الأشد قسوة من الموت!.. هذه الغلالة الخشنة غير المحسوسة كظلمة الأرباب، هامت بروح أبو جريد إلى كهفها السحري. المرعب، بظلماته التي بعضها فوق بعض، لتضع هذه الروح المعذبة بين ذراعي أبي جريد الكبير وجانو قرمط . تاركة جثمانه، للأرباب ليضعه في مثواه الأخير عند عرديبة الدود.

الأرباب التي أرادها أبو جريد، ليست مجرد بلدة، فهي حالة انتماء إلى نمط جديد في الحياة، حيث تختلط الشعوب وتتقارب الإثنيات، وحيث يمكن للمرء أن يولد من جديد. أنه العالم الجديد، الذي نهضت على أنقاضه أخر الممالك القديمة، في مواجهة البلاد الكبيرة -التي يقودها هلاليون دار صباح- ذات الوجه التاريخي الموغل في القدم.

فالأرباب هي نموذج مختصر، وكون مصغر عن كل البلاد الكبيرة.. والأرباب نفسه الذي أسسها بمساعدة أبو جريد، كان يدرك الطابع المؤقت، والسريع

العطب لحياة بلدته. ولم يستطع التوصل أبداً للأسباب. التي تقف خلف هذه المشكلة.

ولكن لم يكن ثمَّة شيء يمنعه من دفع الأهالي، للأخذ بهذه الحياة المؤقتة، حتى النهاية، فقط أن يأخذوا منها في إطار طوائفهم، لتي تمثل نظام تفكير الأرباب المعدل، عن جوهر فلسفة جانو قرمط وأبو جريد..

عندما أشتد ساعد الأرباب بهذه البلدة، بمساعدة أبو جريد، وتجمع الفارين من مغارب الشمس ومشارقها، ومهبط النهر الكبير وصعوده، وتجمعت طائفة أبو جريد الهاربة، من مشانق "القِبَل الأربعة" ولاذوا بالأرباب -التي وقتها كانت فكرة للتو، في خاطر أبو جريد- كون الأرباب من كل هؤلاء وأولئك نواة جيشه، ووضع على بوابات البلدة، الناشئة لتوها حامياته.

وهكذا بدأت معالم البلدة تتضح، كطموح لن يلبث أن يسفر عنه الغزو المتتالي، للصعيد والسافل ودار الريح ودار صباح، والاستيلاء على أراضي واسعة، باتت حواضر تابعة للأرباب العاصمة.

بلدة الأرباب من دون كل بلدات البلاد الكبيرة الأسيرة، ظلت غير مكتشفة من قبل علماء الجغرافيا والتاريخ، وموظفي الإحصاء وخطط السكان.

وعلى الرغم من أن العديد من الرحالة الأجانب مروا بها، ومكثوا فيها حينا من الدهر، وعاصروا فيها الكثير من الأحداث، حتى أن أحدهم روى -على ذمة دبك-:

"أنه في إحدى الشتاءات الغابرة، جاء الفرنسيون والإنجليز والإيطاليون، تحت قيادة المقدم "مول" والنقيب "كاريو فيقينشو" قائد الفرقة السنغالية، من جيش المستعمرات، إلى تخوم بلدة الأرباب -والتي حينها لم تأخذ هذا الاسم، فقد كانت وقتها حاضرة مملكة غابرة، لطالما عرفت بمارتجلو أو الشلال -جمع سلطان هذه المملكة جيوشه، وأرسل للجيش الغازي يستفسره، لكن كاريو لم يرد، بل زحف إلى الوادي الأوسط، متوغلاً شرق البلدة، بعد ذلك جره السلطان إلى الحرب، فقد أمر أتباعه ببناء "رواكيب" في الوادي، تحت شجرة جميز كبيرة، تقع على شط الوادي شرق البلدة.

نظم السلطان جيشه من المحاربين، حملة الحراب، ثم كمنوا في أشجار الوادي، ثم جاء فوقف محاربيه مستعدين للقتال، في صفين وسط مجرى الوادي. قال السلطان:

أنا أول من يطلق النار على هذا الكافر. حضر فينقيشيو ماداً يده للمصافحة، وبدلاً عن مصافحته أشار إليه السلطان، إلى "الرواكيب" تحت شجرة الجميز. ذهب

كاريو فينقيشيو إلى "الراكوبة" ودخلها فلم يرى سوى أرجل الطير، ولم يكن هناك ما يدل على الضيافة، فخرج ورمى بقبعته أرضاً، وأمر جنوده بإطلاق النار.. وقبل أن يطلق الجنود النار، أطلق عليه السلطان النار، فارداه قتيلاً وهجم رجال السلطان بحرابهم، على الجنود واعملوا فيهم قتلاً وطاردوهم حتى غرب الوادي، ولم ينج منهم سوى ثمانية.."..

كانت هذه أول وآخر حروب هذه الحاضرة، إذ تمكن الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين، من إبادة سكانها فيما بعد، وصارت مهجورة، إلى أن لجأ إليها "أبو جريد" مصطحبا الطفل الأرباب، فبدأت تدب فيها الحياة من جديد. بعد أن كانت مهجورة لعشرات السنوات.

المفارقة أن خرائط الرحالة، التي رسموها للبلاد الكبيرة ومدوناتهم، أغفلت هذه الجغرافية، ولم تشر أبداً للموقع الساحر، لبلدة الأرباب أو تاريخها العريق.

هذا التاريخ و الموقع الناهض في قلب العزلة، بطبيعتها الملونة، حيث يجتمع بريق النجوم، مع صفاء سماء الظهيرة. هذه الطبيعة التي استمد منها "ود النمير" رفضه، للوضع العبثي الذي صاغ عليه الأرباب البلدة.

فود النمير عندما أحب "فاطمة السمحة" كان كالخارج للتو من نفق، يتلمس حدود وعيه الكامن، ويتحسس حدود العالم، الذي سجنه فيه الأرباب، فحول حياته بذلك إلى حلقة مفرغة.

اللحظة التي أحب فيها ود النمير فاطمة -وفقا لدبك- إذن، هي اللحظة ذاتها، التي بدأت تتلاقى فيها فتاتات طفولته، التي أغرقتها بلدة الأرباب في كوابيسها المرعبة..

وهي اللحظة ذاتها التي أعلنت فيها القدرة الكونية، بداية النهاية لعصر من الإرتخاء والناس الهلاميين. ففتاتات طفولة ود النمير، بمثابة فتاتات أهالي البلدة وسقط أشجانهم. حيث تنهض هذه الفتاتات الآن ككتلة واحدة، تقاوم أنين الأهالي الذين لطالما -عذبهم ود النمير شخصيا- بإيعاز من عيون الأرباب أو طائفة العميان، دون أن يخالطه أي شعور بالأسى أو الذنب.

الآن فقط يحس شيئاً مختلفً، فيدرك عبثية حياته بالأرباب. ويدرك أكثر من ذلك، إذ يرى أن أزمة بلدة الأرباب، تكمن في إمكانية إستمرار التواصل، التي دونها العقبات والعوائق، ويرى بعيون مفتوحة، فارقها العمى الذي حكم حياة الأرباب، يرى ويدرك لأول مرَّة، ومن قلب خوائه الموحش. أن أهالي الأرباب إنما وحدهم البؤس..

بؤسهم الذي يدفعهم الآن للبحث عن منقذ، بعيداً عن أوطانهم وبيوتهم، بعيداً عن الحنين الذي يعشش داخلهم، ذلك الحنين إلى كائن أخر.. إلى أرض البلاد التي يحلمون بها -تلك البلاد المتوهمة، التي لا وجود لها، والتي رغم تشدق دبك بها كثيراً، لا يملك فكرة واضحة عنها- إلى الماضي، بعيداً عن عبثية الأرباب،

التي ظلوا يعيشونها مرغمين. كانوا كعاشق يتعلق بصورة وهمية، فقط لأنها الشيء الوحيد المتاح له..

صورة وهمية رأوها في حلم عابر، لكن قوي، فلاذوا إليه هاربين، يبحثون عنه، بين ظلال طفولاتهم، الغارقة في الوهم.. عندما التقت عينا ود النمير بعيني فاطمة، أدرك كل ذلك وأكثر، فأصيب بالسهر والحمى، وجعل جسده يرتعش وتفكيره كالمجذوب، كان لحظتها يعيش تمزقا عظيماً، سرعان ما سيتبدى عنه ود النمير آخر. ود النمير الراغب في حياة أخرى، غير الحياة التي ألفها في الأرباب.

٢

كانت البلاد الكبيرة في بدايتها، تشتمل على عناصر دولة عظيمة، لكنها أبداً لم تنجح في بناء هذه "الدولة التي كالحبيبة الحُلُم" من عناصر الثقافة والثروات والسكان التي أغتنت لها.

فظلت هذه العناصر متشرذِّمة على نفسها، في دار الريح والصعيد والسافل، ومثلت دار صباح مركزاً خبيثاً، يسعىٰ للسيطرَّة على دار الريح والصعيد والسافل.

تعاقب على دار صباح سلاطين وملوك وعمد وشيوخ وزعماء طوائف، توحدت إرادتهم في سحق كل ما عداهم، ومن هنا أغلقت الديار الأخرى نفسها عليها، ووضعت متاريسها للحؤول دون هذه الهيمنة، وقتها كانت الطائفة الجريدية في دار صباح، قد تجاوزت المحن التي ظلت تلاحقها، منذ حياة جانو قرمط. فاشتد ساعدها، ومضت تحفر عميقاً، تهيئ نفسها للحلول محل هؤلاء العمد والشيوخ، وزعماء الطوائف الذين لم يكونوا يملكون مشروعاً واضحاً، إذ كانوا أشبه بحالة متمركزة من التبدد والزوال، المرتقب في أي لحظة، متى وجد قوة واسعة النطاق، وكافية لدفعه تجاه هذا التبدد..

تجاه هذا الزوال...

ولكن زعماء الطوائف أدركوا ما تخطط له الطائفة الجريدية، التي انبثقت من بين طوائفهم المتباينة، لتكون نفسها كطائفة هجين، تنطوي على توجهات كل الطوائف في دار صباح. وهكذا قوبلت الطائفة الجريدية، بتحالف سلطة الزعماء والعمد والمشايخ، وجوبهت مجابهة قاسية انتهت بتفكيك صفوفها.

لكنها لم تلبث بعد مضي وقت ليس بالقصير، أن خرجت من ذكريات القمع والبطش الذي جوبهت به. ضمدت جراحاتها مرة أخرى، وشكَّلت نفسها من جديد في بلدة الأرباب، لتبدأ زحفها من هناك.

بلدة الأرباب مثلها مثل كل الممالك الغابرة، في البلاد الكبيرة، خرجت من الجغرافيا إلى التاريخ، لتعود مرَّة أخرى إلى ذاكرة الجغرافيا، دون تأريخ لحياتها القصيرة.

على الرغم من شمولها على مقدار خرافي من الشر والألم -اللذان ينالان إعجاب المؤرخين واهتماماتهم- بحيث يكفي -هذا الشر والألم الذي ينضح به ترابها- أن يكون مصدراً للإحساس بكل أوجاع البلاد الكبيرة، متخطياً الأرباب ومحنها..

ومع ذلك الأرباب بلدة بالغة الروعة والتعقيد، بدءً بالطقوس التي كان يقيمها أبو جريد كل عام، بعد خروجه من خلوته، فيما أطلق عليه "ليلة الأنس الكبيرة" والتي تمتد إلى أسبوع، لتنتهي بالاحتفال مع جمهرَّة من النساء الجميلات، المعطرات بخلاصة الرَّيحان البّري، والمسك والزعفران.

النساء أنصاف العاريات إلى حد إشعال النيران واسعة النطاق، في أفئدة الحضور والغائبين.. كن يحتفلن مع الرجال المتعبين بعريهن في الحديقة الغناء، التي أقامها أبو جريد خصيصاً لهذا الغرض، أمام قبته مباشرة، يذوبون في أشواق بعضهم، فيتداخل همس الرغبة، مع ظلال همس الأشجار والبخور الذي يجعل عريهم جميعاً ضبابيا، فلا يبين سوى إيقاع الدلوكة الخافت. والتنهدات التي تعلن استسلام أبوجريد والأرباب وحيرانهم، إلى نساؤهم المتعطشات.

الدخول إلى الأرباب، يعني ولوج عالم لا يعترف بالاختلافات أو الحدود، أو الخصوصية ومع ذلك هو عالم مغلق على خصوصيته.. خصوصية أبو جريد المؤسس الفعلي للبلدة، التي تسعى للتجرد من الحجب الجثمانية للارتقاء في مدارج الروح، إلى الوطن السماوي حيث الرؤى الخالدة، التي تمثل الأرباب حداً أدنى من مظاهرها. وتجلياتها -كما كان أبو جريد يتصور دوماً، دون أن يخالطه شك أو ريبة- عبرَّت بلدة الأرباب عن طموح أممي،كوني، جعلها هدفاً لهجمات هلاليون دار صباح ودار الريح والصعيد والسافل، إذ ركزت في بداية منشأها، في عهد أبو جريد، على اتفاق المصلحة بين الفقراء ضد الأغنياء.. أولاد البحر "الأشراف المزعومين".. بغض النظر عن أصولهم الحقيقية، الضاربة في سواد الممالك الغابرة للبلاد الكبيرة.

وكان هذا الإتفاق. نتيجة إلحاح الضغط المتعاظم، للتطورات الاقتصادية والاجتماعية في دار صباح، والتي أنتجت حالة الثورة، التي اعترت دار الريح والصعيد والسافل..

فكانت الأرباب أحد ردود الفعل الأكثر قوة،كموقف من هذا الضغط، من هنا نشأت كملاذ لاحتواء المنبتين والفقراء، فقدمت الدعم للفلاحين الذين استقطبتهم عبر طائفة أبو جريد، ولم تلبث أن سيطرت بقوتها كلها، على التجارة

مع دار الريح والصعيد والسافل ودار صباح، وألحت على تحقيق إكتفائها الذاتي، فعززت ذلك بضرب عملة من الرصاص، لمنع انتقال الثروة إلى خارجها.

وهكذا شكلَّت الأرباب علامة احتجاج فارقة، على الوضعية التي كانت عليها البلاد الكبيرة، في أزمنتها الغابرة المتعاقبة، والتي لن تعود إليها أبداً، حتى بعد أن تقضي بتحالفاتها على الأرباب.

بلدة الأرباب هي شبه جزيرة، تقع بين ثلاثة أودية يحكمها فعلياً "الفقير الأرباب" الذي هو مصدر كل السلطات، حتى أنه يعين العمدة ويعزله، أو يقتله، دون أن ترتفع نبرة احتجاج واحدة.

ولد الأرباب طفلاً غير شرعياً، عندما اكتشفت أمه أنها حاملاً به، أخبرت والده المحتمل عمدة دار الريح، فاضطر للزواج منها، رغبة منه في عدم رمي لحمه السيادي ودمه النبيل، على قارعة الوديان.

ومنذ ولادته "الأرباب" فصلته أمه، وجعلته في عزلة تامة، عن والده حتى لا تقع عينيه عليه، فينكشف أمرها الذي حرصت على إخفاءه.

واستمرَّت تفعل ذلك، حتى بعد أن أنجبت للعمدة أبناء آخرين، إذ ظلت تفصل الأرباب، بعيداً عن الأب، وتكتفي فقط بعرض أبناءه الآخرين عليه، محتفظة بالأرباب "ثمرة حبها لأبي جريد" بعيداً لنفسها، فقد كانت تحبه كثيراً، لكن لم

يكن ذلك هو السبب، فقد كانت تخشى عليه من العمدة، لو اكتشف انه ليس ابنه!..

إصرارها على إخفاء الأرباب عن والده، جعله يغضب ويثور بعد طول احتمال، ويصرخ في وجهها:

"هذا الطفل الذي تخفينه عني، عندما يكبر لن أقدم له أسراري"

وهكذا أصبح الأرباب محروماً من أسرار السلطة إلى أن منحه أبو جريد كل معارفه وأسراره، و"حجر كوتو المقدس" ومرآته السحرية، إلى جانب رماد جمجمة جانو.

منذ أن ولد الأرباب، كان أخوته غير الأشقاء، من عمدة دار الريح يكرهونه، وظلوا يحاربونه.. وعندما استشعرت الأم الخطر المحدق بإبنها، طلبت من عشيقها أبي جريد والد الطفل، أن يأخذه بعيداً عن دار الريح، حيث يكون آمناً.

ولحب أبو جريد الشديد لها -والذي كان قد فرغ وقتها من ترتيب أمور طائفته، في دار الريح موكلاً أمرها للفقير الفلاتي يعقوب- أخذ الأرباب وهرب به قاصدا المكان الوحيد، الذي استشعر انه سيكون فيه بمأمن عن كل أذى!.. مكان قديم وحميم إليه..

كثيراً ما كان يختلي فيه، لممارسة بعض طقوسه على مقربة من دار حبيبته "مسك النبي" عند ناصية في منتهى دريب الريح، الذي يفضي إلى شبه الجزيرة،

هي المكان الذي سيصبح فيما بعد "بلدة الأرباب" -حيث شيدا معاً أبو جريد ومسك النبي، مقهى للعابرين، وأقاما سعيدين إلى أن تركها ومضى إلى دار الريح- وهكذا قصد أبو جريد بالأرباب، شبه الجزيرة، وهناك إعتنى به..

وراح يغذيه بالأفكار والطموح وأسرار "جانو قرمط" إلى أن اشتد ساعد الأرباب، وشعر أبو جريد أنه لم يتبق شئ آخر، يمكنه أن يقدمه إليه، فمنحه آخر شيء يملكه: "حجر كوتو المقدس" الذي ورثه عن أسلافه "أتباع جانو" الذين كانوا قد ورثوه بدورهم، عن جدهم الكبير، عندما جاء من الجنة إلى دار صباح، ليحميهم من شرور الناس وشرور أنفسهم، ويهبهم السلام الداخلي!..

هذا الحجر المقدس، الهارب إليه يأمن العقاب.. قال أبو جريد وهو يمد الحجر للأرباب. وما أن حصل الأرباب على حجر "كوتو" ومرآته، حتى دس سم "أبو الدرق" لأبي جريد، وهكذا أصبح الحاكم المطلق على البلدة، التي أخذت إبتداء من هذه اللحظة تحمل اسم: "الأرباب" وتتوسع في كل ما جاورها.

طيلة وجوده بشبه الجزيرة، لم يفكر أبو جريد يوماً في أن يعرج إلى دريب الريح، ليستعيد الشجن القديم، حيث مسك النبي عند ناصية الدرب.

وكلما هاجه الحنين، قتله بمزيد من الطقوس، في عرين الوحوش. وكانت مسك النبي نفسها، قد أصبحت تراه كذكرى حُلُمية بعيدة، كأنها لم تكن حقيقة

واقعة يوما، فقد تآكلها الخوف عليه، في الأيام الأولى لرحيله، ثم ما فتئت تحن إليه بين آن وآخر، ثم نسيته تماماً أو تناسته..

ولم يعد ثمة شئ يذكرها به، إلا اللحظات النادرة، التي تنظر فيها متأملةً شرمتي إبنيها التَوءَم!

فصل الأرباب رأس أبو جريد عن بقية جثمانه، وقام بدفن بقية الجسد، في منطقة غير مطروقة من شبه الجزيرة..

وحنط رأس أبو جريد، وأخفاه في مخدعه. وكان بين آنٍ وأخر يخرجه، ليناجيه، فاكتشف أن الرأس إمتلأ بالدود، فحمله في موكب مهيب، ودفنه في قلب البلدة، ولم تمض سوى أيامٍ معدودات، حتى امتلأت تلك البقعة بالدود، الذي لم يلبث أن اختفى، ونمت على نحو مباغت شجرة عرديب عملاقة محله -يرجح دبك لأسباب غير مفهومة أن هذه الشجرة كانت شجرة حراز وليس عرديب، لكن الكلس لأسباب غير واضحة يميل أكثر إلى كونها عرديب- إذ صحا الناس من نومهم ذات يوم، ففوجئوا بشجرة عرديب خضراء كبيرة، في المكان الذي دفنت فيه جمجمة أبو جريد!

لم يجرؤ أحداً من الأهالي على التساؤل، عن الكيفية التي قضى بها أبو جريد، أو المواضع الحقيقية لجثمانه -الذي مزقه الأرباب أشلاء، كما ذهب بعض أصحاب

الخيال المرح- فقد كانوا جميعاً يخشون سطوة الأرباب، بجنده الكواسر الذين كانوا يتزايدون يوماً بعد آخر.

بعد أن تمكن من إنشاء عدد من البلدات حول بلدته، أعاد الأرباب تقسيم البلدة من جديد، فأجرى تعديلات حاسمة على نظام الطوائف، فظهرت لأول مرة، إلى حيز الوجود المعاصر للبلدة حديثة النشأة، طوائف أساسية وأخرى ثانوية.

ومن دون كل الطوائف أعطى الأرباب، عناية خاصة لطائفة العميان، التي أخذ يعين منها العمد والشيوخ بـ "الإنتخاب الحر المباشر" فكان من أبرز الطوائف الأساسية: طائفة بني صعيد وبني سافل وبني هلال، وبني دار الريح وبني غُريزة وبني قاع. وهؤلاء بالذات "بني غريزة وقاع" هيمنا على الموارد، ربما لاحساسهما المتأصل بالغربة في هذا المكان، وما يعانونه من أزمة انتماء، عمد الأرباب إلى تشكيل قوام جيشه الضاربي من صبيانهم اليافعين! وهكذا على عاتقهما بدأت بلدته الوليدة في النمو بخطى متسارعة!

عدم انسجام مجتمع الأرباب، جعلهم في شقاق دائم -لكنه غير معلن، فكان الأرباب يخشى من انفجاره ذات يوم- لذلك لم تستطع قوات البلدة، التي تخرج للغزو بين آن وأخر، متجهةً إلى دار صباح أو دار الريح، المكوث على أرض غزواتها وبسط هيمنتها على تلك الديار، بسبب اضطرارها للعودة إلى الأرباب، كظل لسلطة تمنع أي تمرد محتمل على أراضيها.

ولذلك كان جند الأرباب، يكتفون في الديار التي يغزونها. بأخذ الغنائم والأسلاب والنساء، بعد إحداث مجازر مروعة، يضمنون بها ظل سلطتهم بعد المغادرة..

ففي مجزرة دار الريح، التي مضى فيها الأرباب على رأس قواته، تم إحراق كل الحواضر الكبرى لدار الريح، ولم يترك على قيد الحياة، إلا من نجا بنفسه إلى الفيافي والقفار.

وفي غزوتي الصعيد والسافل، هاجمت قوات الأرباب الحواضر، من كل الاتجاهات وأحرقتها، فقتلت في أولى هجماتها آلاف الناس.

ظلت الديار "في الصعيد والسافل ودار صباح والريح" كلها تحاول أن تجتمع على كلمة واحدة، لوقف الأرباب عند حده، فاقترح حكمائها الذين يحاولون جمع شتاتهم، أن يبعثوا بعيون إلى بلدة الأرباب، باعتبارهم من طائفة أبو جريد، ومن ما ستأتي به هذه العيون، عليهم تحديد السبل المناسبة، لوقف الأرباب عند حده "إذ كانوا يخشون، أن يتمكن الأرباب في نهاية الأمر، من فرض سلطته على كل البلاد الكبيرة".

ووجد هذا الرأي إستحساناً كبيراً، من العمد والمشايخ. في هذا الوقت الذي كانت فيه دار الريح، والصعيد والسافل ودار صباح، تستجمع شتاتها لوقف الأرباب عند حده.

كانت طائفة العميان، في بلدة الأرباب يقودها ود النمير -لأول مرة على نحو استثنائي- تعتقل ثمانية من مواطنيها، بتهمة التواطؤ ضد الأرباب، وتسريب أفكار هدَّامة مضادة لافكار جانو قرمط- أوثق العميان المعتقلين بالحبال، وجروهم بخيول السباق، إلى أن تنصلت أطرافهم، فتوفي منهم في الحال أربعة، ووضع الأربعة الباقين في حفرة، تحت عرديبة الدود للدفن أحياء.

استطاع الأرباب أن يغذي وجدان الأهالي، وأفكارهم بآيدولوجيا طموحة، مغزاها النهائي أن تتمكن بلدته، التي تقع عند متكأ الليل، في مفترق تلك الأودية الثلاثة، من حكم كل ما حولها من جغرافيا، وظل هذا الحلم الشخصي للأرباب، يداعب خيال كثيرين من سكان البلدة .

ومع ذلك لم يكن من الصعب ملاحظة، ما يمور تحت سطح البلدة، فما كان باديا للعيان وظاهرا في السطح حقا، هو شيء واحد فقط. يمكن تسميته بمفردة واحدة: الحب..

حب ود النمير لفاطمة السمحة. هذا الإمتداد لميراث كامل من الشوق و"الريد" والحنين، بكل ما وسم الشوق والحنين، من حكايات الجدات، ونبؤات الفقرا البائدة.

٣

النبوءات..

نعم النبوءات.. النبؤات من جهة أخرى، وفي الطرف المقابل لأحلام الأرباب السرية والمعلنة، هي ما شيد حياة بلدة الأرباب وحواضرها، لكن ليس ذلك النوع من النبوءات التي قد تتبادر إلى الأذهان. فنبوءات بلدة الأرباب خاصة جداً، لا يمكن إلا أن تكون، جزءً من ميراث الأساطير، بما هي خلاصة تجربة ووعي الأسلاف أتباع جانو قرمط..

نبوءات حكمت أحاسيس ومشاعر ود النمير وفاطمة السمحة.. إذن نهضت الأرباب بادية للعيان، في نبوءات الحب وعذابات المحبين، الذين أنهكهم التوق القلق المتوفز، الذي أصابهم بالحنين والغربة والجنون.

ومن كل ذلك تشكّل جنون الحياة والكيمياء اليومية لسلوك الناس، في كل البلدة وحواضرها القريبة والبعيدة.

ففي ذلك المساء البعيد المشبع برائحةِ "السُّعات" البَّري، سيجت "أم حجل" وجدان فاطمة السمحة، بنبوءة ظلت تلاحقها عاماً بعد عام.

قالت الجَدَّة، في ذلك المساء، الذي هبت فيه النسمات الطلقة، المحمَّلة ببرودة دار الريح:

"عندما تلقينه ستعرفينه من دون خلق الله أجمعين. ستشعرين بانبساط وهو يتقدم نحوك، ويغمرك الإحساس بضيق المكان الواسع الذي تقفين فيه، عندما يبتعد عنك، وإذا صافحك تنتابك رغبة متناقضة.. فعندما تودين جذب يدك من كفه، تهيمن عليك رغبة ابقائها في حضن هذا الكف، ويُصبح غمز الفتيات ولمزهن، كأنه يتقصدك.

تشعرين كأنهن يستدعين إسمه ورسمه، وترغبين في هذا الإستدعاء، فتقتربين منهن، تحاولين إستدراجهن، للحكي عنه، وقلبك يخفق كحجر الرَّحى.

هكذا تشعرين به، وإن كان لا يعنيك حديثهن.. يتعلق بصرك بكل شيء لامسه: إناء الشرب.. التراب الذي مشى عليه. الجذع الذي تخطاه وهو ملقى على الأرض بإهمال.. كل شيء.. تشعرين به كلما رآك، يتعمد ملامستك، والإتكاء على ما ظهر من جسدك، كأنه لا يقصدك "لكنه يقصدك"..

وما أن يمضي حتى تمسكين بالإناء، الذي كان في يده، تحاولين شرب ما تبقى من فضلته. كأنك تدخلينه إلى جوفك، ليبقى هناك في رحمك، مطلاً على فرجك الأشرم، يداعبك ويدغدغ قيلولاتك، وأحلامك الكثيفة بحضوره

المباغت. وتفضلين الوحدة على مخالطة قريناتك، تأنسين بطيفه، وقد يهتاجك الشوق، فيثير فيك لواعج البوح ومكامن الشجن.

عند هذا الحد يجب أن تدركي إنك وقعت في غرامه، وتدنفت بحبه، وأن ما لا تقوى على حمله العذارى، في رجفتهن الأولى، قد أثقل كاهلك، فلا تدعيه أبدا يراك عارية، وإلا أخذكما البين والفراق بجمره.

فتلك قوةً تدفعك دفعاً، دون أن تتمكني من التحكم فيها. فتذكري نبؤتي، ولا تقولي:

"تلك خترفة عجوز قدميها والقبر!"..

فود النمير يا فاطمة يحمل بين تجاعيد ذاكرته، مثلما تحملين من نبوءة، فهو حفيد الفقير الأرباب، من أختي "بنت مسيمس"..

الفقير الأرباب الذي كان ببركته يجعل الماء رائباً، وإذا دعا على أحد أن: ينفسخ جلده، ينفسخ في الحال!.. حتى أنه أعطى إحدى المطلقات تميمة لجلب الحظ، شريطة إلا تقرأها، فتغير حالها وسعدت أيامها، ولم تعد سيرتها الأولى، إلا عندما أعطت ورقتها "التميمة" لأحد العميان كي يقرأها لها، ففتح ثنياتها وقرأ:

"حموزة مهيوبة، حمراء لهلوبة، تلعب الهوبة، في جزا ير النوبة!"

كما أن "الفداديات" صانعات الخمر البلدي، كن ينادينه ليفزعهن:

"يا الأرباب.. يا راجل الفدَّه والمدَّه.. تلحقنا وتفزعنا.. وتكمل مريستنا"..

فكن لا يلبثن إلا قليلاً، حتى تباع كل مريستهن، ويفرقن شيئا منها كرامة للرجل الصالح، صاحب اليد اللاحقة، الفقير الأرباب.

فالفقير الأرباب جد ود النمير، كان يعرف الرجال بأسماء أمهاتهم، دون أن تسبق له رؤيتهم، وكثيراً ما كانوا يستعينون به، لحل القضايا الشائكة، التي تفشل طوائفه في حلها، فيغمض عينيه برهةً من الوقت، ويفتحهما، فيقول الخبر اليقين!.

نبوءة ود النمير يا فاطمة، التي أخبره بها الأرباب: أنه سيراك وهو عابر في الطريق، ومن النظرّة الأولى تأخذين بمجامع قلبه، فيتخلل حبه لك جميع أعضاءه، فينصرف عن شأنه، ليصبح عبوره إليك هو شأنه الوحيد. يتبعك مأخوذاً، تدفعه قوة لا قبل له بها ..".

قالت الجَدَّة ذلك وصمتت، ولم ينجح أحد بعد ذلك على استنطاقها. كانت قد ألقت نبوءاتها في وجه حفيدتها وآثرت السكوت.

هنالك عدة روايات حول السيرَّة الذاتية لأم حجل، جَدَّة فاطمة السمحة، وشقيقتها بنت مسيمس، ولكن الرواية الشائعة تزعم: إنها ولدت بعد أن بلغ الكبر.. من أبويها مبلغاً إنقطع معه حبل الرجاء والأمل، فذهبا إلى الفقير الأرباب، الذي اشترط عليهما: إن رُزقا بوليد ببركته، عليهما أن ينذراه حواراً له، و إلا سيموت.

ولم تمض سوى أسابيع قليلة، حتى بانت علامات الحمل، على والدة أم حجل. وهكذا جاءت إلى الحياة منذورَّة لخدمة الفقير الأرباب. فما أن أوشكت على البلوغ، حتى أوفى أبواها بنذرهما، وأخذاها حواراً للأرباب.

لكن وفقا لرواية أخرى -إلى جانب هذه الرواية الملتبسة- نجد أن والد أم حجل، قد قتل قبل أسبوع، من قبل العمدَّة الأعمىٰ -تسرَّبت وقتها كما يقول الرُّواة المصابين بداء النميمة المزمن، شائعات بأنه مات حزناً، لأنه سيفارق إبنته المنذورَّة لخدمة الأرباب، وبالطبع لم تُشر أصابع الاتهام للأرباب ذات نفسه على الإطلاق- تؤكد الرِّواية أن العُمدَّة الأعمى، قام بتسميم والد أم حجل بسم أبو الدرَّق، لإعتقاده أن أرضه التي أجدبت، لن تعود خصبة: سيرتها الأولى، إلا إذا دفن فيها قتيل بسم أبوالدرَّق، شريطة أن يكون بكراً من أبوين بكرين بين

أشقائهما، ومتزوج كذلك من امرأة بكر بين أشقائها، وليس لديه سوى بنت واحدة لا تزال بكراً..

أمر الأرباب حواريه بإحراق دار العمدة، والإتيان بأمواله إلى بيت الحيران، والإتيان به شخصياً ملفوفاً بحصير الشوك، وضربه بالعصي حتى الموت!

وفي الليلة التي تلت ذلك، تقدم الأرباب من الفتاة الصغيرة أم حجل وتزوجها. لكن رواية أخرى -خرجت من طائفة المتأدبين، الذين يداومون على بيوت المرايس- تفيد أن أم حجل كانت زوجة للعمدة الراحل، تزوجها الأرباب، بعد أن قتل زوجها العمدة!

وهذه الرواية المجروحة بالتحديد من الروايات، التي نادراً ما يتم الهمس بها، وفي ظروف خاصة جداً، بعيداً عن عيون الأرباب وعميانه، الذين يملأون البلدة. تؤكد الرواية أنه وقتها، عندما حدث ما حدث! وانتشرت الشائعات في الصعيد والسافل، ودار الريح ودار صباح، أن الأرباب فعل ما فعل، ليس إقراراً لقانون أبو جريد الأساسي، الذي يحكم البلدة. وإنما لأنه كان مغرما بأم حجل، زوجة العمدة الراحل، والتي كانت قد أخذت بمجامع القلوب، وأشعلت التنهدات من أقصى الصعيد، وحتى أدنى السافل، عرجاً على دار الريح.

وبالرغم من أن الفكي الأرباب،كان متزوجاً في الأصل، من بنت مسيمس شقيقتها، التي بوأها مكانةً رفيعةً بين مقامات زوجاته اللاتي بلغ عددهن التسعين،

إلا أن أحداً من الأهالي، لم يجرؤ على الحديث عن ذلك، لا سراً ولا علانيةً، خشية أن يدعوا عليهم الأرباب بفسخ الجلد، فتنفسخ جلودهم في الحال.كما حدث لكثيرين من قبل، حاولوا التعريض به.

وهكذا نشأت "أمونة" ابنة أم حجل في كنف الأرباب، فأدركت من حالاته ما أدركت، حتى صارَّت تترجم عنه عندنا يأخذه الجذب، وينطق بألسن المتقدمين والمتأخرين!..

فكانت وحدها تعي ما ينطق به من كلام غامض، لا يستطيع حيرانه تفسيره، بل وكانت تضرب له الدلوكة عندما يلقي به الجذب إلى حالة الرقص والزغرتة.

فالفكي الأرباب كان مغرماً بإيقاع الدلوكة، فبعد أن يجتمع بحيرانه للأذكار، في ليلة أربعتاشر من الشهر العربي، منتصف كل عام، مرددين أذكاراً أشبه بأهازيج البحارَّة. يهتف بعدها بأمونة:

"يا أمونة دقي الدلوكة. خادم الله الما مملوكة"

ويرقص على إيقاعها بجبته المرقعة، ورحطه المرقش، ويهز الجرَّسين المعلقين في أذنيه كالأقراط، ثم يزغرِّت ويُعطي "الشبال" لمن حوله. قبل أن يخر باركاً كبعير أنهكته ملاحقة النوق العصافير في صحارى القبل الأربعة!

يمضي بعدها معتزلاً النَّاس في خلوة، لا تدخل عليه فيها سوى أم حجل، وإبنتها أمونة، حيث يبقى في خلوته سبعة أيام، يخرج بعدها إلى حلقة الذكر، في

الحديقة الغناء -التي أقامها خصيصا لهذا الغرض- فيجد الحلقة قد ازدحمت بمجيء النساء المتعطشات.. مريداته من الصعيد والسافل ودار صباح ودار الريح، فينتقي من بينهن التي تروقه، وكذا يفعل حيرانه، ويمضي كل منهم بالمرأة التي اختار!

في هذا المناخ، نشأت أمونة والدة فاطمة السمحة، غاية في الحسن والجمال والخفر، والدماثة.

عديمة الهزل، منيعة البذل، قليلة الكلام، بديعة البشر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الاعراض، مطبوعة الإنقباض، مليحة الصدود، رزينة القعود، مستلذة النفار،كثيرة الوقار، لاتوجه الاراجي نحوها، ولا تقف المطامع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، تحسن الضرب على "الدلوكة" إحسانا ليس له مثيل، وليس كمثل زغرودتها زغردة، ومن ذات هذا المناخ، تشرَّب ود النمير بالنبوءات، التي ستحدد مصيره لوقت طويل.

تفيد رواية أخرى -روجت لها طائفة العميان- وتوارثتها البلدة فيما توارثته من حكايات، عن السيرَّة الذاتية لبنت مسيمس وأم حجل -وهي الرواية التي حاول المتأدبين من قبل، ودبك من بعد، تقويضها- أن أم حجل وبنت مسيمس، جدتا فاطمة وود النمير، حلتا على البلدة فجأة كالقدر، قادمتان من دار الريح.

كانتا كالتوأم بالرغم من أنهما خرجتا من رحمين مختلفين. ربما أن مطابقتهما لبعضهما البعض، إلى حد كبير، بسبب أن الفنجري، الرجل الذي تزوج السُرَّة "والدة بنت مسيمس" هو الشخص ذاته "والد أم حجل من حبيبته العازة" فقد دخل الفنجري على السرة والعازة، في ظروف مماثلة، وفي ليلة واحدة، فجاءتا بسبب ذلك متشابهتين، وكأنهما خرجتا من رَّحم واحد،كالتوءَم. وما أن اكتملت أنوثتهما، حتى سافرتا تبحثان عن زوج لكل منهما، فقد أخبرتهما والدتاهما، أنهما ستتعرفان على زوجيهما، ما أن تريا حمامتان تحطان على كتفيهما، وتمدان هديليهما تجاههما.

وبعد وقت ليس قصير، من نبوءة والدتيهما، هجم جند الأرباب على دار الريح، وتمكنتا من الهرب، بعد معاناةٍ وعذاب شديدين!

كانتا وحيدتان، لا تعرفان إلى أين يفضي بهما الطريق، الذي سارتا فيه. ولا أنيس لهما في وحشته سوى صوتي والدتاهما تحكيان عن نبوءات جدتيهما.. عن حفيدتين تأتيان إلى هذه الحياة، فيذيقهما الهرب وتحقق النبوءة من مراراته الكثير.

كان طريق الهروب شائكاً. فالسماء مظلمة، والليلة باردة والوحشة حولهما كأنها رمزاً يعبر عن روحيهما المنهكتين.

وكان المطر يتساقط رشاشاً رشاشاً، تحمله رياح دار الريح، التي تغرق بالحزن والفجيعة، وهما وحديهما على الطريق الموحش، الذي تهربان منه إليه.. الطريق المبلل بثورة الطقس الغادر، والحزن الذي لا حد له.. يلامس المطر وجهيهما، وهما تسيران على غير هدى، مقطبتين الجبين، نظرهما مشدود إلى الأمام.. إلى لا شيء. فكل شيء بدى لهما مؤلماً وشائكاً ومتشابكاً. حتى صوت الجَدَّة، الذي يعبر عبر صوت والدتيهما، طاوياً المسافات البعيدة، في الأمكنة والأزمنة البائدة والفراغ، لينهض في وحشة الطريق، بدى هو الآخر متشابكاً، عميق الحزن واللوعة، لكنه متماسك يحاول أن يبعد عنهما شبح الوحدة والوحشة، والعواقب المحتملة للفرار..

كأن صوت الجدتان، يتوحد في صوت واحد، يخرج من الحبال الصوتية لوالدتيهما، متوحداً هو الآخر في طيف حميم يلازمهما:

"في ذات الليلة التي خرج فيها الفنجري والد بنت مسيمس، من دار عريس إبنة العمدة متوجهاً إلى دار زوجته السرة، عرج على دار عشيقته العازة، التي كانت قد عادت مع أهلها بعد رحيل طويل.

كان والد الفنجري، مصراً على تزويج ابنه الفنجري من السرة، إيفاء بعهد كان قد قطعه على نفسه. فقد كان مغرماً بوالدة السرة، وعندما لم يتمكن من الزواج

منها، لغلبة ابن عمها على الأمر، ورغبة والده الإيفاء بقسم كان قد قطعه على نفسه: بأنه طالما لم يتزوجها سيعمل على أن يتزاوج أبنائهما فيما بينهما.

هيمنت على الفنجري إذن، ذكريات وده القديم مع والدة السرة، ولذلك عندما أنجب السرة، داعبه عهده القديم، فقرر الوفاء به. فزوج ابنه الفنجري من السرة، ضارباً عرض الحائط، بكل أحلام الإبن الذي تدنف في عشق "العازة" وأحبها كما لم يحب والده، أم السرة ذاتها من قبل.

فقد نشأ الفنجري والعازة معاً. يرعيان الأغنام في طفولتهما الباكرة. يلهوان معاً، وظل يتبعها حتى إلى "عِد" الماء، عندما تُكلف بـ"الورود" بعد أن صارت صبية، وينتهز فرص اللقاء بها في سوق الإثنين من كل أسبوع، وكثيراً ما يتسللان إلى الدَّغل، على شفة الوادي، يمكثان معا دون حجاب. فانعقدت بينهما المودة، التي لا تبلى على مر السنوات.

كان يغار حتى من نفسه ومنها عليها، ولا يرضاها تحادث أحداً غيره، رَّمى والده بكل ذلك خلف ظهره. وأجبره على الزَّواج من السُرَّة.. التي ليست كحبيبته العازَّة..

السُرَّة التي شهدت والدته على ختانها، عندما جاءت عجائز البلدة يحملن شفراتهن الحادة، يوثقن فخذيها حتى لا تتحرك، ليستأصلن فرجها وبظرها، ليتركنها خالية من أي بروز، ويقمن بضم الجزءان المقطوعان، ويخطنهما بخيوط

السعف، بعد أن يدخلن ريشة النعام، ليظل مجرى البول مفتوحا. ثم يضعن عجين الذرة المخمَّر المُر، على الجرح النازف.

شهدت والدته ختانها وحكت له لإقناعه:

”العازة ليست كالسرة.. العازة (غلفاء) بنت غلفاء، وهم أغراب عوا يدهم ما زينا.. أسمع كلام أبوك وأخير ليك السرة“

ولم تمض سوى أيام قلائل، حتى سمع أن العجوز الخبيرة، كانت في بيت أهل السرة، لتفتح لها عضوها بالموس الحاد. فأدرك أن والديه قد اتفقا مع والديها وقضي الأمر.

فتح الخبيرة لعضو السرة، ما هو إلا تمهيداً لزواجها منه، حتى يتمكن من الإتصال بها. وتأكد له ذلك أكثر، عندما أمره والداه بأخذ الهدايا، التي كانا قد أعداها إلي بيت السرة -فقد أصبحت خطيبته إبتداء من هذه اللحظة المنسية، التي لم تغفلها مدونات دبك- فاقسم أمامهما بأنه لو تزوجها، لن يدخل عليها، إلا في الليلة التي يتمكن فيها من الدخول على عازة، التي كان أهلها قد لموا عزالهم، ورحلوا من البلدة، على أمل العودة مرَّة أخرى، ما أن يفرغوا من الأمور التي دعتهم إلى الرحيل.

وهكذا ظل ينتظر تلك الليلة المتمناة لوقتٍ طويل. وقد تداعت إلى ذاكرته، كل الذكريات الحميمة مع العازة، بجنون سباحتهما معا في مياه الوادي الباردة،

وتسلقهما الأشجار، وركضهما متسابقين حتى ينال منهما التعب، فيستلقيان على الرمل منهكين.

وهو في إنتظاره المرهق لعودة العازة و الليلة المتمناة، كان طيفها يخطر في ذاكرته، خارجا من ادلهام ليال الإنتظار الموحشة، وهي تميد كالأرض. ليتبدى عنها هياج الشجن والذكريات. فيتعرق ويتأوه مردداً إسمها كترانيم لم تحظى بالتقديس الكاف.

وفي تلك الأمسية، التي اجتمعت فيها دار الريح كلها في الحاضرة، تحتفل بزواج ابنة العمدة. كانت العازة قد عادت وأهلها. فعرج على دارها، ثم مضى إلى العرس..

كانت دار الريح كلها تحتفي بعرس إبنة العمدة، والناس ملتفون حول الذبائح والشراب، اللذان سرعان ما قدما إليهم. وضربت النساء على الطبول يمدحن العروس، وتزين الرجال والشباب والنساء والفتيات، وبدت العازة بينهن جميعاً في أبهي صورها، تخطف الأنظار بسحرها.

تقدمت العازة صف البنات، اللائي استوين في صف واحد بمواجهة صف الشباب، وهي تهز رأسها نحو الفنجري، حتى اقتربت منه فضربته بضفائرها وهي تهمس:

"سأنتظرك في الدار"

ثم تراجعت تهز رأسها وهو يهز حربته خلفها، وما أن بدأت النساء والفتيات يزففن العروس بالدلوكة، ملتفات حولها، في طريقهن إلى دارها، حتى انصرف الشباب والرجال، إلى دار العريس، الذي هتف فيهم:

"ليمض كل إلى محبو بته"

في ذات الوقت كانت العروس، قد صاحت بالفتيات، أن يأتين بعشاقهن للقاء في ضيافتها. فخرجت العازة تمضي إلى دارها مسرعة. تعد نفسها لحبيبها الفنجري، الذي كان في أثرها، وذاكرتها تتكشف عن شظايا ساكنة وخالدة: فالزمن في الواقع لا يمر بينها، فكل ما كان بينهما منذ الطفولة الباكرة يتكثف الآن، مصطفاً كلحظات دافئة، تتراص إلى جانب بعضها البعض، كلحظة واحدة عارمة.. تتكثف كبوتقة، تسحبها للمضي لإعداد نفسها له. قبل أن يلحق بها.

بقى الفنجري عندها ولم يخرج، إلا بعد أن غاب البدر خلف سحابة كثيفة، ومكث طويلاً قبل أن يتسلخ منها. كان سعيداً ويشعر بنوع من الهدوء والسكينة، لم يسبق أن شعر بهما، منذ افتقدها برحيلها المفاجئ، وما أن وصل إلى داره، حتى وجد السرة تنتظره، هي الأخرى في كامل زينتها، وقد طالت وحشة فراشها، فتآكلها الجمر.

في تلك الليلة التي اكتمل فيها البدر.كان الفنجري في أوج نشاطه وحيويته. فبكت السرة فرحا ولذة، وهو جاثم على صدرها، ويديه تطبقان عليها.

كان بداخله شعور متناقض يدفعه للسيطرة على ذراعيها، وإخضاعها. اقترب بوجهه أكثر فأكثر، عضها على شفتيها، وهي تصرخ من شدة الألم اللذيذ.

إنكفأت على نفسها وتلمست فمها بيدها. فركت شفتيها ثم ركضت خارج الدار، حتى وصلت الوادي. سبحت بعيداً بعيداً. كانت قد تركته وراءها، غارقاً في نوم عميق.

ولم تمض سوى أشهر قلائل، حتى اكتشف أن السرة والعازة قد علقتا منه في تلك الليلة الحميمة. فأنجبت السرة بنت مسيمس، وأنجبت العازة أم حجل، وحاصرتاهما بنبؤات جدتيهما التي لا أول لها ولا آخر، إلى أن دهم جند الأرباب دار الريح فلاذتا بالفرار. عندما نالهما تعب المسير وإعياءه، صادفتا شابين أشرمين، انقبضت نفسيهما من رؤيتهما. حاول الأشرمين التقرب منهما لكنهما نفرتا منهما.

كان الشابين قد دلاهما على قهوة عند نهاية الدرب، ليستريحا فيها. فمضتا باتجاه القهوة.. كانت القهوة ملك لامرأة في منتصف العمر. هي والدة الأشرمين ذاتهما. اللذان كانا قد سبقا أم حجل وبنت مسيمس إلى أمهما، وقد أصابهما من حب

الفتاتين ما لا طاقة لهما به. فقد وقعتا على قلبيهما موقع السهام. همسا لأمهما بهذا الحب المباغت، حتى تأخذ في التفكير والتدبير.

حبلت مسك النبي بالأشرمين من أبي جريد، عندما كان شاباً. هارباً من دياره في دار صباح، ووصل إلى هذا المكان فوجد فتاة كالبدر المنور، ترعى أغنامها في الخلاء، لاشئ يحميها سوى كلبها، ولا معزي لوحدتها سوى أغنامها، وقتها عرف انها يتيمة وهاربة من أرباب نعمتها، ووجدت أن هذا المكان أكثر أماناً لها.

ولم تمض سوى أيام قلائل حتى انعقدت بينهما أواصر الصُحبة فالود والحب، فشيد لها أبوجريد منزلاً بغرفتين، وزريبة للأغنام وقهوة عند منتهى دريب الريح، أمام المنزل. لخدمة السابلة وعابري الطريق. وهكذا استقر أبو جريد مع الفتاة الصغيرة مسك النبي، التي ستعرف فيما بعد بوقت طويل بـ"الفقيرة العجوز صاحبة القهوة والدة الأشرمين".

استقر معها بمخطوطاته وكتبه العتيقة، التي ما أن أكمل بناء المنزل، حتى أخرجها من الجراب الكبير، الذي كان يحمله عندما التقاها -جزء من هذه المخطوطات إعتمد عليه دبك بعد مئات السنوات ليكتب مذكرات لا تزال

مشبوهة، يحاول الكلس باستماتة تحقيقها- في الأوقات التي لم يكن لديهما فيها عمل في القهوة، كان يحاول أن يعلمها من مخطوطاته وكتبه العتيقة، فاكتشف فيها عقلاً وقاداً، قادراً على التهام المعارف وإجترارها، بسرعة مهولة.

إذ سرعان ما تعلمت فك الحرف وربطه، وأصبحت حواراً متقدماً بوعيه في طائفة أبو جريد، التي كانت هي كل أعضائها في ذلك المكان القفر الموحش!

كثيرا ما كان يتركها في القهوة، ويمضي للصيد أو جني الثمار، في الأماكن التي تحيط بالقهوة. أو يمضي ميمماً شطر تلك المنطقة البعيدة، من شبه الجزيرة، عند منتهى دريب الريح، حيث "عرين الوحوش" ليختلي بنفسه ويقيم طقوس طائفته، متوحداً في وحدته ووحشته المهيبة..

كانت مسك النَّبي والدة الأشرمين، قد فقدت والديها في إحدى غارات الهلاليون على الصعيد، وهي بعد لم تتعلم الكلام، فتبناها خالها.

وما أن أصبحت تدرك ما حولها وتستطيع المشي والكلام، حتى أخذ خالها وزوجته يرهقانها في عمل البيت، دون أن يهتما لطفولتها الجريح، وعندما كبرت قليلاً، أصبحا يكلفانها بالمضي بالأغنام للمراعي القريبة من بلدتهما في قلب الصعيد.

فكانت تمضي تهش الأغنام في الصباح الباكر، ولا تعود إلا عند الغروب. وما أن تعود حتى تكلفها زوجة خالها بطحن الذرة لطعام اليوم التالي.

كانت طفولة مسك النَّبي تهرب منها، بين ضغط المرعى وطحن الذرة، الذي يكاد يقسم ظهرها نصفين.

وهكذا بدأت تخطط للهرب من هذا المكان، الذي يمزق فيها كل شئ، إلى أن اتخذت قرارها ذات يوم، بدى مكفهراً منذ بدايته. ينذر بعاصفة غاضبة في الطريق. وما أن لجأ جميع من في الدار إلى مراقدهم، قُبيل حلول العاصفة بقليل، حتى كانت مسك النبي الصبية الصغيرة، قد فرغت من ربط ثلاثة من الأغنام وتيس، من أعناقهم بحبل طويل، وقادتهم إلى خارج البلدة، ومضت لا تلوي على شيء. حاصرتها العاصفة من "القِبَل الأربعة" وهي تغذ في المسير لاترى ما هو أمامها أو حوليها، حتى كفها المربوطة إلى حبل الأغنام، لم تكن تراها.

وبعد ساعات طوال من المسير المضني، هطلت أمطار غزيرة، ووجدت مسك النبي نفسها في دغل يفضي إلى طريق طويل، ظلت تمشي فيه لأيام وليال، حتى انتهى بها عند دريب الريح، فقررت أن هذا هو المكان الذي ستبقى فيه.

عاشت مسك النبي على لبن غنماياتها الثلاثة -اللاتي صرن مراحاً بمرور الأسابيع والشهور- وجني الثمار. إلى أن رأت رجلا يغذ في السير، قادما من إتجاه شروق الشمس، فخافت في البداية ثم أمسكت بتلابيب شجاعتها، وعندما وصلها كان منهكاً. يبدو عليه الأعياء والتعب. فأطعمته قليل من الثمار، وشئ من لبن الأغنام، وهكذا بدأت حكايتها مع أبو جريد، والد توأميها الأشرمين.

كانت الصراعات التي عاشها أبو جريد في دار صباح، بسبب طائفته التي تعتنق "أفكار جانو قرمط" والتي انتهت به مطارداً ومطلوبا بشدة، لا تزال أصداؤها تدوي في ذاكرته.

وبين حين وآخر يدهمه الحنين لمكان محتشد بالناس، يستطيع فيه إحياء طائفته، مرة أخرى من جديد.

مكان غير هذا المكان القفر. المحصور بين دريب الريح، وشبه الجزيرة. وظل الحنين يشتغل داخله مقضا مضجعه، ومضعضعاً أفكاره، إلى أن اختفى ذات يوم، تاركاً فتاته مسك النبي، حاملاً في توأميه الأشرمين، دون أن يعلم.

ومضى إلى دار الريح، دون أن يترك خلفه أثراً يدل فتاته، على الدرب الذي سلك.

في البدء حنت إليه والمخاوف تعتريها أن يكون قد قتل، وما أن جاء توأميها إلى الحياة، حتى نسيته أو تناسته، ولم يعد يداهمها الحنين إليه.

أصبح بالنسبة لها، كورقة شجر جافة، سقطت عن حياتها المخضرة.. ولم تعد تتذكره إلا بشرمتي توأميها، فيخطر على ذهنها: أنه ربما قتل في عرين الوحوش. الذي لم يكن ثمة من يجرؤ، على الدخول فيه للبحث عن أي شئ!..

كان أبو جريد والد الأشرمين في طفولته صبيا شقياً، مغرما بالنظر بين ساقي النساء والفتيات. أرسلته حجب النور أمه ذات يوم إلى جارتها، ليجلب لها بعض الحطب، وبينما مضت الجارة لجلب الحطب، اختبأ تحت جذع شجرَّة ملقاة في باحة الدار. وحين جاءت الجارة صاحبة أمه، ترفع ساقيها لعبور الجذع، تمكن من النظر إلى أعضاءها، ولم يكتف بذلك إذ غمزها باصابعه. فثارت فيه وضربته بعصا، شطرت شفتيه شطرين. و عندما أنجبت منه مسك النبي تؤميها، ولدا أشرمين! يحملان شيئاً من صفاته، التي لم تتبق منها في ذاكرتها سوى هذه الشرَّمة. والتوءَم اللذان يرثان عنه أيضا غرامهما، بأعضاء النساء. واللذان عندما رأيا بنت مسيمس وأم حجل، وهما في إعياء السفر، دهمتهما رغبة عارمة في النظر إلى أعضاءهما، وصارا يتعثران في بعضيهما البعض كالمخمورين!

٥

سألا أمهما، التي كانت لا تزال تفكر وتدبر: "إذا كره من نحب لقاءنا، وتجنب قربنا فماذا نصنع؟"

"تسعيان إليه وإن كرِه"

"لكننا نؤثر هواه على هوانا، ومراده على مرادنا، ولو كان في ذلك الحتف"

"أشد من الموت وسيلته، وأعز من النفس ما بذل في سبيلها إختياراً.. سأدبر لكما أمرهما، فاسمعا وأطيعا"

وصلت أم حجل وبنت مسيمس إلى القهوة، وحكتا قصتهما لأم الأشرمين التي استضافتهما، والتي كانت قد علمت منهما أنهما هاربتان لا تلويان على شئ، أعدت لهما مسك النبي ركناً ترتاحان فيه، وأتتهما بطعام وشراب..

وأخذت تنزوي خلف "الصريف" حيث لا يريانها، وتتمكن من سماع حديثيهما خلسة، في ذات الوقت، إلى أن تطرقتا في حديثيهما، إلى نبوءة جدتيهما. فمضت إلى إبنيها الأشرمين وحدثتهما بما سمعت. وعندما مضت تلك الليلة، واقبل الفجر ينير الوادي. تقدمت الفتاتان للمراة تشكرانها، وتستاذانانها في مواصلة سيرهما.

حاولت أم الأشرمين إقناعهما بالمكوث عندها بشتى السبل، فرفضتا بلطف، وأصرتا على موقفيهما، فأذنت لهما بالرحيل. وهي لا تخفي إستياءها.

وما أن خرجتا إلى دريب الريح، وقبل أن تبتعدا كثيراً، حتى لاح لهما الأشرمين، وعلى كتفيهما حمامتين، متظاهرين بانهما يمضيان في هذا الطريق مصادفة.

توقفا عند الفتاتين، وأخذا يحكيان لهما نبوءة مزعومة، أورثها لهما جداهما، عن زوجتيهما المرتقبتين:

"كل الصفات تنطبق عليكما"

فأجابت الفتاتان بعد تردد، وهما تنظران إلى بعضيهما:

"حكت لنا والدتينا نبوءة مشابهة"

"تصدقاننا إذن؟"

فنكستا رأسيهما في خجل، وعادتا مع الأشرمين، وهما تستحضران النبؤة في ذاكرتيهما مرة أخرى.. طوال الطريق!

ظلت الفتاتان مع الأشرمين سحابة اليوم، في بيتهما خلف القهوة، ووالدة الأشرمين تخدمهما بهمة عالية، وحب لا مثيل له..

كانوا ما أن تتركهم الأم وتمضي إلى مقهاها، حتى يتآنسون ويتداعبون، فتترك الفتاتان أعضائهما، مستباحان لعبث الأشرمين، اللذان كانا في غاية سعادتهما -وهما يبديان ضروبا من العبقرية الفذة، في العبث بشرمتي البنتين- ولا يكفون عن اللهو والمرح، إلا عندما تعود الأم مرَّة أخرى، وهي تحمل إليهم طعاماً أو شراباً، وعندما حل الليل، سحب كل منهما واحدة من الفتاتين، ومضى مختلياً بها بعيداً عن الأخر. ليقضيان الليل معاً.

كانت روح كلاهما من أعماق الجسد الذي تسكنه، تحاول أن تلامس روح الأخر، لتئد النفور الذي قابلته به في البدء. وفي خضم ثورَّة اللحم والدَّم، تحاول روحيهما أن تُسمع الروح الأخرى، الموجودة على الجانب الآخر من الهاوية نداءها.

ولكن محاولة التواصل تلك التي انتهت إلى صيحات يائسة، كانت تبدأ مرة أخرى.. تبدأ من اللحظة التي سبقت الأزمنة والأمكنة:

ليس بالمداعبات والملامسات التي يتبادلانها فحسب، بل بمحاولتهما الوصول، إلى صدق النبوءة.. في هوس الأشرمين، بتحسس ولحس أعضائهما.

وفي تلك اللحظة الفاصلة، التي إرتعشتا فيها رعشة عظيمة -وأنتفضتا كمن أيقظهما نفخ الصور- ودواخلهما تسيل لتبلل الفراش تحتهما.. في تلك اللحظة الفاصلة، خالط اللذة شعور خفي بالإنقباض. لكن، مع ذلك تكرست متعتيهما، كذكرى خابية تشعلها أيام قادمات.

عند شروق الشمس.. عندما أفاقت كل منهما، ولم تجد رجلها إلى جوارها، نهضتا تتجولان في الدار. تبحثان عن الأشرمين، وعندما لم تجداهما، مضتا متسحبتين تجاه القهوة، فطرق سمعيهما حديث الأم مع إبنيها، حول خدعة الحمامتين. فداهمهما شعور بالحزن والأسى، وأدركتا لحظتها فحوى ذلك الشعور بالانقباض، الذي خالط انتشائهما!

٦

واجهتا الأشرمين بخدعتهما، ومضتا مضطربتين، مصدومتين، لا تلويان على شئ، ولم يتمكن الأشرمين من فعل شيء إزاء صراخهما، وإصرارهما على الرحيل. كان الأشرمان قد أسقط في يدهما، فنكسا رأسيهما، يشعران بحزن وأسى عميق، دون أن يأبها لتحريض أمهما بتقييد الفتاتين، كان كل ما قالاه لأمهما هو:

"الم نقل لك إننا نؤثر هواهما على هوانا، ومرادهما على مرادنا، ولو كان في ذلك الحتف. ليتنا لم نخدعهما"

مضت الفتاتان، تقودهما خطاهما، إلى الطريق المفضي إلى بلدة الأرباب، وعندما وصلتاها، واستشرى خبر جمالهما البديع، استشراء النار في الهشيم، أمر العمدة الأعمى رجاله باحضارهما إليه، وما أن رآهما، حتى اختار أم حجل زوجة له في الحال.

وعندما علم الأرباب بالأمر، غضب غضباً شديداً، لكنه كظم غيظه، وأكتفى بالزواج من بنت مسيمس، وفي نفسه شيء من العمدة، لإعتقاده أنه أختار أجمل البنتين، مفضلاً نفسه عليه، هو ربيب نعمته.

أنجبت بنت مسيمس "مرج البحرين" والدة ود النمير، و أنجبت أم حجل أمونة والدة فاطمة السمحة -وكان أبناء العمدة الأعمى، بعد أن قتل الأرباب والدهم، وتزوج أم حجل، قد تكرست لديهم قناعة، أن مرج البحرين شقيقتهم- وكان

الأرباب يعتقد أن أمونة من صلبه، فأم حجل وبنت مسيمس، لم تأتيان أبداً على ذكر تلك الليلة التي قضتاها مع الأشرمين، كما أن أم حجل تمكنت من إقناع الأرباب، بأنها لم تمكن العمدة الأعمى، من نفسها أبداً!

وهكذا تظل هذه العلاقات المتشابكة، من الأسرار الزائفة، دفينة في مكان قصي من خزانة الأسرار -إلى جانب نبوءة جدتي أم حجل وبنت مسيمس، بأنهما ستهربان بحثاً عن زوجين، تتعرفان عليهما بحمامة في الكتف، تمنحهما هديلها -التي لا تفرجان عنها أبداً- لم ينسى الأرباب أبداً ما اعتبره إساءة صريحة، وجرأة غير مسبوقة من العمدة.

ولذلك بعد أن قام بقتل العمدة الأعمى، عمل على تشييد نظام رقابي صارم، تخطى الناس ليشمل حتى أساليب الإنتاج في البلدة وحواضرها. وبذلك سيج التشكيلات الإجتماعية، والطوائف بحيث لم يكن ثمة من يجرؤ للحديث عنها.

نتيجة لذلك أخذت الأرباب تتحول على نحو متزايد، إلى مكان موحش في وحدته. فالأرباب لم يكتفي بتغييب الواقع الفعلي عن وعي الناس فحسب، بل جعلهم لا يتمكنون من العمل على تغيير هذا الواقع، الذي حاصرهم به من كل الجهات!..

هذا الواقع الكثيف والكتيم والمستقل بذاته، عن كل ما حوله من ديار. كان منيعا بحيث يقاوم ما يرسم من مخططات لتغييره من الداخل. فالداخل كان

الشغل الشاغل لبال الأرباب، أكثر من الخارج، إذ كانت قد تولدت لديه قناعة تامة، أن لا خطر فعلي يحدق بالأرباب من بني هلال في دار صباح.

هذا الواقع المغلق على ذاته، جعل أهالي الأرباب يشعرون بأنفسهم كذوات مهدرة، لا سبيل أمامها لتتطابق مع نفسها. بالتالي لا يمكن أن تكون لديها القدرة الكافية على التغيير، وتقرير مصيرها.

إذن كان الاختلاف واللا-هوية هو لسان حال بلدة الأرباب -رغم كل شئ- الأمر الذي عنى أن لا وضع محدد، هو هذا الوضع الذي يعيشونه في الأرباب -لكن مع ذلك- لم يكن ثمة أحد يملك تصوراً واضحاً للوضع الذي يتعين عليهم الحياة فيه، بالتالي قبلوا بالعيش في الأرباب كما هي، قانعين بالتذمّرات السرية الهامسة بين آن وآخر.

وعلى الرغم من كل هذه المشاغل الوجودية العصية، التي سبقت وتلت قتل الأرباب للعمدة الأعمى، ظل قلبه متعلقا بأم حجل، منذ كانت دون علم لديها بحبه لها، وحتى بعد أن أتى بها إلى داره العامرة بالنساء..

قبل أن يجيء الأرباب بأم حجل، كان غمه قد كثر و أسفه قد طال، إلى أن ضنى بحبه لأم حجل، التي بغرارة الصبية العذراء لا تشعر، ويمنعها من التجول في البلدة، سطوة العمدة وغيرته عليها من دون نساءه أجمعين، إلى أن عيل صبر الأرباب، فزار دار العمدة ولمحها، ومضى يتدبر مع خاصته أمر لقاءها، فلم

يمسك نفسه حتى قبلها، ومن ثم مضى يرسل إليها حمامته الزاجلة، طاويا غرامه على قدميها، يبثها مواجده وأشواقه وبوح غفواته المؤجلة.

اعتبرت أم حجل الحمامة الزاجلة، إشارة لنبوءتها القديمة، لكنها لم ترد، ولم يتوقف الأرباب عن مكاتبتها، حتى أخذت كلماته الدافئة، تزحف رويداً رويداً، تحاصر أحلامها، وتصيب منامها بالبلل، فتصحو مخدرة، فاترة كالمعطونة في مياه البحر الملون المالح، في أيام الصيف الغائطة المحاصرة برائحة العطن والسبخ الشعراء.

تبدى الأرباب في أحلامها صبوحاً، فحلاً كفارس يمتطي صهوة جواد أشهب، على كتفه الأيسر عقاب، يهيمن على جسدها، ويجعلها ترتعش في كبد الليل، حتى مطالع الفجر. دون أن تشعر بشخير العمدة، وغطيطه الذي يملأ الدار.

فأصبحت أم حجل بمرور الوقت كالمسلوبة، إلى أن أطلقت الحمامة الزاجلة، بأمانتها في الشوق واللوعة. فانطلقت بينها وبين الأرباب، الحكايات، التي حملتها الحمامة، في المساءات الندية، وهكذا اتفقا على الخلاص من العمدة، ليئدا حدَّة الحنين الذي يتقد داخلهما، ويقض عليهما المضاجع، ويجعل كل شيء حولهما مسيخاً لا طعم له.

"الحوار الفقير المهاجري" الذي علقت منه أمونة بفاطمة السمحة،كان يخبيء بين جوانحه سراً لا يعلمه سواه ف "هو اصغر أخوة الأرباب" في دياره البعيدة،

التي هرب منها بسبب تآمر إخوته على قتله. فإخوته الذين تآمروا على الأرباب يوماً كانوا قد تآمروا عليه هو الآخر. فقابلهم بقسوة وألب والده ضدهم، فلم يتمكنوا منه، بسبب حماية أبيه له. الذي كان لا يزال يعاني حسرات فقده للأرباب، رغم مضي السنوات الطوال.

ولشعور الحوار المهاجري بالحماية المسبوغة عليه من أبيه، أخذ يعيث في البلدة فساداً. فقد كان مغرماً بالسلطة وممارستها، وما أن مات الأب، حتى هرب يستجير بالعمدة الكبير، الذي أمنه على حياته، وزوجه من إبنته، ورده إلى بلدته غانماً حاكماً من قبله، فقد كان بين والده العمدة وعمدة عموم دار الريح ودٌّ كبير وحبل من الصداقة والوفاء.

عندما استقر المقام بالحوار المهاجري، أعمل سيفه في أعناق إخوته، حتى لم يبق منهم إلا من نجا بنفسه. حتى إخوته الأطفال العديدون، أضطرت أمهاتهم أن تلبسهم "الكنافيس" حتى يتشبهوا بالفتيات، فينجون من الموت.

كانت دواخله تمور بنوع غريب من القلق، الذي يدفعه للقتل وسفك الدماء، إلى أن مضى به الحال، إلى قتل زوجته، لإثواء هذا القلق، الذي يعتمل داخله كمرجل، بتقديمها قرباناً للغربة التي تتملكه، وتعمل فيه أنيابها -وفقا لمشورَّة الفقير الفلاتي يعقوب، الذي خلفه أبا جريد وراءه قائدا لطائفته السرية الوليدة- لكن تقديم زوجته قرباناً، لم يئد حدة تعطشه للدَّم، فقد كان يبحث عن شئ

غامض بالنسبة له.. شيء لا يدري أين يجده، فأوعز له يعقوب، بأنه إنما موعود بـ "نبؤة الحكم الغامضة" التي يبدأ تحققها من اتصاله برحم صبية كالبدر، وهو في غربة أشد، مشرداً وطريداً.

هُوية الحوار المهاجري، الفقير، الغريب، كانت مزيجاً غريباً من القلق والتوتر.

كان منقسماً بين ولاءه لدار الريح كما هي عليه، وولاءه لحلم ظل يغذيه فيه الفقير الفلاتي يعقوب، فيدفعه لسفك الدماء. فقد أشرف يعقوب، على تعليمه منذ نعومة أظافره، محطماً الآراء المحلية التي صاغته، في مخدع والديه، فاتحاً أمامه أبواب النبوءات الغامضة، لعالم لم يره. عالم واسع.. مدخله إليه "الطائفة السرية" التي يقودها يعقوب، على نحوٍ بالغ التعقيد. إتقاءً لضربات عمدة دار الريح الكبير، الذي كان وقتها قد تحالف مع الهلاليين. وعندما أحكم أعداؤه حوله الحصار، تآمر على معلمه يعقوب، وقدمه ككبش فداء لسلطاته المتنامية.

اعتقل الأهالي يعقوب. أقتادوه مقيداً وعلى وجهه آثار التعذيب، والأعياء الشديد، وشنقوه على مدخل البلدة، دون أي محاكمة. بعد أن فشلوا في انتزاع اعترافاته، بأسماء أعضاء طائفته الآخرين.

كان العمدة الكبير وقتها يتأهب للثأر لإبنته، يتآكله الحزن عليها. ومع توالي صعود الحوار المهاجري في سلم المجد، بالإستيلاء على البلدات حوله.

كان العمدة الكبير وإخوته غير الأشقاء، الذين نجوا من مذابحه، قد أحكموا الحصار حوله، فلم يجد ملاذاً سوى الهرب.

وقتها خرجت الأغاني والشائعات، التي تفيد باعتقاله ومقتله. حتى أن الحكامات ألفن أغنية، على غرار الجراري الحزين، شاعت في مشارق ومغارب البلاد الكبيرة. منتشرةً انتشار الريح في الأرض الفضاء:

ود العمدة ويعقوب مسكو * للحبس ودو ود العمدة ويعقوب مسكو * متل الكبش قادو.. جريتو جيتو * متل القديم تاني وين تلقو...

هرب المهاجري من دار الريح كلها، لا يلوي على شئ، إلى أن وجد نفسه في بلدة الأرباب، فقصده وصار حواراً له، دون أن يكشف له عن سره أبداً.

ولحظة رأى أمونة أدرك إنها هي ذاتها، ما قالته نبؤة الفقير الفلاتي. أنها ذاتها الشئ الذي يبحث عنه. ذلك القلق الذي لطالما استبد به، إنما كان من نداءها له.. هو النداء ذاته الذي يراه الآن في عينيها، في ضرباتها الخفيفة الناعمة على الدلوكة.. في إنثناءات جسدها.. الذي يتلوى كأفعى.. تحت الغلالات الشفافة، رامياً ظلاله بين ألسنة النيران.. تربط منديلها الحريري على خصرها الناحل، وتتخطر كالنسيم.

كان يرى طيفها وهي ترقص كساحرة تخرج من أعماق ذاكرته العاشقة. يرى طيفها في كل مكان. وهو في الحقول. عند عرديبة الدود. وعندما يسبح في مياه الوادي الباردة. ويخرج منهكاً، يستلقى على الرمل. يرى طيفها في كل شئ حوله: مياه الوادي. هدوء المكان. حفيف الشجر. يراه حتى في دواخله..

كان كالذي تتقاذفه الأمواج، لتلقي به منهكاً، إلى هذا الطيف، لكن متقد الجذوة لا يزال.. هذه الجذوة التي تمضي.. مع الطيف يعتليان معاً صهوَّة السمندل أو يتفتقان عن الظُلمَّة، والأعشاب المتشابكة كالعنكبوت، والجافة.. تشعلها الجذوة كنار عظيمة..

كانت تتراءى له حتى في كبد البدر، والنجيمات البعيدة، فلم يعد يحتمل. فقد شعر بالحصار ينهكه، الأمر الذي دفعه إلى الأرباب، يطلب يدها منه.

كان الحوار المهاجري قائد طائفة الصيادين، في الوادي العميق البوح واللهفة، وكانت زوجته أمونة، عادة لا تأكل إلا عندما يحضر من عمله، فتطعمه ثم تأكل بعده. هكذا مضى بهما الحال، إلى أن تأخر الحور المهاجري في أحد الأيام، فقلقت عليه أمونة، وحملت الطعام، إلى حيث اعتاد أن يرمي شباكه وسناراته.

تلفتت حولها على امتداد الوادي، فرأته يبتعد في طوفه الخشبي، فاطمأنت، واستلقت على حافة الماء، مستظلة بشجرة جميز كبيرة.

كانت الطيور تغرد مسبحة بحسن أمونة، فاعتراها خدر لذيذ. تجردت من ثيابها ونزلت إلى الماء. غطست حتى نال منها التعب، فعادت إلى الشاطئ، وعندما همت بارتداء ملابسها، وقع بصرها على زوجها الحوار المهاجري، الذي كان يحدق فيها مذهولاً! فتناولت ورقة جميز، تستر بها عورتها، وألقت بنفسها مرة أخرى في الماء.. حتى اختفت!

كان قد اعتراها خوف شديد، وكأن قوة مجهولة تسحبها، إلى أعماق الوادي، فتوسلت قائلة:

"يا سيدي الأرباب، أنقذني من الغرق، حتى لو صيرتني سمكة"

واستجاب الأرباب دعائها!.. فأخذت تسبح باتجاه زوجها، وكلما سبحت تجاهه، تجد أن إتجاه سباحتها قد تغير للاتجاه المعاكس، فأخذت تبكي وذراعيها تضربان في الماء بعيداً، بعيداً عن المهاجري، الذي كان لا يزال مذهولاً في وقفته،كالمسمَّر إلى الأرض، إلى أن شهق شهقة عظيمة، إنتفض لها جسمه كله ومات واقفاً..

وتحول جسمه إلى شجرَّة جميز ضخمة، ممتلئة الجذع. ولم تمض سوى أشهر قلائل، حتى خرجت أمونة من مياه الوادي. ربطت حبلاً من ليف القمبيل المجدول، في أحد أغصان الجميزة ممتلئة الجذع، تساعدها الحوريات..

وباعدت بين ساقيها، وهي ممسكة بالحبل، لتلد طفلتها -التي ستصبح فيما بعد فاطمة السمحة. التي عندما يجدها الجيران عند خيوط الفجر الأولى، في خلوتهم مغطاة بمنديل أمونة الحريري، الذي كانت تربطه في صلبها، عندما تضرب على الدلوكة، وقربها مشيمتها وحبل سرتها الذي لم ينفصل عن المشيمة بعد- يهتفون بالأرباب، الذي يجيئهم مبتسماً وهو يقول:

"إنها فاطمة السمحة طفلة أمونة ضرابة الدلوكة"

أمر الأرباب بعد ذلك النساء، فمضين في موكب إحتفالي إلى الوادي، يرمين في مياهه الخبز، بعد أن وضعن مشيمة فاطمة السمحة، في قدح خشبي غطينه بمنديل أمها الحريري، وقذفن به مع الخبز، ورمين خلفه الحجارة، وهن يرقصن ويغنين فرحاً بالمولودة.

عزل الأرباب فاطمة السمحة مع جدتها أم حجل، في دار مقتطعة من داره الكبيرة، حيث لا يراهما أحد، ولا يرين أحد، سوى الذين يقومون على خدمتهما.

كبرت فاطمة وأشتد جمالها، حتى ملأ خبرها بلدة الأرباب، ودار الريح والصعيد والسافل!

في الليالي الخريفية المقمرة، كانت فاطمة السمحة تذهب إلى الوادي، تخلع ثيابها وتغطس في الماء، فتأتي أمونة وصديقاتها الحوريات. يحادثنها ويلاعبنها،

ويأخذنها بعيداً إلى أعماق الماء، حيث المدن المغمورة وحيث البحيرات تحت مياه الوادي، تتفجر في مجرى واحد عميق، تفضي عيونه إلى بحر العرب ونيل دار صباح والبحر المالح الملون.

كان ود النمير لا يقل وسامة عن جمال فاطمة الساحر. نساء كثيرات دعونه إلى فراشهن، لكن قلبه لم يخفق لإحداهن أبداً.. كان وحيداً كفاطمة. عندما يمل عمله، في تأمين بلدة الأرباب من الخونة والمارقين والخوارج العملاء والجواسيس والثورات والتمرد -طبعا كان كل ذلك مفترضاً ومحتملاً فقط، إذ لم تكن ثمة مقاومة تستدعى كل هذه التوصيفات العجيبة- يخرج من منزل جده الأرباب. ويمضي هائما على وجهه.. يغيب الليالي الطوال، متجولاً في الوديان والغابات، وعندما يعود يتجول في البلدة، يحاول أن يتأكد مما تنقله إليه العيون. فتتبعه الفتيات العاشقات، ولكن لا يستجيب لهن. إلى أن غضب منه الأرباب ذات مرَّة:

"أنت لست زبلعياً حقيقياً.. ودعا عليه قائلاً:

"أتمنى أن تقع في شراك حب، لا تخرج منه فائزاً.. أول مرَّة رأى فيها ود النمير فاطمة السمحة، في تلك الظهيرة الحارقة -وقع في شراك ذلك الحب- إذ وقف مأخوذاً، يهيمن عليه سحرها، وقلبه قد انتفض بشدة، وعلامات دعاء الأرباب، تومض في ذاكرته كبرق خاطف.

إنتابته حالة أشبه بصحوة جبارَّة، تتخلل زوايا ذاكرته ووجدانه، لتحاصره بعالم طفولته المنسية.

كان شارد الذهن في حلم موغل القدم. أسير لإيقاع، يحاول النفاذ إلى أعماق لا وعيه. يلامس جانباً حساساً، ومهملاً في حياته اليومية، الزاهدة في النساء. كبرق البلدة الخلب عند قبة الفقير الأرباب، في الليالي الحالكات..

إنتفض وجدانه فتبع فاطمة مسلوباً، مغيراً دربه. وكانت هي الأخرى، قد ألم بها ما ألم به. وعندما وصلت مكانها المعتاد، عند ضفة الوادي، تحت شجرة الجميز الكبيرة، توقفت تسأله:

"مالك تمشي وراي؟!"

فأخبرها عن حبه لها. فصمتت ساهمة، وقلبها يدق كحجر الرَّحى. كانت تشعر بشعور لم يخالجها، من قبل أبداً!

دنى ود النمير منها. وهي كالمجمدة. احتضنها وهي كالمصبوبة على إتكاءاتها، على الجميزة ممتلئة الجذع. تملكها الحب، وأنتقلت النار التي أشعلها جسده إلى جسدها.. استلقيا على العشب.. كان طائر السمندل أعلا الشجرة.. يزقزق إلى رفيقته، يتداعبان بمنقاريهما. وكانت فاطمة توغل في رائحة عرق ود النمير..

توحدا وتحولا إلى كتلة من النار.. وقع طائر السمندل في مياه الوادي. فتطاير رشاش الماء. ضرب بجناحيه وخر واقعاً.. ضرب بجناحيه وخر واقعاً.. ضرب

بجناحيه وخر واقعاً.. ضرب بجناحيه فرفرف، رفرف ورفرف.. تمكن من التحليق مرة أخرى، وحط قرب رفيقته، في أعلا الجميزة.. مداعبا بجناحيه المبتلين، جسمها الحريري الذي همد على عش أحد الطيور!

شعر ود النمير بالعطش، فنهض عن فاطمة، التي غابت في خدر لذيذ.. انحنى ليشرب من مياه الوادي. فرأى صورته تنعكس على صفحة الماء.. في البدء حسب صورته: فاطمة قامت من خدرها. تلحق به.. هفا إليها مرَّة أخرى مسلوب الإرادة. وفاطمة واقفة خلفه، وقد تملكها الحب من جديد.

حاول تقبيل وجهه المنعكس، على صفحة الماء، وضم خياله..

بكت فاطمة وهي تحاول رده إليها.. بكت بنواح حزين، فالتفت إليها غاضباً. ودفعها بعيداً عنه بقوَّة..

كانت شمس الظهيرة قد إختفت. ادلهم الليل فجأة، وانفتقت السماء عن قمر مشوّه، وكان ود النمير لا يزال، محاصراً بالحر والرطوبة. والقمر بهالته المتقشعة عن السحب العمياء، والهواء العطن، يبعثان داخله شياطين الجحيم من مراقدهم..

نذر عاصفة أوحى بها الجو، تدفعه لمقاومة الإحساس المفاجئ، بكل ما حوله.. استلقى عارياً يمد عنقه للمياه. كان وجهه قد إختفى. وليس ثمة إنعكاس سوى لقمر حزين، ملطخ ببقعة سوداء، في مياه الوادي التي بدت على غير العادة قاحلة.

وكانت فاطمة لا تزال تتقلب على الرَّمل باكية. مغمورَّة في العشب. وكل حياتها تمضي أمام ناظريها. والقمر المفاجيء يسقط ضوءه، على تعرجات جسمها الحزين، يتحسس بكائها. يتلمس فخذيها. خاصرتها. أشرميها اللذان سال منهما الندى والدمع غزيراً..

كانت ترتعش، كقطة بللها المطر والبرد، ودواخلها تغلي كمرجل هائل، لم يشهد له تاريخ الغضب، في بلدة الأرباب مثيل. نهضت فاطمة، وأمعنت النظر مليا في ود النمير، الذي كان لا يزال، منكفئاً يحاول رؤية وجهه المنعكس، ثم رمت بنفسها في أعماق الوادي، الذي سحبها إلى أعماقه السحيقة!

في إحدى الليالي المقمرات، خرجت فاطمة من أعماق الوادي. وضعت طفلتها من ود النمير "تاجوج" تساعدها أمها وحورياتها. فتحت شجرَّة الجميز، ووضعت طفلتها بجوفها، ومضت بصحبة أمها وحورياتها. بعد مضي وقت ليس بالقصير، إنشق جذع شجرة الجميز الضخمة، وخرجت تاجوج، بوسامة ود النمير وجمال فاطمة الوضاح..

كانت الخالق الناطق نسخة منهما. كأن ثلاثتهم فولة واحدة وانقسمت إلى نصفين متطابقين.

وقتها كان ود النمير قد أصيب بصدمة، ضعضعت كيانه.. كان كالذي يفيق من حلم كثيف الحجب، أخفى عنه لبرهة خاطفة، حقيقة حبه لفاطمة، فشغله بصورته المنعكسة على صفحة الماء، لبرهة فحسب.. برهة كانت كافية كي تتلاشى فاطمة، أمامه في لجة الماء..

بعد أن أفاق من تسمره، وهو يراها تسبح مبتعدةً وتغوص عميقاً سبح خلفها.. قطع مياه الوادي من أطرافها إلى أطرافها، بحثاً عنها. لكن فاطمة كانت كفص ملح ذاب في المحيط العريض.

أصبح ود النمير يجلس كل يوم على الشاطئ، تحت الجميزة التي إتكأا عليها، واستلقيا تحتها.. يستعيد محاولتهما معاً في خضم هيمان الروح، وهيجان الجسد وثورته العارمة، عبور الجانب الآخر، من الهاوية التي تفصل بينهما.

يبكي بصوت حزين حيناً، ويغني حيناً آخر، مع نواح السمندل والقماري، في أعلا الجميزة..

لم يلبث السمندل أن أشار عليه، بالمضي في دريب الريح، حيث الفقيرة العجوز مسك النبي صاحبة القهوة، فهي الوحيدة التي ستشير عليه بما يفعل. وقبل كل ذلك عليه أن يقصد الأرباب، يطلب صفحه، ويشكي له مواجده.

فقصد ود النمير الأرباب، شاكيا متاعبه:

"إنها دعوتك علي يا الأرباب. أصبت بالحب، الذي خرجت منه مهزوماً" إبتسم الأرباب وأطرق برهة من الوقت، ثم قال في صوت عميق:

"لن تعود فاطمة سيرتها الأولى، إلا إذا تمكنت من تهريبها عبر هذه المرآة.. مرآة حجر كوتو المقدس. إنها صفحي عنك"

كان الأرباب قد أدخل يده في تلا فيف جلبابه المرقع. ليخرج المرآة. فقد كان يرغب في رؤية حفيدته مرة أخرى.

مد المرآة لود النمير وهو يستطرد:

"عند غروب الشمس. وإذا تأخرت لحظة واحدة عن الغروب، تختفي فاطمة مرة أخرى. تأخذها مياه الوادي هذه المرة دون عودة"

أخذ ود النمير المرآة ومضى باحثاً عن فاطمة في الوديان. متنقلاً من وادٍ إلى آخر. إلى أن ذكره السمندل والقماري، التي على الجماميز والقمبيل، في إمتدادات الوديان، بهديلهم وغنائهم مرة أخرى، بالفقيرة العجوز مسك النبي. صاحبة القهوة. والدة الأشرمين. فعرج على دريب الريح، ومضى إلى أن انتهى إلى قهوة مسك النبي.

في الصباحات العديدة، التي تكشفت عن مسيرة بحثه المستميت، عن فاطمة السمحة.. بحثه الدائم عنها في الأودية والشعاب،كانت دائماً من بين كل الصباحات، ثمة صباحات مثل نبع خفي في الذاكرة.. صباحات خالية من العكرة، تتسم بصفاء غريب، يتخلله طيف يعرفه ولا يعرفه. طيف لعجوز محدودبة الظهر، لها عيني فاطمة. يحاول القبض على ملامحها كلها. إعتقالها. خوفا من صيرورة النسيان الحتمية، فتفلت عبر شراك هديل السمندل، وفخاخ زقزقة عصافير الجنة الملونة، التي تملأ الوادي..

كان يفشل دائما في تلك الصباحات المخصوصة، في القبض على ملامح العجوز، التي كانت تعبر عن نفسها في محض إحدوداب، وعينين فتيتين هما عيني فاطمة ذاتها..

الصبيحة التي وصل فيها، إلى قهوة مسك النبي، كانت أشبه بتلك الصباحات الهاربة، التي أفلتت من مطارداته. برؤيته لمسك النبي، رأى الوادي يأتي إلى فراشه بفاطمة، ليتلاشيان معا في عيني العجوز وإحدودابها، إذ ما أن رأى العرَّافة العجوز مسك النبي، حتى أصيب بما يشبه الصاعقة، تتخلل سريان دمه، أحس بشئ غامض يربطه بها. وخطر في ذهنه لبرهة خاطفة، لحظة رأى إبني مسك النبي الأشرمين، فرج فاطمة الأشرم!

في تلك الظهيرة التي انقلبت فجأة ليلة ليلاء، أخبرته مسك النبي: أنه لو أراد لقاء فاطمة مرة أخرى حقاً، لما بارح المكان الذي فقدها فيه..

فعاد ود النمير مرة أخرى، إلى الوادي ووصل، إلى شجرة الجميز.. جلس حيث اتكأ وفاطمة واستلقيا.. جلس حيث تلاعبت بثيابها أنفاس لهاثه الحار.. جلس وهو يتحسس مرآة كوتو بين لحظة وأخرى، يقاوم النعاس.

في هذا الوقت كان مشايخ دارصباح، قد أنهوا أعمال تصفيتهم لكل من تبقى من طائفة جانو قرمط، واتصلوا بالصعيد والسافل ودار الريح، يعلنون مخاوفهم المتنامية من بلدة الأرباب.. هذا الخطر القادم من الكهوف المعمورة في قرون دار صباح المنشية.. ومن أزقتها ودهاليزها التي تفضي إلى عوالم أسلاف عابرين السبيل في زمن سحيق، ضارب القدم.

وهكذا أخذ مشايخ دار صباح، يرسلون إلى كل الديار المجاورة بان يبعثوا لهم، بكل من يشتبه في إنتمائه، لطائفة أبوجريد حتى ينالوا لذة التمثيل بجسده. فأرسل لهم عمدتا الصعيد والسافل: أنه لم يبق لديهما، من الزنادقة المنسوبين إلى طائفة أبو جريد أحد على قيد الحياة...

وكانت هذه الأخبار المتواترة، قد بدأت تقلق الأرباب، وتقض مضجعه. الأمر الذي كان يدفعه، لاتخاذ المزيد من إجراءات التأمين للأرباب وحواضرها الأسيرة!

القسم الثاني

١

بلدة الأرباب..

أشبه بتلك الحواضر السحرية، القابعة في رحم التاريخ الغابر، أو هي جزء من الجنة الأرضية، كما يتصورها خيال مراهق أعمي مستبد.. بالثياب الملونة لسكانها. ورائحة القمبيل العطرَّة، التي تتنفسها الأشجار، على شطئان أوديتها الثلاثة، فتملأ رئة البلدة وخياشيمها، التي تزفرها للريح، لتحملها بدورها إلى دار صباح والصعيد والسافل.

رائحة القمبيل المنعشة الباردة، تبعث في نفوس العشاق، مزيجاً من الأحاسيس اللاهبة، فيهتاجون ويمضون لتوهم -عندما تلامس رائحة القمبيل أحاسيسهم وأخيلتهم- يبحثون عن حبيباتهم الظمئات، اللاتي يكن لحظتئذ، قد سرت فيهن،

رائحة القمبيل كطيف عاشق، يزحف ويدنو ببطء، يشم الخياشيم ويلثم الأفواه، ويحاصرهن بنوع من الخدر اللذيذ، حتى إذا اجتمع العشاق إلى حبيباتهم، يصمت كل شيئ، وتبقى العيون وحدها ورائحة القمبيل، وبوح السمندل!

غلالة سرية تحيطهما في إرتفاع أنفاسهما الحارة، وإنخفاضها المنتظم. بلدة الأرباب ذاتها، تشبه أنثى منفرجة الساقين، فالوادي الكبير الذي يتوسطها، بمثابة البطن والرأس في تعرجاته البارزة، وعريه المجنون، الذي يمنح عشاق البلدة، متكأ للوجد والمواجد، في ليال الصيف الغائظة.

وواديها الشرقي والغربي -الأشرم- كفرج مزدوج، تنهض فيه عرديبة الدود، التي نمت في هذا المكان، الذي كان أرضاً جرداء، دفن فيها الأرباب، جمجمة أبا جريد، عندما فشل في تحنيطها، والإحتفاظ بها مخفية قريبا من مخدعه، دون أن تزعجه برائحة الشعراء.

لم تلبث هذه الجمجمة، أن دودت الأرض، ثم انفتقت عن عرديبة خضراء..

كانت عرديبة الدود، بمثابة كرامة إضافية في رصيد الأرباب. ولهذا السبب، أصبحت مكانا رسمياً لكل الإجراءات ذات البال، بدءً من عقد القران، وإنتهاء بالإعدامات، مروراً بالاحتفالات الموسمية، خصوصاً ليلة الأنس الكبيرة..

كل هذه الأمور يتم إجرائها، تحت عرديبة الدود. وهذا الوادي الأشرم، بمثابة الردفين والساقين. تسكن أشجاره طيور السمندل، التي تضرب بجناحيها في

أعماق الخواطر اللاهبة، تستخرج الحكايات الميتة، وتبعثها من جديد للحياة: حكاية لاهثة مجنونة متوترة تلو أخرى. ولا تصمت، إلا بعد أن يقضي العشاق أوطارهم، وهم يستنزفون مشاعر بعضهم بعضاً. وقد نال منهم الخور. وتخلل زنخهم المزيج من رائحة الشعراء ورائحة القمبيل، ورائحة الدُّعاش القادم من جوف الوادي المبتل. لتبدأ هذه الرائحة الباردة في الإنخفاض، مع حرارة الجو وبوح عرقهم المنداح، كدوامات تتبدى عنها الحكايات المذكرة والمؤنثة، للسمندل الخُنثى.

عند هذا الحد تهدل القماري، ويضرب السمندل بجناحيه الهواء، فيشقه نصفين، يجذبان بعضهما بعضاً، للالتئام مرة أخرى، ولا يخفض السمندل جناحيه، إلا عند الوادي الأوسط، في قلب أشجار الجميز والقمبيل.

تلك بلدة شيدها الأرباب من تلافيف أسرار معلمه أبو جريد، ومن بوحه لعشيقات بعضهن في الذاكرة، وبعضهن في القبر. وبعضهن ظللن محض خيال، أو طيف يراوده، لكنه لم يلتقيه أبداً، إلى أن قتل في هجوم الجيوش المتحالفة على بلدته..

فقط أطيافهن تلاحق إستمناءاته الحارة، في ليال عزوفه المتعمد عن زوجاته التسعين.. من كل ذلك، ومن ذكريات هروبه من دار الريح طفلاً، وكراماته في

شعب بلدته، شكل الأرباب هذه البلدة المزيج من شجن وبوح وغفران، وصفح وغدر!

فكانت الأرباب بلدة ذات تضاريس، ليس كمثلها تضاريس. برمالها الذهبية، حيث تشرق الشمس، وأرضها الطينية القردود، عند الغروب الشقي، وتربتها المزيج من الدم والدموع، في صعيدها وسافلها..

يأتيها الناس عابرين. يحطون رحالهم لأيام، يفعلون كل ما تمنوه يوماً، ويشعرون بسعادة غامرة، ولكن يخالط هذه السعادة، نوع من الخوف والشعور بالغربة، التي تقود الإنسان إلى القبر، إلى أن يتمكنوا من المغادرة بصمت وسرية تامة -هذا إذا نجحوا في المغادرة- وعندما ينجح بعضهم في ذلك ينسى أين كان. كأنه حلم!..

لكن يظل شيء واحد فقط، يتذكرونه، هو: عرديبة الدود، التي في مفترق الأودية الثلاثة، بالتحديد مفترق الوادي الأشرم، لكن حتى هذه العرديبة التي تهيمن على خيالاتهم، لا يتذكرون أين رأوها بالضبط!

قبل أن تصبح هذه البلدة، بهذه السيرة، كانت خاوية، لا يسكنها سوى ثعبان أبو الدرق وأبو الدفان، الذي يخبيء نفسه في رمال الوادي. وطيور السمندل والقماري، وطيور الجنة الملونة، والحمام الوحشي الذي سكن أشجارها مع هذه الطيور، جنباً إلى جنب، كأنهم جميعاً فصيلة واحدة..

حتى الخنزير البري "الكدروك" الذي يختبيء بين أشجار الوادي المتكاثفة، كان يشعر بألفة وحميمية غريبة! مع هذه الطيور!

لكن ما أن إهتدى أبو جريد إليها، حتى استعان بخبرة هروبه الطويل، عندما كلف بتهريب الأرباب، إبن عشيقته زوجة العمدة، التي لم يكن يرفض لها طلباً.

وما أن إقترب أبو جريد، من شبه الجزيرة -وقتها- التي أصبح إسمها فيما بعد: "بلدة الأرباب" حتى هاجه شجن بعيد إلى مسك النبي، التي تركها ذات فجر بعيد، عند منتهى دريب الريح، ومضى خلسة إلى دار الريح، دون أن يخلف وراءه أثر..

كثيراً ما تساءل وهو يعتني بالأرباب، في موطنهما الجديد بشبه الجزيرة: ترى كيف هي مسك النبي الآن؟!.. وماذا فعل الدهر بها؟!.. أهي ذات الصبية الغندورة، التي تركها ذات يوم، أم أصبحت امرأة ناضجة، وتخطت حبهما، الذي لم يمضيا فيه طويلاً.. ترى كيف هي الآن بعد كل هذا الوقت، أهي حية أم ميتة؟!..

لكن لم يجرؤ أبداً على البحث عنها في دريب الريح. كان قد تركها خلفه، منشغلاً بمهام بناء طائفته، في دار الريح، حتى أصاب شهرة واسعة، كفقير يعالج المرضى بحجر كوتو السحري، ويرى ما لا يرى، الأمر الذي قربه من العمدة.

كان أبو جريد يلتقي أتباعه في الليالي المقمرة، في الفضاء خارج البلدة. يقيمون طقوسهم التي لطالما اشتاق إليها، وهو وحيداً في عرين الوحوش، لا أنيس له سوى مخطوطاته، وكتبه العتيقة.

عندما طلبت منه زوجة العمدة، حماية الأرباب. والهرب به بعيداً، إلى حيث لا يعثر عليهما أحد.. لم تخبره أبداً أن: الأرباب إنما ابنه هو!.. الذي حبلت به منه، عندما كان يواقعها في تلك الطقوس، التي كانوا يقيمونها في الفضاء -والتي كانت إستدعاء بعيداً لليلة الأنس الكبيرة- خارج البلدة. وأن العمدة يظن أنه إبنه، بعد أن أقنعته هي بذلك، حتى تأمن شره. وزواجها منه إنما سند قوي يحمي الطائفة، من أعدائها. فليس ثمة سند أقوى من السلطة ذاتها.

وظل هذا سرها، الذي لم تبح به لأحد أبداً. فأبي جريد، لم يكن يعلم شيئاً! لكنها كانت واثقة، ثقة المراة بحدسها الخفي. أن الأرباب بن أبي جريد وليس سواه، خاصة أن الشرمة التي في غلفته، هي شرمة أبوجريد ذاتها -وأن أبو جريد سيقوده حدسه حتما لمعرفة ذلك، وسيرعاه كإبن بطنه فالدم يحن- هذه الشرمة.. التي كانت تخشى أن يراها العمدة، فيدرك أنها علامة لم ترد في كتاب علامات أسرته، ذات الدم النبيل!

فمن دون كل أبناءه منها ومن سواها، لا يحمل شرمة في غلفته، سوى الأرباب. وكل أبناءه الآخرين منها، يحملون علامات أسرته، التي توارثتها جيلاً

بعد جيل! وهي علامات لا تخطئها أبداً عين الأسرة الكريمة التي لا تزال تحتفظ باثر من دماء المقدس سره في عروقها.

وهكذا حرصت منذ ولادته على إخفاءه عنه، إلى أن بلبل أشقاءه البلدة -كما شاع وقتها- فأقنعت العمدة بان أخوة الأرباب، لا محالة قاتلوه. وما لم يدركه العمدة، أنها هي التي كانت وراء هذه البلبلة، وذلك لأن وقت ختان الأرباب قد حان، ولا محالة أن أمر غلفته الشرماء سينكشف، فلا تستطيع حينها دفع شكوك العمدة!

خشيت أن تفقد الأرباب، وتفقد كل شيء معه، فدفعت به إلى أبو جريد دون أن تخبره بأسبابها السرية. فمضى أبو جريد إلى طائفته السرية الوليدة، تاليا وصاياه الأخيرة على يعقوب الفقير الفلاتي، دون أن يفصح له بغرضه الحقيقي، من هذه الوصايا الخاصة بالطائفة وتمددها..

لوقت طويل بعد إختفاء أبوجريد والأرباب. ظل أتباعه ينتظرونه كغائب، سيعود يوما وينقذ البلاد والعباد، ويحرر كل البلاد الكبيرة، واضعا أعمدة دولته المباركة من -عالم الأفكار- الأزلي.

كان أبو جريد يشعر برابط خفي، يربطه بهذا الطفل، منذ احتضن يده في كفه الواسعة، فقرر لحظتها أن يحتضنه كأب، ويمنحه من أسرار أسلافه أتباع جانو،

ما لم يمنحه لأحد أتباعه يوماً.. وهكذا تعهد الأرباب بالرعاية، إلى حد أن منحه حجر كوتو ومرآته السحرية.

كان أول عهد أبو جريد بدار الريح، عندما مضى تاركاً خلفه مسك النبي في ريعان شبابها. مخلفاً وراءه الطريق المفضي إلى دريب الريح، دون أن يعلم أنها كانت حاملا منه.

مضى دون أن يعود، ودون أن تعثر له على أثر،حتى نسيته أو تناسته.. وقتها كان قد تمكن من العمل عند عمدة دار الريح،كخفير لدار زوجته الكبيرة. وحاجبا لديوانه. فقد صدف انه الوحيد، الذي يعرف فك الحرف وربطه، كما أن تجربة غربته الطويلة المؤلمة، وتشرده منذ غادر دياره، في دار صباح طريداً ومطلوباً.. زودته بميزات لم تكن متوافرة في الآخرين.. ميزات هي أول ما يلاحظها محدثه، وهو ينظر إلى وجهه الهاديء، الذي وخطته التجارب المريرة..

وهو الأمر الذي لاحظه عمدة دار الريح، فمنحه ثقته. وأصبح أبو جريد كاتم أسراره، ومرسال شوقه لحبيباته العديدات، وهكذا تعرف أبو جريد إلى أم الأرباب، فجندها إلى طائفته، بعد أن نشأت بينهما علاقة سرية حميمة، من خلف ظهر حبيبها العمدة!

من دم أبو جريد، عجن الأرباب طين البيت الذي سيكون مقره، في البلدة لعشرات السنين القادمة.. ومن أحلام أبو جريد، صاغ الأرباب بلدته السرية

المعلنة، عند تقاطع الأودية الثلاثة ومفترقها، في دريب الريح. مضيفاً إليها من أحلامه الشخصية، الخاصة جداً، كل تطلعاته في الهيمنة على العالم حوله.

كانت هذه الأحلام والتطلعات، استيحاء من سؤال مركزي واحد، يكمن في إستيعاب التحول الذي جعل من الجريدية كطائفة مهمشة، في السابق. تياراً مهيمناً الآن له أجندته وتطلعاته!

وفي خضم هذا السؤال إكتشف الأرباب، السبب الرئيسي لهذا التحول: وهو أن الطوائف، التي كانت نشطة في دار الريح والسلطنة الزرقاء، وانطوت عليها تجربة دارصباح، كفت عن العمل، ولم تعد نشطة كما كانت، وهكذا انطلق يخطط لإنجاز مشروعه الكبير!

٢

عندما تمكن الأرباب من إسترداد أم حجل من العمدة الأعمى، الذي كان -كما يعتقد- قد سلبه إياها، هيمنت عليه لعدة أيام وليال، صورة أبو جريد..

كان كلما دنا من أم حجل ليلاً في خدر النساء، يجردها من ثيابها، تنهض صورة أبوجريد.. كأن طيفه يحول بينهما أو يضاجعها معه. فيخرج مكروباً، مغموماً، وهو يتحسر على ما فعله بمعلمه.

وعندما أنجبت له أم حجل أمونة. شعر بأنها ثمرتهما المشتركة -هو ومعلمه- فأقسم تكريماً لذكرى أبو جريد أن يعتني بها، عناية خاصة، ما بقى حياً.. إذ اعتقد أن أبو جريد، ما اصطفى أم حجل عبثاً دوناً عن كل نساءه التسعين، وما اصطفائه لها، إلا نوع من الصفح والغفران -لما قابله به من غدر وجحود- يمنحه له الآن، حتى يتمكن من مواصلة مشوار حياته، المليء بالمتاعب والصعاب.

وتأكيداً على حرصه على أم حجل وابنتها، عزلهما بعيداً، عن متناول مؤامرات ودسائس بنت مسيمس، التي كانت الغيرة تتآكلها.. فمنذ أن جاء الأرباب بأم حجل، بعد أن قتل زوجها العمدة الأعمى، لم يعد يجئ إلى فراشها، كما كان يفعل في أيامهما الخوالي. في الليالي الشتوية الطويلة، التي يغيب فيها الأرباب عن فراشها، غارقاً في حبه لأم حجل!

تداهم بنت مسيمس، كل ذكريات حياتها المنصرمة، فتجيئها العازة، تحدثها عن حبيبها، الذي كانت تنتابه رؤى ونبوءات: الفرج الأشرم في الليالي المقمرة، حيث تنتصب العازة والسرة بين شرمتي الفرج. وضوء البدر الساقط عليهما يلقي بطيف غامض، يتخلل ظليهما هاتفاً:

"من سلالتيكما يأتي الملوك"

لم تصدق العازة تلك الرؤى والنبوءات أبداً، إلا عندما ولدت بنت مسيمس وأم حجل، بفرجيهما الأشرمين. حينها فقط أدركت: أن ما بينها وبين حبيبها، مقدر

ومكتوب منذ الأزل! ولا يمكن تفاديه، فدست هذا السر وحرصت عليه. أخفته عن كل الناس، ولم تسمح للعجوز الخبيرة، بختان إبنتها بنت مسيمس. حتى لا يتسرب أمر فرجها الأشرم، وهو ذات الشئ الذي فعلته السرة والدة أم حجل، منتهكة عوايد القبيلة، وتقاليدها العريقة.

كانت العازة بكل كثافة وحدتها، في الليالي الموغلة الوحشة، وبكل ما يضج به جسد بنت مسيمس، من شبق لاهب. تداهمها بطيفها. لتعيد لها ذكرى ذلك اليوم، الذي حبلت فيه بها، عندما دخل عليها حبيبها الفنجري خلسة، لا يطيق صبراً فاحتضنها، وارتمى بها على رمل الدار.

وقتها كانت كلبة العازة، قد جاءت بكلب الجيران الذي أخذ يمهمه، ويلف حولها في دائرة متوترة، وهي تحاوره وتداوره.. تتمنع عليه إلى أن انقض عليها، واعتلاها في غفلة دلالها -ربما- كانت الكلبة تعوي، والعازة تشهق شهيقاً معذباً ولذيذاً كخروج الروح.

وظل إحليل الكلب ملتفاً في أحشاء الكلبة، كثعبان أبو الدفان.كلما يجذبه يشتد تمسكها به أكثر..

راحت في إغماء عميق، تخللته رائحة القمبيل القادمة من دريب الريح، تحملها رياح الصعيد النديانة، إلى دار الريح.. لحظتها كان الكلب يفلت نفسه مجهداً ويبول، فتملأ الرائحة الزنخة الشبيهة برائحة الشعراء فضاء الدار..

تشمها العازة فتستفيق، وهي تكح وتتأوه، آهة عميقة الشجن واللوعة، فيمضي حبيبها الفنجري، إلى داره مهدود القوى.

عندما التقت السرة بعد أيام وليال عند رهد الماء، تبادلتا الحديث الملغز، ثم كشفتا عن الأحاسيس الخفية، التي ظلت تلاحقهما منذ تلك الليلة، فحبيبها الفنجري منذ وصل إلى دارها، إتكأ وتجشأ ما يمور في أمعاءه، من وليمة عرس إبنة العمدة، الشهية وقواه تسترد شيئاً فشيئاً..

جلست السرة إلى جواره، فاحتضنها بين ذراعيه.. نظرت إليه مطولاً!

كانت قد أدركت إنها الليلة الموعودة، ولابد أنه بر بقسمه -احتضنها فتمنعت وكلها شوق. هي التي ظلت تنتظره، منذ فتحتها الخبيرة بالموس الحاد.

كانت كلما تلمست العجين على الجرح النازف، تشعر بان أصابعه، هي التي تتحسس الجرح.. هي التي تندفع عميقاً لتصنع جرحا في الجرح.. هي..

نظرت إليه طويلاً، وعينيها تضجان بالشوق والعذاب. فنهض عليها كمن يخوض حرباً، وقد ركبته شياطين البلدة، والوديان المجاورة، بعفاريتها الحمر والزرق، وأحتلها كما يحتل الهلاليون، بلدة مغلوبة على أمرها!

في وحدتهما الكثيفة، بعد وقت طويل، في دار الأرباب. تتذكران معا: بنت مسيمس وأم حجل، تلك الليلة التي أنفقتاها بين أحضان الأشرمين، إبني مسك

النبي، صاحبة القهوة التي عند منتهى دريب الريح. فتختلط عليهما الأحاسيس والمشاعر.

أحيانا تحسان الندم على فراق الأشرمين، فتلك الليلة التي قضتاها معهما، كانت ليلة مميزة، لم تخطر على إحساساتهما المتنامية على بال، إذ لم يذقن طعماً كذاك الطعم، ولا إحساسا بتلك القوة، بمشاعرها الناهبة، ودفقها الذي خلن أنه لن يتوقف أبداً، فقد ابتلت ثيابهما بمزيج لزج، من الدَّم والعرق والرطوبة، وابتل الرمل تحتهما، في دائرة كبيرة، فما شعرتا بملامسة الأشرمين لغياهبهما البعيدة،التي لم تكن قد ارتجت فحسب. بل كأن مسماراً دق في رأسيهما، فحفر عميقاً حتى أخمص القدمين. اللتين تشنجتا وتوترتا توتراً لا حد له.

في وحدتهما الكثيفة، بعد عشرات السنوات، تظل تلك اللحظة العارمة. تلاحقهما بعذوبتها الملتاعة، محمولة على سواعد اللحظة، التي رآهما فيها أتباع الأرباب، والعمدة الأعمى.

في منتهى دريب الريح، عند مدخل البلدة، وثغرها من جهة الوادي الأشرم.

كثيراً ما حاولت بنت مسيمس، تشكيك الأرباب في أبوته لأمونة بنت أم حجل:

"ألا تلاحظ إنها ولدت في ذات اليوم، الذي ولدت فيه ابنتي مرج البحرين؟!"

”إنها مني ومن معلمي أبو جريد. فكفي يا امرأة، لن تنجحي في مسعاك. فلن أشك في أم حجل أبداً، أنا الأرباب. أتفهمين ماذا يعني أن أكون الأرباب؟!“

فتكظم بنت مسيمس غيظها، وتداري أحقادها المخزونة.

كان الأرباب يعتقد أن مرج البحرين، إبنته من بنت مسيمس، قد أنجبت ابنها ود النمير، من إبن العمدة الكبير، الذي هرب بعد وقت قصير، من بداية ونهاية علاقتهما في الآن نفسه، وانقطع أثره!

ظلت مرج البحرين تنتظره، وتحلم به في لياليها المضنية، إلى أن نحل جسمها، وأصابها مرض خفي، فشل حكماء الصعيد والسافل، ودار الريح ودار صباح في علاجه، حتى حجر كوتو المقدس، لم ينجح في علاجه. فماتت مرج البحرين، من الحنين والإحساس بالفقد. ذات ظهيرة شاحبة، ودفنت في مناحة كبيرة، تحت جذع عرديبة الدود، التي تتوسط البلدة. ومنذ كان ود النمير، في رحم مرج البحرين -بعد لم يولد- كان الأرباب لا يكن له عطفا أو وداً، لأن دم إبن العمدة الكبير، يجري في عروقه -كما ظل الأرباب يعتقد- لكنه لم يقوى على قتله، فدمه أيضاً كان يسري في عروق ود النمير!..

ومع ذلك عندما شب ود النمير عن الطوق، اتخذ الأرباب قراراً بدى لكل الطوائف -وطائفة العميان على وجه الخصوص- غريباً. إذ جعل ود النمير، رئيساً لطائفة العيون، التي كانت في ذلك الوقت، قد أنهت بناء الكثير من المخابئ

وبيوت الأشباح، تحت أرض البلدة وحواضرها -لتعذيب الناس، الذين يحتمل أن تكون لديهم اتجاهات مناوئة، في المستقبل- كانت هذه المخابئ قد شيدت في سرية تامة، ولم يعلم أحد بوجودها، سوى الأرباب والمعنيين بها مباشرة. وكانت دهشة الطوائف الأخرى، وطائفة العميان على وجه الخصوص، مصدرها علمهم التام، بأن الأرباب قبل أن يتخذ هذا القرار،كان قد أبدى لأكثر من مرة، أنه سيلعن ود النمير ذات يوم، لعنة لن تقوم له بعدها قائمة!

وظل الجميع بانتظار هذه اللعنة، التي عندما أخرجها الأرباب من طياته، لم يلبث ود النمير، أن أخذ يهيم من وادٍ إلى وادٍ، بحثاً عن فاطمة السمحة!

٣

في وحدتها الكثيفة، بعد عشرات السنوات، يتوقف تيار الزمن: عند أم حجل، في لحظة واحدة، هي تلك اللحظة، التي اتخذت فيها قرارها، بأن ليس ثمة بعلاً جديراً بها، سوى الأرباب، الذي جدد فيها لظى ليلتها اللاهبة مع الأشرم تلك الليلة اللاهثة المتناقضة، التي ظنت إنها لن تتكرر أبداً، رغم الانقباض الذي خالطها.

تسللت أم حجل خلسة من دار العمدة، تتبع الحمامة الزاجلة إلى الوادي، حيث دغل القمبيل. تركتها الحمامة في الدغل ومضت، وكلما حاولت اللحاق بها، يهبط السمندل من أعلا الشجرة، يضرب بجناحيه، فتتراجع إلى الدغل الكثيف، إلى أن أدركت أن السمندل يخبرها: أن تنتظر مكانها. ولم تلبث إلا قليلاً، حتى أطلت الحمامة يتبعها الأرباب.

حملها الأرباب بين ذراعيه، كما يحمل طفلاً صغيراً وأشار إلى السمندل بيديه، فجاء الهدهد والقماري، والطيور، يحملون ورق الشجر الأخضر والليف، ويسوون فراشا وثيراً، وضعها الأرباب على فراش أوراق الشجر، وأخذ يداعبها بلطف ولين..

كان كلاهما صامتاً، ما يفصل بينهما مقدار رجفة، بمثابة هاوية لا قرار لها. عندما عادت أم حجل إلى دار العمدة، كانت ملتبسة الفكر، لا تدري هل حدث ما حدث حقاً، أم أن أحلام قيلولاتها، جنحت بها بعيداً، إلى ليلتها مع الأشرم. فقد شعرت وهي بين أحضان الأرباب، كأنها بين أحضان الأشرم: ذات القوة والعنفوان. ذات التلاشي في بؤرة واحدة، يتجمع فيها هلاك الروح، وغليان الدم والهياج والفوران..

كانا يغرزان اظافرهما في لحم بعضيهما، وينشبان أسنانهما أحدهما في الأخر، ويكزان على أسنانهما بهوس. حتى يكاد الدَّم يخرج من ألسنتهما المتعانقة.

كان الصمت قد عم الوادي، وليس سوى حفيف أوراق متساقطة، ووقع خطى على سكة لا متناهية. أنه ذات الشعور الذي انتابها عندما أفاقت من نومها، تتفقد رجلها الأشرم. لكنها لحظتها، تمكنت وأختها من التغلب على هذا الشعور، فهربتا.

تدرك الآن، أنها لن تستطيع، مقاومة سطوة الأرباب، الذي أيقظ فيها ذكرى ليلة بائدة، ظنتها نسياً منسياً..

لحظة منصرمة، انطفأت مع الأشرم. اللحظة التي جاهد العمدة لإشعالها أو إخماد طيفها إلى الأبد، ففشل..

وظلت أم حجل، تحكي لإبنتها أمونة، عن هذه اللحظة بالذات، كأنها تتلو تعاليما مقدسة، من كتاب أبو جريد. فتشعر أمونة، بقوة اللحظة تحاصرها. تتخلل شرمتي فخذيها، بعنفوان طيف غامض الملامح، يأتيها في الصباحات الباكرة، قبل أن تتسلل خيوط الفجر الأولى، لتنعكس على قبة الفكي الأرباب، فتملأ دروب البلدة، وأزقتها وحواريها..

لذلك عندما رأت الحوار المهاجري، رأت فيه ملامح ذلك الطيف الغامض، الذي يزورها في منامها، ويجعلها تصحو في البواكير الباردة: متعرقة، ساخنة، كالخارجة من فرن.. يحمل مروره رائحة القمبيل والجميز، ويحلق بها خافقاً

كجناحي السمندل، فتغيب في رعشته.. منذ رأته غادرها وقارها، وتمنعها الذي عرفت به..

أومأ لها. فأومأت له. وصارا يلتقيان في المفترق الأشرم للوادي الأوسط. يتوغلها بهمسه، ويحتلها محاطاً بنكهة غامضة، مصحوبة بهديل القماري والسمندل، فتفتح عينيها.. يختفي الوادي والسمندل والجميز والقمبيل، ولا ترى سوى عرديبة الدود شاهقة، في منتصف المسافة بين السر والجهر، والشك واليقين..

تنبعث كطيف يتوحد في جسمه الفارغ، الذي يدب فيها كله شيئاً فشيئاً. مخترقاً شرمتها اليسرى. فتسحب ساقيها وتغيب في زمان ومكان آخرين. خارج حدود بلدة الأرباب. فلا ترى سوى طيور الجنة الملونة، والسمندل يتبختر أمامها كطاؤوس..

ترمي بنفسها في الماء، وهي تراه.. حبيبها، يشهق ميتاً، فتكفنه الحوريات بكسوَّة من ريش الطاؤوس، وشيئاً فشيئاً، يستحيل إلى جميزة ضخمة.. جميزة أضخم من عرديبة الدود والحرازة أم قد!

كان التحول التاريخي، الذي شهدته البلاد الكبيرة، إلى شكل مختلف من الهيمنة، عن تلك الهيمنة -التي كانت في السلطنة الزرقاء أو ممالك دار الريح

البائدة، أو تلك الدولة المسخ، التي نشأت في دار صباح وقررت إستعمار مصر والحبشة، بل طمحت لمد نفوذها حتى ليبيا السنوسيين، أو حتى جلابي ود عربي، الممتدة كمفهوم متحول في الزمن والمكان -هذه التحولات التاريخية، أنتجت نموذجاً مشوهاً سريع التبدد والزوال، في البلاد الكبيرة، في كل المراحل المتعاقبة، وصولا للحظة إعلان دبك لثورته الفاشلة، وبعد أن تمكن البيض ذوي الدماء الزرقاء من الاستيلاء، على دار صباح والهيمنة على العقول إلى أجل غير مسمى، أو بعد خروجهم وإفساحهم المجال، لدار صباح لتكرس لذاتها المنعزلة.. كدولة موحدة محتشدة الموارد، متمركزة على النهر، والتي شكلت من عناصر دولة تتسم بالفناء، تنطوي على تجاريب التبدد والزوال في ممالك البلاد الكبيرة قاطبة، من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ومن أقصى غربها إلى أقصى شرقها، عبر تاريخها المديد.

وهكذا جاءت التجربة الجديدة، لعمد ومشايخ وزعماء طوائف دار صباح، بمثابة شبكة من السياسات التي ترتبط بقضية الهوية.

وعندما حاول أبو جريد إختراق هذه الشبكة، جعلت منه دار صباح فزاعة للطيور، أو خيالا للمآتة.. كانت قد شوهته على نحو ممسوخ!.. وهكذا ظل الصراع والصراع المضاد، هو ما يحكم العلاقات البينية، التي كانت تؤكد على

الدوام، أن شبكة العلاقات التي تمت صياغتها في دار صباح، تنهض في الإنتهازية بدلاً عن الحقيقة!

وشكل ذلك، أساساً مشتركاً، تقاسمته مع دار صباح، كل من دار الريح والصعيد والسافل، وفيما بعد مثل هذا الوحش مرتكزاً نهضت عليه بلدة الأرباب، التي كان مؤسسها يتوقع زيادة في الإهتمام بهوامش حاضرته وصدوعاتها.

الإهتمام بتلك البقع المبهمة والملتبسة، حيث تبدو قوة الأرباب كنظام هيمنة: مهتزة لا رسوخ فيها.. تلك الهوامش الظليلة، حيث تطمح دار صباح لنفوذها في صمت، فإذا ما كان من المتعذر إختراق دار صباح، فان من الممكن إنتهاكها لحظياً على الأقل. وهو ما كانت حملات الغزو التي تقوم بها بلدة الأرباب رغم مشكلاتها الخفية: تحاول أن تقوله لدار الريح والصعيد والسافل.. أنه من الممكن سبر النظام -الدار صباحي- وجسه، بحثاً عن تلك النقاط الحساسة للألم -هذه المناطق التي يعرفها الأرباب في دولته جيداً- حيث تبدي سلطة الهلاليون علائم الإنحلال والتداعي!

لكن مع تكرار الغزوات تأكد تماما للأرباب، أن عدم وجود مركز يعني عدم وجود هوامش أيضاً، بالتالي إدراك كئيب للتواطؤ بين المركز والهامش، والقوة والإنحلال، وللعبة القط والفأر الجارية خلسة بينهما، بالتالي لا معنى للإحتفاء

بكل ما هو هامشي، بوصفه إيجابي، فما هو هامشي وفقا لتجربة دار الريح ودار صباح ينطوي على انتهازية مقيتة؟!

كانت فاطمة السمحة منطوية على نفسها، كحوصلة داخل شرنقة، من حكايا أم حجل ونبؤاتها، وذكريات أيامها الخوالي!
كان كل يوم يمضي من حياتها، بمثابة سنوات طويلة، من حكايا تغذيها بطيوف غامضة، مصبوغة بالحنين والحمَّى، تسبقها نكهات من روائح أشجار مجهولة، لا مثيل لها بين روائح أشجار الوادي. وتداهمها الحكايا بالرؤى الملونة، التي تأخذ شكل فارس يأخذ بمجامع قلبها.
وكانت قوَّة الروائح ونفاذها، يشتدان بمرور الوقت، الذي تشعر به خاطفاً كلمح البصر، وكلما كبرت فاطمة قليلاً. كان طيف الفارس يدخل، في هالة من الضوء. تبدأ في الإنقشاع عنه تدريجياً. وما أن تكاد ملامحه تبين، حتى يختفي مرَّةً أخرى.
وعندما أكتملت أنوثة فاطمة، وأخذت الجدة لا تستر إلا بارزاً، كان قد سبق هذا الإكتمال، تغيراً في عاداتها، تبعه تغيراً في مناخ الوادي وطبيعته.

إذ ثارت الوديان والشعاب الكثيرة، التي تغذي أودية بلدة الأرباب الثلاثة. في تلك الليلة التي أكتشفت فيها فاطمة، لأول مرة دما بين فخذيها. وتحسست صدرها، فوجدته ممتلئاً، ومتألما على غير العادة!

في تلك الليلة،كانت الوديان تدمر كل ما حولها، إلى حد أن قطعت الطريق بين الأرباب والبلدات الأخرى، ولم تترك حتى الطرق المؤدية إلى الأرباب، من جهات دار الريح والصعيد والسافل ودار صباح! إنمحى دريب الريح بغضبة المياه الهائجة،كأنه لم يكن موجودا يوما!

إذن شكل بلوغ فاطمة -نضج الأنوثة- نقطة تحول مركزية، استوقفت حتى الأرباب ذات نفسه طويلاً!

فقد إستشعر كما أستشعر الجميع، من غضبة الوادي، مخاوف لا حصر لها فقد تحول بلوغ فاطمة إلى كابوس، يجسم الذعر والهواجس والظنون!

وعندما أنجلى الموقف، ولملم الناس شتات أفكارهم، وهم يتفقدون بعضهم البعض، متغاضين عن غباينهم وعداواتهم.

كان لحظتها الألم في صدر فاطمة قد توقف، وقل دم دورتها، ولم يعد يسيل فائرا كما الأمس.. وكانت الشمس قد أشرقت، وبدت بلدة الأرباب خضراء ممتلئة بالفراشات وطيور الجنة الملونة على غير العادة!

كأن ما جرى لم يحدث على الإطلاق، فتغيرت هواجس الأرباب إلى نبؤة جميلة، وابتسم وهو يزور فاطمة، وظل مبتسماً حتى خرج منها..

كان مبتسما طيلة اليوم، على غير عادته! وكان جسم فاطمة قد بدت تكوراته نافرةً كغزال!

فصارت للجَدَّة عادة يومية، ففي كل مساء عندما تفرغ فاطمة من لهوها ومرحها، وتعلن الدار مجيئها. تأخذها الجدة إلى ركن قصي.. بعيداً عن نظر الخدم، تفك عنها كنفوسها، وتبدأ في تفتيشها.. تتلمس أشرميها، وتغور أصابعها عميقاً، تتحسس مواطن القلق والتوتر الأزليين. حتى تطمئن ويهدأ بالها فتتركها.

في البدء كانت فاطمة ترفض الخضوع للتفتيش في أشيائها الخاصة، ثم أخذت تقبل على مضض، وهي في ضيق شديد، فكانت الجدة تحكي لها، عن فارس يداهم خلوتها، ويفتت وحدتها، ويحيل وحشتها إلى جمر لا ينطفئ، ولا يتركها إلا وهي مفلوقة القلب، كحبة فول قسمها نقر الطير، فتسخر منها فاطمة، فهي كانت على رغم إحساسها بالخدر الذي يعتريها، لحظة تتسلل إلى منامها تلك الروائح مجهولة المنشأ، معلنة عن اقتراب فارسها الغامض!

على الرغم من هذا الخدر، الذي يسكن كل خلية في جسمها، تقاوم وتغذي نفسها، بمزيج من الشعور المضاد والرفض.

كانت فاطمة تخبئ في داخلها ناسكة، زاهدة في الرجال. تعتزل حتى ذلك الإحساس، الذي تشعر به، وهي تغسل أشرميها في الوادي!

فما أن تلامس أصابع كفها ذلك الموطن، حتى يسري فيها شعور غامض، لا تدري كنهه، فتقاومه بالإنقباض، وهي تمسك الأشرمين بسبابتيها وإبهاميها، كأنها تعاقب فتىً صغير بشده من خديه!

ورغم إدراك الجدة، لطبع فاطمة السمحة الوحشي، إلا أنها كانت تدرك، فيما يشبه النبوءات الخفية، أن مآلها لا محالة إلى إستسلام، عندما يحين الوقت، الذي تكاد ترى إقترابه، رؤية العين العادلة!

فكانت تحذرها بتلك الحكايات -التي يبدو أن مردودها كان عكسيا- إذ ملأت خيال فاطمة، وعبأته بالروائح المجهولة، والطيوف الغامضة، والمشاعر المتداخلة، المربكة. والأحاسيس الملتبسة، التي أخذت تشعر بها إزاء الفتيان، الذين يلاحقونها منذ لحظة خروجها من الدار، حتى عودتها مرة أخرى.

كانوا يلاحقونها وهي تستحم في الوادي، مختبئين خلف أشجار القمبيل والقنا والجميز. كانت تحس بوجودهم الغامض الطاغي، الخفي ولا تراهم.. يلاحقونها في كل مكان، حتى في الطريق إلى الحقل. وما أن تلتفت خلفها، حتى يتبخرون في الهواء، فلا ترى شيئاً!..

لكنها تشعر بهم يختبئون، في تلك الأكمة أو خلف هذا الجذع الملقى أو تلك الجميزة على شط الوادي.. حتى باتت تشك في الطيور حولها.. تشعر بالعصافير والقماري وطائر السمندل، يتجسسون عليها، يتحسسون بهديلهم وزقزقتهم وغنائهم! تكويرات جسمها المتحفز، فتقذفهم برشاش الماء، أو حفنات الرمل المبتل.غاضبة!.. ولا تعود تواصل إستحمامها، إلا بعد أن تطير الطيور مفزوعة.

فتنة الفتيان بفاطمة السمحة، مردها إلى جمالها الأخاذ، الذي أخذ بألبابهم، وصرع أفئدتهم.. مردها إلى صوتها الساحر الذي ينتزع دهشتهم، من محجريها. ويجعل قلوبهم تنتفض!..

كانت فتنتها كالموت الأحمر -تحيل أحلامهم، إلى نوع من الوجع والإشتياق، المزوج في الشقاء والعذاب والألم -فيتقلبون مضطربين في أسرتهم، وهم يهمهمون بلغاتٍ عدَّة، لا يذكرون منها شيئاً عندما يفيقون من النوم.

تجرأ بعضهم واقترب منها فصدته بقسوة. لم تلن أبداً، فقد كانت قوية الشكيمة، قوة جمالها "الجني".. في الليالي المقمرة، عندما تخرج فاطمة إلى الوادي، كانت تحس بخطى مختلفة تتبعها، و غير تلك الخطى. خطى ذات جرس خاص:

مزيج من هديل اليمام والسمندل، وخرير الماء في الماء.. مزيج من رائحة القمبيل ونكهة السعات البّري.. مزيج من ضربات قلبها، وطيف فارسها الخفي الذي لم

تراه، إلى أن تكشفت لها تلك الخطى، عند إكتمال البدر في أحد الليالي الماطرة عن ود النمير، الذي كانت قد سمعت عنه كثيراً، مثلما سمع عنها.

فود النمير كان مثلها. فتىً وسيماً، متقوقعاً في ذاته، و لا يأبه لنساء البلدة وفتياتها، اللواتي لطالما ارتمين عند قدميه، يرجين وصاله. وظللن يلاحقنه أينما مضى. الأمر الذي كان يدفعه للإختباء في تلك المخابئ السرية، منهمكاً في تعذيب معتقليه، أو الخروج بعيداً عن البلدة، متخطيا وديانها الثلاث، إلى حيث لا يكسر أحد طوق عزلته..

ورغم الجمال الفتان لفاطمة، الذي لطالما طرق سمعه، لم تحدثه نفسه أبداً، بالترصد لها ورؤيتها. إلى أن رآها في ذلك اليوم البعيد مصادفة، فتبعها مسلوباً..

هو الذي لم يظن أبداً أن تدهم وحدته أنثى، فتحدث فيه كل هذه البلبلة والإرتباك. وتطلق جنوناً مخزوناً في أعماقه، لم يكن يعلم عنه شيئاً، فقد كان قد تحصن منذ وقت بعيد، بالسياج الذي شيدته حول وجدانه بنت مسيمس، بحكاياتها المعذبة عن أمه مرج البحرين، التي أحبت ابن العمدة الكبير، في غفوة من غفوات عقلها. غفوة كانت كافية لأن تصيبها بالألم.. إذ لم تدر أن ابن العمدة، إنما أحبها فقط إنتقاما لدم أبيه القتيل. إذ سرعان ما هجرها وهرب، تاركاً البلدة، دون أن يقع له أحد على أثر!

تركها وهي حبلى بود النمير. نسي كل الحكايا التي بذلها لها وهرب..

”كان يقول لي: يا فلذة كبدي، وجرح فؤادي. يا مليكتي وقمر دنيتي"

تقول مرج البحرين، فيتقطر الدمع غزيراً، من عيني بنت مسيمس. تمسح بالخرق الباردة جسمها الملتهب، بحمى الهجر، تحاول مواساتها. لكن كانت نيران الهجر قد تآكلتها، فلم تلبث أن ماتت محسورة. هذه الحكاية وحكايات أخرى، سيجت وجدان ود النمير، فلم يقع في براثن عدوه الحب أبداً!..

عدوه الذي قتل أمه، في ريعان صباها. وجعله يتيما دون أم أو أب. سوى الأرباب بمشاعره الغامضة، التي لطالما أحس بها تبعث على الخوف، أكثر مما تبعث على الإرتياح، ولذلك عندما رأى وليدته الصغيرة تاجوج، إشتد بكاؤه وحرص على إسترداد أمها، مهما كلفه الأمر!

فكان يقف قبالة الوادي كل يوم، ممعناً بصره.. مواجهاً ذلك الموضع الذي غرقت فيه فاطمة. يحدق في المياه المترامية، بين القمبيل والقنا والجميز، الذي يحد الوادي من كل جانب. حتى يلتقي عرديبة الدود. حيث يطلق هناك سراحه، فيرتد بصره لتتغور عينيه مرة أخرى في المدى، إلى الجهة الأخرى، من ”وجنات“ بلدة الأرباب.

يمزق بعينيه الغسق المكفهر، وخياشيمه تتماهى فيه، يزفران معا أشعة الشمس الهاربة. في إنتظار فاطمة السمحة. فيشهق!

أصبحت لديه أحلام مختلفة عن أحلام بلدة الأرباب، أحلام جديدة بأن يجد فاطمة ويمضي معها ليعيشان وطفلتهما تاجوج بعيداً عن الأرباب.

وهكذا.. ظل كل يوم يقف قبالة الوادي، ينتظر بصبر على شطه، حذاء الشجرة ممتلئة الجذع، شجرة الجميز التي اتكأا عليها، واستلقيا تحتها في ذلك اليوم البعيد!..

لزم مكمنه لأيام وأسابيع وشهور، إلى أن خرجت فاطمة من الموضع، الذي وقعت فيه من الوادي، عند الغسق تماماً، والشمس توشك، أن تلم أخر خيوط تنورتها الذهبية، الزاهية.

فمد المرآة بسرعة، بمواجهة وجه فاطمة، التي ما أن نظرت إليها، حتى أغمى عليها، فسبح يرفعها ويخرجها من الماء...

عندما أفاقت فاطمة، قطبت وجهها، وكان ود النمير يقبلها وهو يبكي بكاءً مراً، حفرت دموعه الرمل، وسالت جداولاً لتمتزج مع مياه الوادي!

٤

عندما تزوج ود النمير من فاطمة السمحة، كان حبه لها قد أخذ يتنامى، أضعافاً أضعافاً يوما بعد يوم!

كان حبا عظيما يقترب من العبادة، وكان لا يزال ملاحقاً بتلك اللحظة، التي رمت فيها بنفسها في الماء، فتوقف بصر ذاكرته، في جسمها البديع، الذي لم يره أبداً.. حتى وهما مستلقيان تحت شجرة الجميز، في ذلك المساء البعيد.

فقد كانت فاطمة، حريصة على ستر ما برز من جسمها.. هذا الإخفاء لمحاسنها، جعله مشغول الفكر. حتى أن حنكه وحلقه كانا دائمي الطقطقة والإحتلاب، كلما نظر إليها، وتخيل ما تخفيه، تحت هذه الثياب.

كان في وحدته الناعمة وهو معها، يتخيل عريها، ملمس أشرميها، نعومتهما، فتجوس أصابعه أدغالاً.. تتسللها ببطء، لتندس في مواطن دافئة، تفوح برائحة المسك والقمبيل، والقرنفل والزنجبيل والقرفة..

مزيجا مخدراً، جعل رعشاته الهائمة. لا تتوقف عند حد، فتمضي وتمضي..و.. حتى يتقطر منه الدم. وهو لا يزال يذكر بحثه عنها، في كل الديار:

الصعيد والسافل.. دار الريح ودار صباح ,عبر الشعاب بين وديان البلدة.. الطرق الصخرية التي حفرتها الإرادة الصلبة للأرباب، ومواطنيه العابرين بين الجبال والسهوب، والانهيارات، التي تتشظى عبر أشكال من خرافة القوى التاريخية، التي تقف خلف كل أحزان ومواجد البلاد الكبيرة..

القوى التاريخية التي تتصور دار صباح إنها تمثلها.. هكذا مضى يساءل عنها الطير والشجر، والزمن المخفي بعناية، في ذاكرة اليوم والمكان..

مضى يبحث عنها في كل مكان به واد، من الصعيد إلى السافل حتى دار صباح ودار الريح وأودية الأرباب الثلاثة. وعندما وجدها أخذ يحس بها، باباً من اللظى، كلما ناما معا متصالبين...

عرى فاطمة، حصنا منيعا لم يستطع تجريده، فظلت رؤية جسدها في الكنفوس على صلبها، والمئزر على نهديها، شغلاً شاغلاً حرمه النوم.

كان يتوقها عارية من كل سوء. ينعكس ضوء النهار على جسدها، وينكسر عند عجيزتها، يرتد عند نهديها، ويتغور عميقاً، ليرجع كالصدى ليصدمه، ويستعيده، إلى تلك الحالة من الحمى، التي تركز فيها تفكيره.

جسم فاطمة وأشرميها. ركزا حياته.. كل حياته في نقطة واحدة، ظل يقاومها، كما تقاوم محاولاته تجريدها. إلى أن نطق بحدة وقد طفح به الكيل:

"أريدك أن تمشي متجردة أمامي. إنها رغبتي الوحيدة، التي دونها أموت"

فأبت فاطمة وقالت:

"إذا أجبت إلى طلبك، فماذا تفعل في المقابل لي؟"

قال:

"كل ما تريدين؟"

قالت:

"اقسم على ذلك"

فاقسم لها، فتجردت فاطمة، ومشت أمامه ذهابا وإيابا. كانا عند الوادي، تحت شجرَّة الجميز ذاتها.. مشت فاطمة أمامه ذهابا وإيابا.. عزفت أشجار القمبيل، وشجيرات السعات، وأشجار الجميز الهرِّمة، حفيفاً ناعماً، وأطلقت عبيرها.. مشت فاطمة ذهاباً وإياباً.. أصبحت السماء، كل السماء بلون الغروب، ورزاز لطيف يلامس أرض الوادي، دون غيم. كأنه معلقاً في الهواء، وكان ود النمير ينظر إلى صدرها المتحفز، المجنون. وعجيزتها الفاتنة. يتحسس ببصره أشرميها ويدخل في حالة من الجذب كالدراويش، في حضرة الأرباب.

خرير الجدول ومهرجان الفراش، وإحتفاء الشجر والطير -كل ذلك- كأنما توحد في صرخة واحدة:

"كفى!"

توقف تيار الزمن، ولملمت فاطمة كنفوسها ومئزرها، وران الصمت على كل شئ. حتى الوادي ما عاد له صوت. قال ود النمير:

"الآن أطلبي ما تشائين"

"فردت عليه وهي تزم شفتيها بحزم:

"طلقني في الحال"

لم يكن ما جرى بين فاطمة وود النمير، هو أول العلاقات التي تنهض في غمار التاريخ، فتذروها رياحه العاتية، وتعصف بها إلى قيعانه. فهو أمر معتاد، مثل كل

الأمور، التي تحدث في بلدة الأرباب، وذلك لأنها بلدة مسمومة الروح، في جوهرها.. وغير راسخة، كالرمال المتحركة.. تخنق من يمشي عليها.. أو هي كالأرض الزلقة، التي يصاب بالكسور، أو الرضوض كل من يطأها، أو يتحرك فيها.

ولذلك وسمت الأرباب، حياة سكانها بالهشاشة والرقة، حتى أن البصمة يمكن أن ترى واضحة، في كل شيء يلمس فيها. ومن هنا كانت حياة الناس، وعلاقاتهم الحميمة، وإرادة تمتعهم بالجمال، وإستيعاب هذه الإرادة/الرغبة، موضع إلتباس!

إذ ينهض كل ذلك في سطح تراب البلدة، دون أن يمد جذوره، إلى أعماق الرمل، وصولاً إلى طبقات الأرض، حيث الجانب الآخر من البلدة. إذ أن الأرباب كانت مجرد طيف، إنعكاس لبلدة أخرى، في عالم آخر. عالم متعال، كأنها محض صدى لصوت خفي، وربما كان ذاك بالتحديد، سبب أزمتها التاريخية والوجودية!

وما كانت الأرباب بهذه الهشاشة، إلا لأن مؤسسيها أبو جريد والأرباب، دون أن يدريا -ربما كانا يدريان- شيداها في الزعزعة، وعدم الاستقرار!..

الأمر الذي أفضى بالناس، الذين جاءوها من "القبل الأربعة" بالحنين إلى تلك القبل الأربعة، التي جاءوا منها، رغم أنهم يجدون كل المتع التي يحلمون بها،

في الأرباب، لكن خوفهم الدائم -ربما - من عيون ود النمير، والجثث التي يجدونها ملقاة خارج البلدة، أو تحت عرديبة الدود، وهي تحمل من آثار التعذيب ما تحمل.. والخازوق الذي يهيمن على ذاكرتهم، حتى يشعرون بآلام بشعة في مؤخراتهم.. هذه الأشياء وأشياء أخرى، ربما كانت هي، ما يقف وراء شعورهم، بأنهم لا ينتمون إلى هذا المكان، فينهض الحنين داخلهم، حيث يرون وطنهم المفتقد، في طفولاتهم الهاربة. يمنحهم الدفء والحماية، من كوابيس الأرباب.

وبالطبع كان هذا الوطن الذي يلتمسونه لا وجود له، سوى في مخيلاتهم، فهو إفتراضي.. مجرد تصور ذهني غامض! استلهموه من تاريخ لا ينتمون له، ولا يعرفون عنه شيئا حقيقياً، فهو ليس تاريخ أسلافهم.. لم يعيشوه، أنه مجرد تاريخ تم نقله إليهم، عن طريق التواتر، جيلاً بعد جيل، كحكايا شعبية، ومع ذلك يلتمسون فيه، في أوقات الوحدة والبرد القارص. الذي ينهض في هشيم علاقاتهم. الدفء والحماية. التي لم تتمكن الطوائف التي شيد الأرباب على أساسها، مجتمع البلدة أن تمنحهم إياه.

فالأرباب كان لا يفتأ يقسم البلدة إلى المزيد من الطوائف، حتى جعل -أخيرا الطوائف الظِّل للطوائف الأساسية- طائفة للحدادين، وطائفة للجند، وطائفة الحيران، والعسس، وطائفة الغرباء وطائفة الفقرا وطائفة المزارعين والجنقو -وعندما رفض الصيادون وعمال قطع القصب الكتكو، أن يكونوا طائفة واحدة،

مع المزارعين وجانبي الثمار، قمعهم الأرباب وأعتبر أن ذلك تمرد، فوجد الصيادون في اليوم التالي لإحتجاجهم، قيادتهم كلها "مخوزقة" تحت عرديبة الدود، حيث تقف الدواب لحملهم إلى مناطق الانتاج الزراعية، رغما عن انفهم، بدعوى قتل مخربين اقتصاد الارباب، ومحاربة العطالة المقنعة!..

لم يكن الأرباب يأبه لرغبة أحد، فقد كان الرجل ظلا لله، في أرض البلدة. يفعل بأهلها ما يشاء. كما فعل مع الصيادين، رغم وجهة نظرهم الوجيهة. إذ كانوا يرون ضرورة وجود طائفة تخصهم وحدهم، وذلك لإختلاف نشاطهم عن المزارعين، وجانبي الثمار، والعاملين بالبستنة عموماً. الذين يتعدى نشاطهم ذلك، إلى نصب دناقل العسل في الأشجار..

لكن الأرباب أُلّهم بحل المسألة من جذورها: "خوزقة قيادتهم تحت عرديبة الدود".

كل أموال تلك الطوائف، تأتي إلى بيت مال البلدة، فلا يأخذ أي شخص إلا قدر حاجته، مهما كان مقدار المال الذي أودعه، أو المجهود الذي بذله. فالأرباب، كان مهموماً جداً بمركزة الموارد، في سبيل استقرار البلدة، وامتداداتها الهامشية.

جعل الأرباب من أصفيائه العُميان، طائفة للعمد والشيوخ، يعين على رأسها من يشاء. فقد كان الرجل مطلق اليد واللسان، وجباراً عتياً.

ولم يُغفل أمر الاهتمام بالأدب، فجعل هناك طائفة من المتأدبين، وفقا لمنهج أبو جريد. وكان هؤلاء هم ذاتهم، الذين يقع على عاتقهم، أمر التعليم. وكان لكل طائفة، من هذه الطوائف، قانونها الخاص. فهي محكومة بما يشبه الفدرالية -في تقدير الكلس- وهي بطبيعة الحال نوع غريب من الفدرالية، إذ صاغها الأرباب ذات نفسه، ولذلك لا تلجأ إليه، في مشكلاتها البينية الصغيرة التي يكون هو شخصياً من تسبب فيها، وبالتالي لا يتدخل الأرباب، إلا في مشكلاتها الكبيرة الشائكة، التي في الحقيقة هو شخصيا من اشرف على صياغتها المستعصية على الحل. وهكذا كان الارباب هو المشكلة والحل في آن واحد!

فالمشكلات المعقدة والمتشابكة، التي يصنعها ويعجز الجميع عن حلها، يتدخل لمعالجتها، بحكمته وبراعة منقطعتي النظير!..

كانت طائفة المتأدبين، وبائعات المريسة في بلدة الأرباب، من أكثر الطوائف ذات الحظوة والنشاط، إذ أولاهما الأرباب عناية خاصة، ومنحهما إمتيازات لم تحظى بها أي طائفة من الطوائف الأخرى.

إذ كان يسمح لهاتين الطائفتين، عند توريدهما للمال، بالإحتفاظ بشئ يسير منه، للترفيه به عن نفوسهم، فيما يرونه مناسباً.

ثمة طائفتين معزولتين عن المجتمع، لكنهما تجدان العناية الكافية من طائفة الحكماء، فهما من أكبر طوائف بلدة الأرباب، والحواضر التابعة لها. هما طائفتي النساء المطلقات، والأرامل وطائفة الرجال المجانين.

وهما الطائفتين اللتين إنضمت إليهما فاطمة السمحة وود النمير مؤخراً. لكن فاطمة السمحة كانت معزولة حتى عن الحياة الداخلية لطائفتها. تعيش نفيها الوجودي، على ذكريات ماضية، محمولة على سواعد الفراشات المحترقة، بنار لا توصيف لها.. نار غامضة.. غامضة ومبهمة فحسب، فهي نار تحرق ولا تقتل، تحرق ولا تأكل..

عندما تفيق فاطمة لنفسها، خارجة من ألسنة هذه النار المتأججة، تلاعب طفلتها الصغيرة تاجوج، علها تنسى كل ما مر بها، تحدق في وجه تاجوج، فتنساب أمام عينيها أخيلة وصور، متداخلة، لا تنبئ بخير، فتنقبض نفسها، ويرتجف قلبها، وجسمها يرتعش كالمقرورة ببرد الشتاء المجنون، الذي يحرق أشجار الوادي بـ "الزيفة"..

ولم تكن فاطمة وحدها التي تعيش مثل هذا العذاب. فقد كان ود النمير متآكلا بالندم، يشعر بالحسرَّة كالصديد، تملأ جسمه قروحاً ودمامل، تنفتح ولا يخرج منها قيح، فتظل تعذبه بالنقحان.. كأن لعنة سوداء أصابته وشوهت وسامته،

وجعلته لا مفطور الفؤاد فحسب -من فراق فاطمة له- بل من إحساسه أيضا، ببلوغه منتهى النهايات الوشيكة!

إنقشعت عن خواطره كل تلك الأحلام المجيدة، بالمضي مع فاطمة والطفلة الصغيرة للعيش بعيداً عن بلدة الأرباب. لكن تلك الرؤى الملعونة، التي حاصرته وجعلته يجبر فاطمة على التجرد، جردته هي الأخرى من هذه الأحلام!

فقد كل شيء وصار مذهولاً، مسكونا بالوحدة والوحشة والحزن الأبدي.. حاول إقناع فاطمة بالعدول عن رغبتها في الطلاق، لكن فاطمة -رأسها وألف سيف- أصرَّت أن يبر بوعده..

كانت عنيدة كالفرس "المكادي".. متصلبة ويابسة الراس كالحجر الصَّوان. وكان رقيق الفؤاد عذب المشاعر، لا يحتمل الصدمة ومشاهد الأسى واللوعة -يتساءل الكلس هل هذا هو ود النمير حقا!- ود لو عاد الزمن إلى الوراء، ليتمكن من مقاومة تلك الرغبة، فلا يدع فاطمة تتجرد أمامه، وضوء النهار يسقط على تضاريس جسدها المتناسق، بكل ما أوتي الضوء من فجاجة. يتسلل منعرجاته.. فجاجه وتحفزاته..

يا لذلك الجنون الذي أودى به -يا لهذا العذاب الذي ليس كمثله عذاب- كأن تلك الأمطار التي هطلت أربعون عاماً على الجد الأول لأبي جريد، وهو بعد محض طين صلصال، تهطل عليه الآن..

أمطار الحزن تهطل عليه الآن، لا أربعين عاما فحسب، بل منذ تلك اللحظة، التي هطلت فيها على أبي جريد، وهو بعد مجرد فكرة في خاطر الغيب، لم يتكون كتصور كامل، ثم جسم من لحم ودم اسمه: ود النمير.

منذ لحظة الخاطر تلك في تفكير الجد، يشعر ود النمير، أن أمطار الحزن تعجنه وتصوغه، كفكرة للأسى، وموضوع للألم والعذاب.

مضى ود النمير للأرباب كي يتوسط له عند فاطمة، حتى تقبل وتعود إليه. مضى إلى بنت مسيمس. خاطب روح الجد أبو جريد، والجد الأول في "الحضرات" لكن كل ذلك لم يجدي نفعا مع فاطمة السمحة.

حتى طوب الأرض نفسه، ونجوم السما وطيور السمندل ودعاش الوادي، والقماري وأشجار الجميز، عجزت كلها عن إقناع فاطمة بالعدول، عن قرارها، فأعتزل ود النمير الناس، ولم يعد يذهب إلى عمله ليعتقل أحداً أو يعذب أحداً.

اعتزل اعتزالا لا يشبه عزلته السابقة، قبل أن يتعرف على فاطمة، ويغرم بها.

دخل في نوع غريب من العزلة، ليس له اسم سوى: الجنون.. عزلة جعلته في همس البلدة، محض عبارة راثية وآسية:

"ود النمير جُنّ.. فقد كان يمضي في دروب البلدة وشوارعها منكفئاً على نفسه، يلتقط الحجارة والأغصان الجافة، وبقايا الجلود، وهو يحادث نفسه، بصوت يسمعه كل المارة:

”أنا مكتول بفاطمة السمحة.. رجعوا لي فاطمة السمحة“

حاول الأرباب تحت ضغوط بنت مسيمس، مداواته.. وأنطلقت وقتها شائعة أن الأرباب، أطلق عليه واحدة من أسوأ لعناته الزرقاء، وذاك هو السبب الحقيقي لجنونه، لا ترك فاطمة له، كما أعتقد هو شخصيا، وكما روج الزعيم الجديد لطائفة العميان، بترتيب خاص من الأرباب، وأكد بعض الخبثاء: أن الأرباب لم يشأ مداواته، فهو لا يفشل في علاج احد.. هكذا ملأ الهمس بيوت البلدة وشوارعها. فيما أكد الأرباب:

”أن علاجه ليس بيدي. ليس أمامه سوى استرداد فاطمة، طوعاً أو الموت؟“

كانت فاطمة، في لحظات وحدتها الكثيفة، تستعيد ذكريات تبدو لها قريبة، بقدر ما هي بعيدة، حيث تتكثف تلك اللحظة بالذات أمام ناظريها -كأنها تراها الآن رؤية العين- اللحظة التي دفعها فيها ود النمير بقسوة، وبكت وهي ترمي بنفسها في الوادي العميق اللهفة، لتتلقفها ذراعي أمونة أمها، وصديقاتها الحوريات. يسبحن بها بعيداً عن مفرق الوادي، قريباً من شط عرديبة الدود، على البر الغربي؟ لتحملها أمونة بعد ذلك، إلى بيتها المخبأ بعناية، في عرين الوحوش.. في قلب دغل من أشجار القنا والجميز، في مكان غير مطروق.

فأهالي بلدة الأرباب كانوا يخشون هذا المكان، الذي عرفوه بعرين الوحوش، وأرض الجن الكافر، ولم يجرؤ أحداً من الأهالي لهذا السبب، على الإقتراب منه أبداً -بعد عشرات السنوات القادمة، سيكتشف بعض الأثاريون والمؤرخون الخواجات، مخطوطة بهذا المكان، هي من الآثار التي تركها أبو جريد، عندما كان في أول عهده مع مسك النبي، حيث يعتزل في هذا المكان، ليقيم طقوسه وحيدا يعاني أفكاره الكبيرة- ستجد أمونة هذه المخطوطة، التي لا تفهم منها شيئاً، لكنها مع ذلك، تحفظها بعناية فائقة، وتعيدها إلى مخبأها.. إلى أن تقع في يد الأثاريين والمؤرخين مصادفة، ككل شيء يحدث في البلاد الكبيرة؟!

كانت أمونة قد إكتشفت منذ وقت بعيد، أن هذا المكان ليس عريناً للوحوش والجن، كما يدعي الأهالي. إذ وجدته أكثر الأماكن أماناً، وبعداً عن الأنظار، فشيدت فيه كوخاً من القنا والقصب، لم يدخله أحد سواها. بقيت فاطمة مع أمونة، في وحدة لا تخلو من الألوان الزاهية، والروائح الغامضة، والأحاسيس المخدرة، التي توحي بها أرض"عرين الوحوش" ولم تكن تخرج سوى في الليالي المقمرة. تتنكر، وتذهب إلى البلدة، لتسمع ما يدور من همس: عن ود النمير وفاطمة السمحة. ثم تأتي لفاطمة بالأخبار، إلى أن تمكنت من إقناعها بالظهور، عند الغسق حتى تتمكن، من العودة إلى حبيبها، فهي ليست مثلها منذورة للوحدة والوحشة، في عرين الوحوش.

ولم تمض سوى فترة قصيرة، منذ عادت فاطمة إلى بلدة الأرباب، حتى جرى بينها وود النمير ما أدى لطلاقها وجنونه.

كان الأرباب، بعد أن قال كلماته الأخيرة، حول عجزه، عن شفاء ود النمير، قد اعتزل الناس، على نحو غامض ومريب.. وظل أهالي البلدة لعدة أيام، يتساءلون عن سر اعتزاله، حينما شاهدوه بعيداً، فترددوا في الاقتراب منه، وقلق خفي ينتابهم على نحو مفاجيئ، إلى أن حسموا أمرهم، وأخذوا يقتربون منه ببطء شديد.

كان سبب قلقهم: أن العزلة لم تشمل الأرباب فحسب، إذ فجأة أختفت العيون، وطائفة العميان، وبدى واضحاً أن جو من الاضطراب، قد ساد في أوساط الجند. لكن لم يكن ثمة، من يقول لهم عما يجري، فالجميع لا يعرفون شيئاً، كأن الأمر سراً خطيراً، ولذلك تعاظم إحساسهم باعتزال الأرباب، فلأول مرة منذ تاريخ تأسيس البلدة وحواضرها، لم يسد مثل هذا المناخ، الذي ينذر بإقتراب خطر وشيك.. خطر يحسونه ولا يعلمون عنه شيئاً.

كانوا قد اقتربوا من الأرباب الذي كان يقف وحيداً كصنم، تحت عرديبة الدود، التفوا حوله دون أن يجرؤ أحد على محادثته.. ولساعات طوال ظلوا واقفين... خيم جو من التوتر والإضطراب، عندما عانقت أشعة الشمس الغاربة، بلدة الأرباب وبدت وسط الأجمة كشمعة مشتعلة، وهم في وقفتهم الطويلة

تلك، بدى لهم الزمن بطيئاً كأنه لا ينقضي، إلى أن أطلت أولى خيوط الفجر، دون أن يتزحزح الأرباب من مكانه، ودون أن يجرؤ احدهم على سؤاله، أو مغادرة المكان.. إلى أن اشتعلت نيران عظيمة بالفعل، في كل أركان البلدة. فراح الجميع يهيم على وجهه، على غير هدى، وهو في حالة من الهياج..
كانت الجيوش المتحالفة تداهم بلدة الأرباب، وبدت البلدة كشمعة مشتعلة...

خوزق تحالف الهلاليون الأرباب تحت عرديبة الدود، بعد أن اقتلعوا عينيه من رأسه وأحرقوا قبته، التي كانت ترقد فيها تاجوج، دون أن يأبهوا للصرخات الثكلى لأمها، وهي تحاول إنقاذها!
وأحرقوا عرديبة الدود، بعد أن إجتثوها من عروقها، وردموا الأودية الثلاثة، ولم يبقوا على شيء حيّ، بمنجاة من القتل والحرق، سوى النساء..
أصبحت فجأة أرض البلدة جرداء، ساخنة، يتساقط الرماد على ترابها المسود، كأنها لم تكن خضراء يوماً.
تم كل ذلك بسرعة مدهشة، كأن الجيوش المتحالفة، لم تكن تحارب وحدها.. كأن جنوداً من الجن تقتل وتحرق معهم؟

وهناك عند منتهى دريب الريح، حيث ضريح الفقيرة العجوز، مسك النبي ومقامها، أوقفوا حشودهم لتقسيم الأسيرات، بين جيوشهم المتحالفة.

فاختلفوا على فاطمة السمحة، لجمالها الفتان، الذي لم يرو مثيلاً له أبداً.. كان كل فريق منهم يريدها لنفسه، حتى كادوا، أن يسفكوا دماء بعضهم البعض، لكن كان لعمدتا الصعيد والسافل، رأي مختلف: "فاطمة ليست من نصيب أحد"

كانا قد طعنا فاطمة بحربتيهما في الفؤاد، طعنة رجل واحد. فتعالىٰ هرج الجند ومرجهم. وتعالى عويل النساء الأسيرَّات.

" لكن.."

وعلى نحو مباغت. خيم على الجميع الصمت، وهم يرون فاطمة، تنهض من جديد كطائر السمندل، ترفرف بذراعيها وتحلق عالياً في الفضاء، تكمل دورة كاملة حولهم، ودمائها تنقط في الوجوه التي الجمتها الدهشة، وقد إنتزع الخوف عيون الجميع من محاجرها!كانوا يتتبعونها بأبصارهم، إلى أن اختفت في عمق الفضاء الترحيب!..

عندما حاولوا استرداد رباطة جأشهم، ونظروا إلى الموضع، الذي كانت فيه فاطمة ملقاة، موشحة بنزيف، جرح طعن عمدتا الصعيد والسافل، رأوها موجودة في موضعها، كأنها لم تكن تحلق قبل قليل!

سألوا بعضهم البعض، ودعكوا عيونهم:

"علهم نائمين!"

بدى لهم الأمر برمته غريباً!

إندثرت بلدة الأرباب، التي أبداً لم تكن في يوم من الأيام، مكاناً دافئاً يأوي إلى حضنه الأهالي.

فهي بلدة مضعضعة، شيدت من الدم والدموع، والأوهام والغربة والحنين، إلى وطن متوهم خلف البحر الملون.

وبعد عشرات السنوات ستنهض مكان الأرباب بلدة أخرى، تستمد أسباب وجودها. من ذاكرة المكان. حيث كانت الأرباب يوماً.

أحمد ضحية

القاهرة

يناير 2006

أحمد ضحية

الحُبُ لَنْ يَنَتظرَك

"الجزء الثالث من ثلاثية المواطن عابر السبيل"

رواية

إهداء

إلى الغرباء و المهمشين،

والفُقَرَا المهاجرية.

أحمد

القسم الأول:

١

تذوب كلمات أغنية الحب لن ينتظرك وتمتزج، في الأصوات المنبعثة من المدونات السبعة، التي أورثها له دبك، تذوب في صوت شهرزاد "الخارج" من البوح الأول قبل الألف، ومن تموجات صوتها تبدأ شهرزاد تتشكل، في غرفة شهريار. الذي يقترب منها من الخلف، يحضنها..

يقبل عنقها، فتقفز متمنعة.. ينظر إليها في إشتهاء، ويأمرها بنبرَّة ملوكية تليق بجلالته: "تمددي. برهة صغيرة وتمضين إلى حال سبيلك"

ويمد شهريار يده حتى منحنى الساق، يداعب بشرة شهرزاد العارية، إلا من بوح ليال طوال مرتقبة. قالت:

"سمعا وطاعة يا مولاي!"

كانت متنازعة بمشاعر متناقضة، وهي تنصاع لصوته الآمر، الذي أرتعشت له ركبتاها رعشة خفيفة غير ملحوظة، في الوقت ذاته كان شهريار، قد أستوثق أن عقدته لم ولن تُحل أبداً!

كان عضوه لا يزال بارداً لا يستجيب، رغم محاولاته العديدة في إستثارته.. كان محبطاً وقد تعمَّق داخله المزيد من الهلع الأميري المزمن.

سحب يديه اللتين توقفتا، عن مداعبة ساقي شهرزاد العاريين، وتهيأ للإنكفاء على ذاته، وفيما كانت شهرزاد، لا تزال تخلع ما تبقى من ثيابها الداخلية، كان إنكفاءه على ذاته يزداد أكثر فأكثر..

حدقت فيه شهرزاد بعينين حائرتين، وتساءلت عن الخطأ الذي يمكن تكون قد إرتكبته، وأدى به إلى التراجع!

ما هو خطأها الذي بدل مزاجه، وأدخله في هذه الحالة من الحزن العميق..

كانت مستعدة لتقبل كل رغباته فيها، لكنه يدير لها ظهره الآن!

حرَّك شهريار لحظتها ساعديه، في إنتظام متوتر، محاولاً إستثارة عضوه المنطفئ بيديه اللتين يجاهد ألا تلاحظ شهرزاد، حركتهما الخفية..

كان يائساً، محطماً وحزيناً.. أمرها بصوت منهك حاول إخفاءه:

"إذهبي إلى حال سبيلك.. أنت حرة"

إرتدت شهرزاد ثيابها في عجلة، وقد تملكها رعب طغى على كل الأحاسيس المتناقضة، التي كانت تهيمن عليها لحظتها.. إنفلتت خارجة، فيما كان هو قد انهار وفقد كل تماسكه المزعوم، وأخذ يبحث عن قنينة السُّم، الذي أحضره له أحد خواصه منذ شهور عدة، عثر عليها مختبئة، في مكان قصِّي من خزانة أوراقه. ختم على الوثيقة التي تنصب ولي عهده بعده، وتجرع السُّم دفعة واحدة!

حلقت روحه سريعاً.. سريعاً حلقت روحه الهائمة، التي لم تعرف السلام النفسي، إلا في هذه اللحظة! فيما كانت تتناهى إليه أصوات دفيئة، تغني أغنية بعيدة، ستغنيها فتيات جميلات بعد مئات السنوات، لم يكن يعرف رطانتهن، لكن كان يسمع صوت شهرزاد، يتوسط أصواتهن فاخذت روحه تردد معهن:

Cause you can't fight it

don’t deny it

Love is stronger than each other Show me baby what you're gonna do, do

تتغلغل الأغنية في كيان الكلَّس، خارجةً من بوح هذه الأصوات، المنبعثة من المدونات السبعة، ومن كتاب ألف ليلة الذي أهدته إياه شهرزاد في أخر لقاء لهما!

تخز الأغنية قلبه، فيشعر بقرصة خفيفة.. ليست ألماً ولا تشنجا أو إنفصاما. فقط، هذا المزيج من أغنيتها المحببة!

كتلة من إحساس غريب لا شبيه له! مثل أول إتصال جسدي بين كائنين من عالمين مختلفين: عالم البلاد الكبيرة سحيق القدم، وعالمها الراهن. أو عالمها الراهن وهذا العالم الجديد، حيث يزرع الأطلسي الرهيب إضطرابه، في الحيَّاة والنَّاس.

الأصوات التي تختلط ببعضها البعض في ذاكرته، مدفوعة برائحة الشعراء.. تلك الرائحة الرطبة، المزيج من رائحة النباتات العطنة، والهواء الخانق. هذه الأصوات ذات الرائحة المنحازة للقرامطة، الموالي، المعتزلة والخوارج المهمشين، إلى آخره من الناس الغبش المعزولين في عتمَّة التاريخ، وإنحناءاته الحرجة!

يتهشم تكاسله على هدَّب غفوَّة عصيَّة، فيستفيق حالماً بمكانٍ آخر خالٍ من "الفُقَرَا".. خالٍ من أولئك الغرباء الذين تقاطروا على "مملكة العزلة" على "بلدة

الأرباب" على "جلابي ود عربي" جاءوا "بدواياتهم" المعبأة بـ"العمار" وألواحهم الخشبية، وأقلام البوص ليخطوا أقدار النَّاس..
تقاطروا من كل فج. فهم مغرمين بالتقاطر! تفرقوا في "قِبل" الأرض الأربعة، فتعرفوا على نتفٍ من كل شئ، وجاءوا ليغيروا كل شئ!.. أصواتهم تقطع الآن فيافي التاريخ.. سباسبه ووهاده.. تتوقف عند جانو قرمط، تقرؤه السلام، ثم ترحل لتمتزج في رائحة الشعراء.. في اللافندر.. في بوح الكساندرا ذات مساء غريب!
فيستفيق الكلس.. يستفيق متوتراً، على وقع الأصوات المشبعة بالروائح المتداخلة.. يفتح الباب.. يطل وجه الكساندرا، يلفح خياشيمه برائحة اللافندر، التي تطرد رائحة الشعراء، المنبعثة من مدونات دبك.. كانت أغنية:
love Ain’t gonna wait for you التي تغنيها مجموعة الـ S’ club لا تزال أصدائها تتردد خافتة، في فضاء ذاكرته:

Your heartbeat's taking over And there's nowhere you can go
And the love that you discover
Is finally taking hold
When it feels like the beginning
And the story will unfold There's a time to take your chances
Don't be scared of the unknown

والكساندرا تخطو خطواتها الأولى، في حياته العامرة بالشجن.. هذا الشجن الأليم، الذي خلفه الرحيل المفاجئ لغلوريا، التي هجرت عالمه، وتركته نهباً لإنتظار الحب، الذي لن يأتي أبداً!

منذها وهو يتحسس بمسامعه وأنفه عالم الشقة المجاورة.. يحاول أن يئد كل ذكرى لغلوريا، فتطل الكساندرا من فتحة الباب.. تفاجئه، فهو لا يتوقعها أبداً..

تطل فيوقن أن المسافة بينه وبين عالم البلاد الكبيرة، ستمتد لسنوات أخرى، فيشتد توتره..

تتحطم غفواته المؤجلة عبر جدران شقة الكساندرا. فعبر الجدران من شقتها، يتناهى إلى سمعه صوت فتح الباب وإغلاقه.. وقع خطى ثملة، كخطى القطار، الذي ينهب ذاكرته متعثراً في تلافيفها..

القطار الذي تستعيد محطاته، حكايا البلاد الكبيرة، من أقصى مغيب الشمس في "دار الريح" إلى أقصى مشارقها في "دار صباح" ومن حدود "صعيدها" إلى منتهى "سافلها".. فيعرض باعة الحكايا المتجولون في المحطات، كل بضاعتهم من عوالم البلاد الكبيرة، التي حملتها مدونات دبك، والتي لم تحملها!..

فلا يرى في كل المعروض، سوى شظايا لمرآة مهشمة، تتجمع تبعثراتها وتلتئم، لتشكل صوراً مشروخة سرية وصامتة، لكنها تفصح عن حكاياتها التي لا تنتهي!..

لكنه لا يرى في هذه اللحظة بالذات، وفي هذه المرآة الصامتة السرية، سوى غلوريا تسرح شعرها.. نافرة النهدين.. نحيلة الخصر.. يتقدم نحوها فترمي

بالفرشاة، وتستسلم كموجة خجولة بين ذراعي شاطئ شديد الرسوخ! تتحصن بين هذين الذراعين، ضد القلق الأنثوي الخفي!..

أحيانا يتخيل الكلس "دبك" كشخصية من شخصيات مدوناته نفسها، يحاول أن يعثر على مكان إختباءه، مقلباً كل شخصيات المدونات، معرياً كل الأفكار التي حملتها، وهو يكرر في توتر مكبوت:

"ترى أين يختبيء؟!.. أين يختبيء؟!"

فتطفو على سطح ذاكرته، شخصية "راجل الحرازة أم قد" ولسبب ما يشعر بأنها تناسبه، مجرداً من ثورته الفاشلة، "كسلوك طريق القوم غير السالكة، بلا مدد، يمكنه من رؤية العالم، من العرش إلى الفرش"..

حكاية دبك ككل شخصيات مدوناته، تلائم رحلة قطار يقطع البلاد الكبيرة، من أقصاها إلى أدناها !..

قطار يتنقل بين الأرباب وجلابي ودعربي، ومملكة العزلة البائدة. يغادره "فقرا" غرباء في كل محطة، ليركب فقرا غرباء آخرون، وجميعهم: هؤلاء وأولئك يحلمون بنظام خارق، يتخطى حدود المواهب الطبيعية.. النظام نفسه الذي لطالما داعب خيال المقدس دالي، وجانو قرمط وأبو جريد، وطمحت إلى تحقيقيه الديانات السرية العريقة!..

هذه الفكرة القسرية التي آمن بها أولئك الناس الغبش، الذين شكلوا النسيج الإجتماعي لجلابي، والأرباب ومملكة العزلة البائدة، قادت إلى المأساة الوجودية، التي ستسم مسيرَّة الحياة في كل أنحاء البلاد الكبيرة. هذه المأساة التي مفتاحها يكمن في كلمة سر وحيدة:

الغرباء، الفقرا، المهاجرية.. فهي الكلمة نفسها وإن تغير رسمها، والتي تعني أولئك الشخوص المهضومين، الذين لا ظل لهم!!..
تماماً كشخصيات مدونات دبك، وإن تغيرَّت الأسماء والأزمان، فمسك النبي هي بنت فدرالله وبنت مسيمس، وفاطمة السمحة وأم حجل، وما هم إلا غلوريا والكساندرا وديبي، فلسبب ما لا يلغي هذا التعدد والتنوع كون مأساة العالم واحدة، لكنها مختلفة الوجوه!..
و لسبب ما يتبدى راجل الحرازة بقدرات تفوق قدرات يسوع الناصري.. وللسبب نفسه،كثيرا ما تخيل الكلس أن راجل الحرازة ما هو إلا دبك!..
عندما يتأمل الكلس الآن كل الحكايا، التي حملتها المدونات. كحكاية شهرزاد، التي اندست لسبب خفي بين الحكايا الأخرى، أو حكاية جانو قرمط أو أبو جريد، يشعر أن كل هؤلاء وأولئك، هم راجل الحرازة نفسه، ففي الروايات المتناقضة، التي تناولت "ريحانة من سيرَّة راجل الحرازة" هذه السيرَّة، التي لا تخلو من متناقضات عصية على الفهم، تجد ملامح هؤلاء وأولئك..
وبقدر ما كان راجل الحرازة ينتمي لفئة الغرباء، الذين غالباً ما يعكرون مجرى التاريخ، فينحنون به انحناءات قد تودي بمجراه العام.. بقدر ما كان فقيراً مربكاً، إذ لا تخلو سيرته من سمات الأولياء "أهل الله الصالحين".
وبالطبع هذه السمات بالتحديد، هي ما ظل دبك يفتقر إليه دون أدنى شك!..
لم تشر أي من الروايات إلى الإسم الحقيقي لراجل الحرازة الذي ظل مجهولاً حتى لحظة كتابة دبك لمدوناته في أحد الحمامات العامة بالسوق القديم، إلا

أن جميع الروايات التي أوردها دبك، تتفق على أنه كان يخلط "العُشَّر" و"يفتله" وينسجه "جُبَةً" حتى أن أكتافه ظلت متقرحة، طيلة حياته من لبس جُبَة "العُشَّر" دون أن تبرأ أبداً!..

كما أنه إلى أن مات، لم يسكن سوى خلوته، التي كان يعتكف فيها أربعين نهاراً وليلة، فلا يخرج خلالها لملاقاة "حيرانه".. ولا يأكل خلالها، إذ يكتفي بمضغ القرض وتجرع الماء الحاف..

وعندما يخرج من خلوته، لا يجلس إلا تحت "الرويكيبة" ذات العريشة المتهتكة، الملحقة بخلوته، والتي يتخلل قشها "رقراق" الشمس، حتى أن البعض كان يرى أن من المناسب أن يكون إسمه "الفقير سيد الرويكيبة" بدلا عن "الفقير راجل الحرازة!"..

وكانت "رويكيبته" هذه في كبد البلدة، التي ستعرف بعد مجيئه بـ "قوز الحراز" إذ كانت قبل إقامته فيها بلا إسم تعرف به، رغم أنها توسطت طوال تاريخها موضعين معروفين، لكل أهالي دار الريح هما: "سهل أم زين" صاحبة "أنداية المريسة" الشهيرة و"فجيجة الحجر" التي في الحقيقة تخلو أرضها من كل انواع الحجارة، فهي أرض طينية "قردود".

وفي رواية أخرى غير محققة، تتناقض وهذه الرواية التي أوردها دبك -كان الكلس قد عثر عليها عند أحد باعة الحكايا، في إحدى محطات قطار دار الريح النائية- أن راجل الحرازة هو الفقير "أب قبة خضراء" الذي قتله حيرانه عشاق موسيقاه وأشعاره العذبة، والذي قبل أن يحل على بلدة قوز الحراز، وينتقي لخلوته ورويكيبته مكانا قصيا، صعيد "البِرْكة" التي ستعرف لاحقاً

ببركة ود أفطس -يجاور شجرة حراز ضخمة، يتوسط جذعها السميك فتحة كبيرة، كالفتحات التي يصنعها الناس العطاشى في أشجار التبلدي لحفظ الماء.
عندما يتأمل الكلس حكاية راجل الحرازة، كموسيقي ماهر، يتخيل نفسه الكرسني، وتتجسد حجب النور كموضوع لمعزوفات راجل الحرازة، وكل الحيران كورس يغني، خلف الفقير أب قبة خضراء..
فتهديء هذه الخواطر من إحساسه الطاغ بفقد غلوريا، التي غادرت عالمه، مخلفة وراءها ركامات من العوالم تنهار تحت قدميه، تتداعى كبيت عتيق، لم يتعهده أحد بالرعاية، منذ عشرات السنوات الماضية.. كان راجل الحرازة يربت على كتفه ويهمس بأغنية "الحب لن ينتظرك، فيشعر أنه لن يضيع مع غلوريا أو دونها.. لن يقتله الحب!..
ويطرأ عليه خاطر فيسأل الشيخ المتماهي في أغنية حبيسة:
"ولماذا قتلوك؟!"
فيرمقه الشيخ بنظرة عابرة، لا مبالية.. كان سبب قتل حيرانه له، أن أحد الحيران رغب في طليقته، فطلب يدها منه، فكان رده:
"لا تقرب البحر. ستغرق"
ولم يرق للحوار العاشق هذا الرد المقتضب، فحشد أصفياءه ليلاً وهجم على الشيخ وهو نائم في رويكيبته وقتله!
"المدونات تقول أن الحوار عشق مطلقتك الجميلة. هل رفضت لأنك كنت لا تزال مغرما بها كغرامي بغلوريا؟!"

وكأنه لم يسمع ما قاله الكلس. أخذ يعزف أغنية الحب لن ينتظرك، ويردد بهمس:

Love ain't gonna wait for you Don't run, don't hide Love ain't gonna wait for you It's so good, it's so right Love ain't gonna wait for you You know that it's true

لم يكف عن العزف والغناء الهامس، الذي صنع تموجات ملونة، ناعمة بطيئة في حركتها في فضاء الغرفة.
تبدت التموجات عن الكرسني وهو "يَعرِض" على موسيقى الفقير.. كما تبدت في فضاء الغرفة عشرات النساء تحلقن حول الفقير راجل الحرَّازة، يغنين خلفه.. لاحت في وسطهن: الكساندرا، شهرزاد، ديبي، غلوريا وحجب النور فدهم الكلس شعور غريب لم يألفه في نفسه من قبل، فاندفع يقبل النساء اللائي ذُهلن لبرهة ثم أنفجرن ضاحكات.. عانقهن والفقير يضحك بطريقة مروعة! كأنه يتحرر من عبء كبير! ..
هناك أوقات يخيل للكلس فيها أنه يطلق لعواطفه العنان، دون أدنى قدر من التحكم، وفي هذه اللحظة بالذات.. رغم أنغماسه في التقبيل والعناق،كان الشعور الغريب الذي تملكه، يجعله يحس بقدرة أسطورية على التحكم في مشاعره، لكن دون خميلة أو مناخ رومانسي.. دون تاريخ مأزوم أو حكايات

غامضة. كل شيء تم سريعاً دون تعقيدات أو كوارث، ليتبدد بذات السرعة، فتعود الغرفة كما هي خالية إلا منه!

كأنه حلم عذب عابر لا يتكرر.. حلم خارق كتلك اللحظة الخارقة.. لحظة وارى الحيران راجل الحرازة الثرى، فانفتحت طاقة من السماء ملقية ضوءً أخضراً قوياً. فتح القبر الذي بدا كفلقتي نواة. كان النور الأخضر يحيط بما داخل القبر، ويرتفع إلى السماء، فتنغلق الفتحة، ثم يختفي ويعود كل شيء طبيعياً!..

اختفى النور الأخضر واختفى معه جثمان الفقير راجل الحرازة. كانت المقبرة التي حفروها للتو مستوّية،كأنها لم تحفر من قبل! وقد نبتت فيها للتو شُجيرَّة صبار، تغطت بنسيج العنكبوت!

شيد الحيرَّان في ذلك المكان قبة أطلقوا عليها "إسم القبة الخضراء".. لكن رواية أخرى في السياق ذاته، تزعم أن من قتل الفقير صاحب القبة الخضراء، هم سراريه وليس حيرانه، وذلك لشدة غيرتهن عليه، فقد كان مغرماً بإنشاد قصائد الغزل وحب النساء، حتى أنه جمع بين أختين،كانت كلتاهما أجمل من الأخرى، وتجاوز عدد زوجاته الخلاني على حبله الستة، غير هاتين الأختين، فضج الناس واستفتوا في أمره فقرا الصعيد والسافل ودار صباح، وكل الشيوخ "الواصلين" والغرباء، والحيران والمهاجرية وطوب الأرض، دون أن يجرؤ أحد على مواجهته، إلى أن تقدم حوار مهاجري غامض إشتهر بصلاحه..

حتى أنهم حكوا عن هذا "الحوار" أنه كان: عندما يمشي ليملأ ركوته من الوادي الهادر، تنفك الرَّكوة من يده وتمضي لتملأ نفسها بالماء وحدها دون حاجة لعونه!.. تصب الماء داخلها، وتعود إليه.. تقفز إلى يده فيمسك بها، وأحياناً يتركها تتبعه إلى أن يصل خلوته، فتمثل بين يديه ليتوضأ!

كان هذا الحوار الذي جاء خصيصا لردع الفقير صاحب القبة الخضراء، يعرف لغة الطير والحيوان، ويعرف جميع الخطوط: لاتيني وسرياني وعبري!.. نصحه حيران الشيخ قائلين:

"تورين ما بيرتعن في بقر واحدا!"

لكنه لم ينتصح. فقد كان يظن أن صاحب القبة الخضراء سيرتدع له، لذلك أمره بأن يفسخ عقد نساءه فلا يبق سوى على ثلاثة، وأن يُطلق إحدى الأختين. فنهره الشيخ ودعا عليه بفسخ الجلد، فانفسخ جلده في الحال!..

بعض الرُّواة المتأخرين كدبك، يزعمون أنه لم يدع عليه بفسخ الجلد، وإنما دعا عليه بأن يكون باطنه مثل ظاهره، فأصيب بالبرص، حتى أن ركوته أصبحت تعصى أوامره، ذلك لأن الفقير صاحب القبة الخضراء، كان قد أمرها بعدم طاعته، فهو لودعا على ذلك الفقير المهاجري بطول العمر، لتزداد ذنوبه لطال عمره، آمراً بالمنكر ناهياً عن المعروف، ف "ديك" صاحب القبة الخضراء كان دائما "يعوعي آخر الديوك" كما أن "ثوران ليس بإمكانهما أن يرتعا في بقرة واحدة!".

٢

الهلاليون أيضاً كانوا مجرد فقرا مهاجرية غرباء، أتاحت لهم ظروف معقدة، اعتلاء عرش دار صباح، الذي لم يصلوه بالجيوش، التي عبرت بحر مالح وصحراء بيوضة وحدهما، فقبل ذلك كانت المصاهرَّة، قد جعلتهم يتسللون إلى أقنية السلطة!

فالهلاليين الهاربين من مشانق "مُضَر" على كامل إمتدادات الربع الخالي، قبل أن تدور على مضر الدوائر، وتؤول مقاليد السلطة إلى بني هلال، هربوا إلى دار صباح.

كانوا فقراء معدمين ومساكين ومطاردين، أنحل البؤس أجسادهم التي لم تذق للراحة طعماً، في حُمَّىٰ صراعات الفرق والملل والنحل، التي وظفتها مضر في صراعاتها لتصفية خصومها، الذين ينافسونها على السلطة.

جاءوا إلى دار صباح نجاة بأعناقهم من المشانق المنصوبة في الصحراء، وأختلطوا بأهل دار صباح، وسرعان ما أصبحو جزءً من النسيج الإجتماعي، وتمكنوا من عقد تحالفات مهمَّة مع ذوي الشوكة، من أهل دار صباح. أفضت بهم هذه التحالفات، إلى فرض كامل سيادتهم!

لحظتها كان وجودهم على هذه الأرض قد تأكد، ولم تعد لديهم صلة بتاريخهم ووطنهم القديم، لذلك عندما عبر جيش بني هلال بحر مالح، تحت

قيادة العاتي الهلالي، واستولى على عرش دار صباح. في الواقع استولى هذا الجيش على السلطة ونقلها داخل البيت الواحد، فيما يشبه تبادل أدوار الهيمنة، فهو صراع هلالي-هلالي وإن لم يعترف بذلك الهلاليون الجدد.. الوافدين عبر بحر مالح!

من نتائج هذا الصراع، أنه: أذِنَ بنقل بني هلال لكل أزمات دولتهم، في إمتدادات تخوم الربع الخالي إلى دار صباح، التي أصبحت تعاني الإنقسام والتشرزم! ..

أبعد الكلس عينيه المتعبتين عن مدونات دبك، أغلقهما لمدة ليست طويلة وفتحهما، ثم أخذ يقلب صفاحات الواشنطن بوست..

كان مزاجه غامضاً، فأخبار العالم والبلاد الكبيرة، لم تعد تثير شهيته بالقدر ذاته، الذي يفعل تاريخها المنسي.. خاصة أنه كلما زادت مخاوف النَّاس من الإنفصالات ,بسبب نشاط الحركات المسلحة و"نيفاشا" كلما قلَّت -في الواقع- فرص حدوث هذه الإنفصالات.. لذلك لم يكن خائفاً، فهو متفائل على الرغم من أن التفاؤل ضد طبيعته، وربما أنه يريد إيهام نفسه، بأن ما يمور تحت سطح البلاد الكبيرة من غليان، مهما تعاظم. ليس كافياً لتفتيتها.

وفي الحقيقة هو لا يعرف على الإطلاق، كيف توصل لهذا الإستنتاج الخائب!.. ربما أن عُرَى التماسك الصميمي العميق، في مملكة العزلة.. هذا التماسك الذي شيده المقدس دالي بصبر وتؤدة، فألقى بظلاله على كل أطراف البلاد الكبيرة، هو ما يجعله يأنس لما أنس إليه من إستنتاج خائب!

فعندما يتأمل أحوال الغرباء الفقرا المهاجرية، يلاحظ ذلك التداخل الدقيق، بين معتقدات دار صباح الحالية، وأفكار دالي البائدة في مملكة العزلة!
ما يشي بأن جذور الحالة الراهنة، تكمن في الماضي البعيد للبلاد الكبيرة، وأن كل ما يحدث الآن، بمثابة الإنعكاس لما حدث فعلاً في ذلك الماضي البعيد!..
حتى هؤلاء الشيوخ البيانيين، الذين هم نسخة معدلة عن الفقرا، والذين هم خلف الكوارث والأزمات، التي تكاد تعصف بالبلاد الكبيرة.. حتى هؤلاء الأدعياء بفتاويهم العجيبة! وافتراضهم في أنفسهم سلطة حقيقية شرعية.. أفكارهم في الحقيقة هي إنعكاس شائه، لأفكار ومعتقدات أولئك الغرباء والفقرا المهاجرية، الذين غزوا مملكة العزلة مشيعين فيها قلقاً لا تزال آثاره توتر دار الريح والصعيد والسافل ودار صباح، فقد تبنو نوعاً غريباً من المعتقدات والأفكار، المهددة للسلام النفسي والإجتماعي للأهالي البسطاء، أدت في نهاية المطاف إلى زوال الدولة، التي أصبحت أثراً دارساً لا وجود له، إلا في مدونات دبك!..

كان الكلس يشعر بحضور دبك الدائم.. حضور غير مرئي، يشعر به فقط في كل أنحاء الشقة، حتى في الحمام! كان يشعر به موجودا إلى جانبه!.. كان حضورً قلقاً.. ربما كان لا يزال يشعر بذات ذلك الشعور، عندما كان طريداً مشرداً مطلوباً للعسس!..

في فترات غفواته المتقطعة كان يرى فيما يرى النائم، روح دبك تتنزه في فضاء الشقة.. تنتهك خصوصياتها.. فيحاول الكلس مغالبة النعاس، ليتفرغ لمراقبة دبك في صمت.

دبك طيلة حياته كان يكره أن يكون موضوعاً لمراقبة الآخرين، والكلس يعرف ذلك جيداً، ويستمتع بعلائم الإنزعاج التي تفصح عنها روح دبك، من هذه المراقبة السرية، التي تثير أحزاناً وجراحاتاً غائرَة في نفسه، لم تشفها رحلته الطويلة في العالم الآخر، بين أرواح متزاحمة تبث ذكريات ماضيها، الذي لا يخلو من سلام تام..

كانت أرواح لا تنتمي للبلاد الكبيرة.. لا تعرف كيف أنتقلت إلى الجانب الآخر من الهاوية، ولا كم مضى عليها وهي هائمة، كل ما تتذكره طيوف لحياة أشبه بقوس قزح، دون توتر أو قلق، فتفسر ذلك بأنها ذات ماض لا يخلو من راحة البال والسلام النفسي..

لكن من الجانب الآخر، كان أصدقاؤه الآخرون، هم تلك الأرواح المتنازعة، كروح شهريار وشهرزاد..

كل روحٍ منها تريد أن تحتل فضاءً أكبر للحركة.. الحركة الإرتدادية الواسعة، التي -للمفارقة- تستقطب الحضور القوِّي لروح الأرباب،كروح مهزومة، لقائد ظلمه جنرالاته بخيانتهم له، حتى قبل أن تطأ الجيوش المتحالفة تراب بلدة الأرباب..

كانت روح الأرباب في عالمها الآخر، لا تزال تدافع أمام الروح العظيمة عن كل السياسات، التي لا يمكن تجنبها -كما يظن- وصاغت بلدة الأرباب على ذلك النحو المأساوي..

كان يثير حفيظة دبك بدفاعه عن الرقابة والرِّق والإستعلاء.. في الواقع الأرباب في دفاعه عن نظام بلدته، يستند على عدد كبير من المتناقضات، التي لا يمكن أن تخطر على بال أحد، بحيث يصعب تمييز الصواب من الخطأ، فيتمنى الكلس لو كان بإمكانه قتله مرة أخرى -وبالطبع هذا ليس ممكناً- فهو ميت بالفعل!..

حقده على الأرباب دفعه للبحث عن روح جانو قرمط، وأبو جريد دون جدوى.. لم يعثر لهما على أثر بين كل الأرواح الهائمة، وعندما بلغ منه اليأس كل مبلغ، ارتكن إلى قناعة أنهما كفقرا غرباء مهاجرية، لابد أنهما لم يموتا مثله ومثل الأرباب، لذلك ليس لهما وجود بين كل هذه الأرواح الهائمة..

هذا الإستنتاج جعله يشعر بشئ من الرَّاحة، فقد أعطاه نوع من الأمل الغامض، الذي ليس له تفسير محدد!..

ربما كان تفسيره المقبول، أن وجودهما في هذا العالم، سيشيع نوعا من التصورات الكفيلة بتحقيق السلام العام. وفي الحقيقة الكلس يرفض هذا الأمل الزائف رفضاً قاطعاً، بل ويعتقد أنهما سيشيعان -مَرَّةً أخرى- في التاريخ من الإرباك، ما يكفي لبناء ملايين التصورات الخاطئة، التي ربما تؤول إلى نهاية التاريخ نفسه!..

الأرواح الهائمة التي يسرح دبك ويمرح معها، أشبه بشخصية واحدة متعددة الحيوات.. متباينة الأفكار.. عاشت عصور مختلفة، وأصيبت بكل الأمراض بدءً بالطاعون والجدري ومروراً بالأيدز وانفلونزا الطيور وانتهاءً بفايروس كوفيد ١٩ "كورونا".

حاول الكلس طرد الحضور القوي لدبك من حياته، حاول تجريد المدونات وتخليصها من سلطته الخفية، ليغفو غفواته المؤجلة في سلام، في اللحظة ذاتها، تداهمه رائحة الكساندرا، تقتحم خياشيمه باللافندر الممزوج في أغنية الحب لن ينتظرك.. في الوقت نفسه من عطلة نهاية كل أسبوع يتكرر الشيء ذاته: المفتاح.. الباب.. الخطوات الثملىٰ، صوت نافذة تفتح -جيران فضوليين مثله يحاولون التصنت- اللافندر وأغنية الحب لن ينتظرك وردفان متماوجان -ربما يكون مخطئاً، لكن لا يمكنه أن يخطيء طقطقة السرير- والتنهدات العارمة، التي تشعل في كيانه النار، تتناهى إليه لاهثة دافئة..

أنفاس بعيدة تعلق رائحتها، في فضاءات المساكن المجاورة.. هذه الوقائع والأشياء، تهدد غفواته نهاية كل أسبوع، تجعلها مؤجلة حتى بداية الاسبوع الجديد، ففي نهاية كل أسبوع، تشعل جارته الغامضة في ذاكرته البوح، فيتخيلها شهرزاده البعيدة، التي أخذها معه قطار البلاد الكبيرة، ذات ظهيرة حارقة، من أقصى حدود دار الريح إلى قلب دار صباح..

قطار لم يركبه الفقرا المهاجرية أو الغرباء، لكن ركبه الفقراء، الذين لهم ذات الرائحة الليلية الرطبة!.. فقراء "يقرشون" الجمر بين أسنانهم دون أن ينكسروا أو

ينحنوا، لا يملكون سوى أحلامهم.. عندما "ينده" أحدهم إسم أب قبة خضراء في السافل، يستجيب له الأخير في دار الريح وقبته تقول:
"كع كع.."...
فنداء الفقراء كدعوة القدر.. كأغنية الحب لن ينتظرك...

٣

إهتمامات الكلس بشؤون البلاد الكبيرة، تقلصت من المشاركة الفعلية في أي شئ، إلى الإكتفاء بأن يكون في الصورة العامة لما يحدث دون تفاصيل.. صار يكرَّه التفاصيل، إذ تصيبه بالملل!
كان يكتفي بالمتابعات المتفرقة في الإنترنت والصحف والمجلات، وربما يقرأ كتابا أو كتابين كل عدة أشهر، يفعل ذلك بطريقة متحفظة متكتمة، كأنه جزء من معلومات تخص النازية أو الشيوعية أو الأصولية، هذه العقد التاريخية التي يجن لها جنون الأمريكان، وتفضي بصاحبها إلى هلاك محقق، رغم أنف الحريات والحقوق المدنية والحلم الأمريكي..
هذا الحلم الذي ليس له هوية، أو ملامح محددة يمكن الإمساك بها، كديبي رفيقته في رحلة القطار.. فهي أو كائناً من كانت لم تكن لديها هوية محددة،

ليس لأنها تفتقر لهذه الهوية، ولكن لأن الحياة العامة صاغتها -كما صاغت الجميع- على هذا النحو..
مع ديبي أطلق حبال الخيال، لتتدلى إلى قاع بئر الحياة، لا لتدلي بدلوها بل لتحمل في دلوها الفارغ، شيئاً من الذكريات، تنضاف إلى شقيقاتها الأخريات من ذكريات..
تنزها في المحطات العديدة، التي توقف فيها القطار، وهما مهتاجان بالحنين، غارقان في لعبة الحكاوي الغريبة، التي لا تخطر على بال، والمفاجئة بما تنطوي عليه مما يفترض أنه أسرار.. أسرار ديبي.. يعودان إلى مقعديهما المتجاورين، وعندما يمل ثرثراتها وأكاذيبها، يتشاغل بقراءة الصحيفة التي لا تفارق يده..
سبعة أيام من النوم والمطر والمحطات والحكايات، والركاب المخمورين الثقلاء والريفيين العنصريين الخبثاء.. هكذا جرَّت الأمور.. ديبي تركت نفسها تمضي، وهي تغني في تيار كوابيسها ودموعها، كل أغنيات الكونتري سايد والكاوبوي، لكنه ينبغي عليها الآن، أن تضع حداً لهذه الأغنيات، قبل أن يعثر عليها زوجها المدمن، الذي لم يخطر على باله أبداً، أنها هربت منه وإلى الأبد، تبحث عن حبيب جديد، يبتدع لها طريقة للحب والموت، قبل أن تمنحه طفلاً معاقاً كعادتها المزمنة قبل كل هرب..
جارته الأسبانية الغامضة الكساندرا، التي عرف إسمها مصادفة عندما ناداها أحد الجيران، قبل أن تغيب في عربتها الفارهة، في تلك المرة اليتيمة والعابرة، التي لم يشاهد فيها سوى جانب من وجهها، الذي غطته خصلات متمردة،

تتحدى ريح صباحات الأطلسي الباردة، التي تشتد برودتها، في هذا الجزء من العالم المنسي المسمى برينسس آن..

منذ غادرت غلوريا عالمه كان قد أهمل شقته.. تراكمت عُلب المعلبات الفارغة في المطبخ.. الملابس غير المغسولة مبعثرة في كل مكان.. الأغبرة تراكمت على كل شئ: النوافذ.. التماثيل الصغيرة.. اللوحات والصور.. الموكيت إتسخ بالآثار المتكررة لحذاءه الضخم.. الأشياء كلها داخل الشقة فقدت تدريجيا لمعانها، وبريقها!

كان كالمحاصر بنوع غريب من الوحدة.. وحدة خلفتها غلوريا داخله، دون أن تأبه، وربما لا تدري!..

كان ينام ليلتين ونهار، دون أن يفيق من تأثير الكحول، وكل أشياؤه القصوى تتبعثر داخله.. تتبعثر على فراشه المنكوش. فقد أصبح ينام أينما وكيفما أتفق: في غرفة الجلوس، في المطبخ، في غرفة السفرة.. في... كان حاله أشبه بتلك الحال، التي أرقت الحكيمات والحكماء، مما أعترى مملكة العزلة من تشققات وشروخ، تشي بقرب تداعيها وأنهيارها، وتلاشيها إلى الأبد..

كان أشبه بالنتيجة العكسية، التي أفضت إليها مدونات دبك، التي بدلاً عن أن تكشف، عن الهوية الحقيقية للبلاد الكبيرة،كشفت عن كم هي منبتة هذه البلاد،كشئ ينهض في الريح، دون جذور، ترمي به الريح من مكان لآخر..

أرهقه تأمل مدونات دبك فنام وهو يقضي حاجته في الحمام.. وهو يرى نفسه في مملكة منهارة، هرب آخر أنبياءها بليل.. وأفاق مسكوناً بالخوف من الموت على هذه الحال، فقرر أن يسافر إلى أي مكان، فربما تهدأ روحه المعذبة قليلاً..

وهكذا غادر كرنفال الفوضى الحزين في شقته، إلى بلتيمور متوجهاً بالقطار إلى دالاس.. وقتها لم يكن يلحظ وجود الكساندرا، التي بدأ حضورها الطاغ، نهاية كل أسبوع. يتنامى كحضور غامض، يلهب الخيال ويشعل الخواطر..
فالكساندرا تكاد تكون غير متواجدة، خلال أيام الاسبوع الخمسة.. حضورها الطاغ في كل أنحاء المجمع السكني، رهين بليلتي الجمعة والسبت.
يثير هذا الحضور في أعماقه، حنينه المتهاوي لغلوريا، التي إختفت من حياته، في لحظة غامضة، محملة بكل متناقضات مدونات دبك..
كان حضورها الشبحي المهيمن، تتنامى سطوته أكثر فأكثر، في عطلة نهاية كل أسبوع، في الوقت ذاته المتأخر من ليلتي الجمعة والسبت: صوت المفتاح، الباب، وقع الخطى المتعثرة، اللافندر والأغنية الهامسة:

I can't hold back what I'm thinking don’t you tell me that I'm dreaming you know that there's something you should do, do, do, do, do

ثم التأوهات المثيرة والتياعات السرير، التي تعذبه، فيحاول أن يغيب شيئاً فشيئاً في غفواته المؤجلة، دون أن يبتل.. دون أن يتأوه وينادي شهرزاد من بوح المدونات العتيقة..
"في المحطة التالية يا شهرزاد تعالي، بكل الجنون تعالي وأجلسي قربي، أحضري معك النيل لنجلس على ضفافه معاً، تتدلى أقدامنا تداعب أسماكه الضاحكة،

أحضري معك بعضاً من رمال كردفان والسناسنا الضاحكة، وشيئاً من خيوط قمر أربعتاشر في وديان دار الريح، ولا تنسي شجر القنا، وصندل الردوم وقبضة من طين جروف النيل الأبيض..

تعالي بعالمك إلى هذه البراري الأمريكية الموحشة، لتعطيها مذاقا مختلفاً، دافئاً، ومع ذلك ومهما فرحت، لا تنسي أن الحياة أشد قسوة من الموت وجحيم الآخرة.. ولا تصدقيني فأنا محض حبيب مهجور، كمرسى من القرون الوسطى، لطالما رست عليه السفن المحملة بالعبيد!

هدمت غلوريا عالم أغلاله وجعلته منسي.. لكن تعالي لنخلق حياة أخرى في حياتنا.. حياة خالية من كوابيس هذا العالم الفظيع، ورؤاه السماوية المنتهكة.. وتعالي بكل الحكايا تعالي..".

كان يشعر بحنين جارف لا حد له.. حنين يزرعه كنجمة في السكك المظلمة.. الدروب غير المطروقة.. شوارع الليل البهيم، المحاصرة بالكلاب غير الصديقة، وزوار الفجر والمجرمين والمسطولين بالماريجوانا..

حنين يزرعه كنجمة في عين لم تعرف النوم منذ وقت طويل، تضئ كهف أهل الكهف في الآن نفسه، دون أن تفيق شهرزاد لتقتحم غفوته المؤجلة..

هذه الغفوة المحاصرَّة برغبات الغرباء الفقرا المهاجرية، الذين عندما يتأمل أخبارهم، يجدهم ك "الجلابة" أشبه بمفهوم متحول في الزمان والمكان، فهم رجال الدين وتجار الرقيق حيناً، وهم الشعراء والغاوون حيناً آخر، هم قادة الجيوش الدموية، والعلماء والخونة الذي يرشدون جحافل الغزاة، ويقاتلون معهم ضد أبناء جلدتهم، وهم ذاتهم تجار السوق الأسود، وهم تلك الشخصيات، التي

صنعتها الصدفة المحضة، لتنطوي على كل ما أنطوى عليه، الجلابة السابقون واللاحقون، من رؤى وتصورات توظف كل ما هو متاح، من موارد روحية ومعنوية، لتحقيق مصالحها المادية، عبرالهيمنة كقيمة في حد ذاتها، لا كأداة مكروهة لإنجاز أي مشروع، لتكون النتيجة في خاتمة المطاف: الفشل في تحقيق أي مشروع خيِّر، والمزيد المزيد من حروب الإبادة الأهلية الطاحنة، فيصبح من الصعب على راجل الحرازة أم قد ذات نفسه، بكل قدراته الخارقة، التي تفوق قدرات يسوع الناصرَّة، إنقاذ البلاد الكبيرة من مأساتها الوجودية، وحزنها الذي لا حد له..

وفي الواقع راجل الحرازة أم قد، هو ذات نفسه، جزء لا يتجزأ، ومكوناً أصيلاً في نسيج هذه المآسي، التي أخذت تتخطى دار الريح والبلاد الكبيرة، لتلقي بظلالها على الكون كله..

كان الكلس يهذي.. أو هو في الواقع يحلم بزمن لا يرغم فيه أحد على الرحيل، إلى أي مكان، وأي مكان هو المكان ذاته في إتجاهات الخريطة، حيث يمكن للشمس أن تشرق من الإتجاه الذي يروقها، أو تغرب عندما تريد ذلك، وحيث يولد الناس من جديد كل يوم، بمزاج مسالم يانع، وحيث الحياة مثل نداء حار مشترك، في أغنية واحدة يغنيها الآفروأميركان.. بقايا الهنود الحمر.. المهمشون في مشارق الأرض ومغاربها.. أغنية واحدة تحملها الرياح الكونية، بين الأماكن كلها، وفي كل مكان هي الأغنية ذاتها، التي تحث على الحب، فهو لا ينتظر ولا يتوجب علينا أن ندعه ينتظر..

تتأمله ديبي بدهشة وهي تقول:

"أنت غير واقعي!..لا مكان لك هنا!"
ديبي كالميرم، مغرمة بكل ما هو حسي، طاغ، يفرض سطوته عليها، لا تحب الشعر وتكره الشعراء، ولم يحدث أن قرأت حرفا واحدا يمت للتاريخ بصلة، وجودها في هذه الحياة رغم كثافته، إلا أنه عابر كظل الضحى، ليس بإمكانه أن يقيم طويلاً..
يخيل له أن هربها من زوجها بهذه الطريقة، شبيه بذلك الدور التآمري، الذي لعبته الميرم، بالتواطوء على خطة شطة للقضاء على دالي.. أتذكرون؟..
تتداخل حكايته مع ديبي بعوالم المدونات وحكايات العمل، والحكايات التي خلفها وراءه في البلاد الكبيرة.. ديبي\ديبورا أو شهرزاد.. رفيقة رحلته في القطار، المنطلق من أقصى الساحل الشرقي إلى قلب الجنوب، لتواصل وحدها غرباً..
ديبورا أو كما تحب أن يناديها المقربين، بديبي أو ذات العيون الزرقاء، أمثالها تجدهم في كل الأزمنة والأمكنة المقيمة والعابرة.. المعاصرة والغابرة والقادمة، إنها نوع من النساء، عندما تلتقيهن تدرك منذ اللحظة الأولى، أنك لا محالة هالك كأنك في قلب البحر..
والبحر يحيطك من كل جانب، وأنت غريب. متعب. مسكون بالحب والجنون والمنفى، والسفر الشاق عبر حكايات لا تنتهي، وكل شيء حولك على حافة الإختناق، وربما يقضى عليك إلى الأبد، فأنت لست راجل الحرازة أم قد، أو الفقير "سيد الرويكيبة أب قبة خضراء" أو أيا كان إسمه السري.. أنت في التحليل النهائي:

محض عاشق مهزوم، حزين ووحيد. هجرتك غلوريا إلى غير رجعة:
"لماذا نساء هذه البلاد يهربن من أقدارهن؟"
الإجابة لن تمنحك التعويض، عن كل المشاعر والإحساسات، التي سكبتها بسخاء..
لم تكن ديبي بأي حال من الأحوال، تمثل له أي شكل من أشكال التعويض المرتجى، فهي نحيلة إلى درجة أنه يحس، أنه لو أمسكها من وسطها ستنكسر، لم تكن فارعة ممتلئة كشهرزاد.. كانت أشبه بقصبة مسوسة، في مهب ريح الأطلسي المجنون..
تحطمت ديبي مرارا وتكراراً، وجبرت كسورها، لتنهض مرة أخرى، أشد قلقاً وجنونا من طائر فينيق!..
أنجبت ديبي طفلها الأول من صديقها المدمن، عندما كانت في السادسة عشرة، وأنجبت للمرة الثانية من مدمن آخر طاعن في السن، تزوجها وعاشت معه حتى لحظة هروبها. قبل أسبوع فقط من لقاءها به، في هذا القطار الذي يغادر ميريلاند متوجها إلى تكساس..
طفلي ديبي معاقان عقلياً، حتى أن أكبرهما كلما رأى بن لادن في التلفزيون يصرخ:
"جيسس، جيسس!"
وأحيانا يصحو في الهزيع الآخير من الليل وهو يبكي، لأن جيسس مات أثناء نومه، ولا أحد يستطيع إقناعه بعكس ذلك، وديبي لا تدري ماذا يعني بـ "أثناء نومه" سألت الكلس:

”نوم من؟“
تردد قليلاً:
”ربما يعني نوم جيسس، المسيح.. وربما يعني نومه هو شخصياً.. من أين لي أن أعلم كيف يفكر طفل معاق عقلياً يا ديبي؟!“
لكن هل طفل ديبي وحده هو المعاق عقلياً، ماذا عن عالم المدونات؟.. ماذا عن هذا العالم المعاق الذي نحيا فيه؟.. ماذا..
صوت ديبي كصورة وجهه الظلالية، المنعكسة على زجاج نافذة القطار. صوت ديبي الحاد وهي لا تكف عن الثرثرة، يرجه رجاً منذ غادر القطار بلتيمور.. والقطار يصل هريسبيرج والقطار يغادر كولومبس، والقطار يتوغل في الغرب الأوسط، مخلفا تنسي وراءه.. كالصورة الظلالية، على زجاج نافذة القطار.
يستعيد خواطره من أسر حكايا ديبي، فتداهمه شهرزاد، وكل أطياف البلاد الكبيرة.. هنا. في هذه البلاد البعيدة، أقاصي الدنيا.. هذه البلاد، التي لا يمكن أن تخطر طبيعة حياتها، على بال الفقير سيد الرويكيبة..
يحاول الكلس التعرف على روحه المنقسمة، فلا يشعر بنفسه سوى أنه غائب هنا، حاضر هناك، حيث شهرزاد وكل الحكايا المدونة، في كتب الليالي الطويلة، والتي لا تكف تترى وإن طال الصباح.. تحكي شهرزاد ما سكتت عنه تواطؤات دبك، يخرج صوتها من قاع المدونات.. يعدل ويحذف ويضيف.. يجيء صوتها من هدير الوديان.. العصافير.. طيور البَرِّية.. شجر المهوقني.. دناقل العسل ودلالينق المريسة..

من نافذة القطار يطل وجهها، تحكي عن فقير غريب، مرتحل.. دهمته المنية ليلاً وليس معه سوى نسائه اللاتي لا يعرفن لهن إتجاهاً.. جهزنه واحترن في إتجاه القبلة، ولم تطل حيرتهن، إذ أشرقت الشمس ليلاً.. خرجت من بوح عتمتها، ممزقةً أسداف الظلمة الحالكة.. فحفرن قبره قبالتها، وما أن أكملن إهالة التراب، حتى غابت الشمس مرة أخرى، فقد كان الفقير المنتقل، ثالث الخلفاء، الذين أوقدوا نار عبد القادر الجيلاني في دار الريح والصعيد والسافل، وأول الذين أوقدوها في دار صباح.. تسترسل شهرزاد:

"سرق السكارى عنزته الوحيدة.."

قاطعها:

"كمعزة غاندي؟"

"لا، لكن تشبهها!.. ذبحوها وطبخوها وأكلوها، فأخذت تصرخ في بطونهم، التي كانت قد إنتفخت، وأخذت تصدر ثغاء له دوي!"

كان هذا الفقير عندما يتوضأ لأداء أحد الفروض، يعود شابا يافعا فارعا، وعندما يقيم الصلاة، كان يطول ويستطيل حتى يتخطى رأسه عرش الخلوة، ويخرق السماوات السبع، فيسجد الملائكة معه ويركعون.

وما أن يُسلم حتى يعود شيخاً طاعناً كما كان، فهو أحد القلائل الذين جاءهم النبي الكريم(ص)بصحبة علي ليلقنانه الذكر، وكان في كل مرة بعد أن يرحلا، يرى نفسه خارج جلبابه الملقى على "الككر"..

وروحه تخرج من بدنه، تتعلق بنجمة وحيدة كبيرة في السماء، فيطير.. يخترق السماوات السبع.. يسمع صرير الأقلام، ثم يرجع.

ومثل كل مرة يقع في جزيرة من جزائر المالح، يلتقيه فيها الخضر.. يكسوه بالصوف، ويلقنه إسمين ثم يمشي معه خطوتين، يجد نفسه بعدهما في غابة صغيرة، تنهض داخلها كنيسة عتيقة، داخلها قساوسة ورهبان، فيرطن معهم رطانة أعجمية..

يتركوا ترانيمهم وصلواتهم، ليحاججوه فيغلبهم، فيستسلمون ويسلمون، ويعود هو هانئا. لا يدري كيف ومتى. فكل ما يذكره، أنه وجد "رواسي" قاده إلى مركب، ما أن وضع قدمه داخلها، حتى رأى نفسه في خلوته، وجلبابه ملقى في مكانه، الذي تركه فيه، فتميع روحه وتدخل الجلباب..

هذا الفقير في بداية أمره، كان يعمل سقاياً في أندايات المرايس، ويسكن البرية الموحشة، إلتقاه الخضر ذات حر غائظ، وطلب منه أن يسقيه من خرجه، الذي يريد أن يرق بماءه المريسة للمراسة. فسقاه. فدعا له الخضر بالإرتواء بالدين، فأستغفر الله وتاب من لحظته..

وسلك طريق القوم، فانجذب وغرقٍ وسكر، ولبس الجبة "المرقعة" وفوقها رحط، علق عليه جرسين يميناً وشمالاً، وأخذ يزغرت كالنساء!

فتضرب له خادمته الدلوكة، وهو يرطن ويهتف من بين زغاريده التي لم يفهم منها سامعيه سوى:

"دقي الدلوكة * خادم الله الماك مملوكة".. رغم أنهم حفظوا رطانته المموسقة، التي كانوا يغنونها، دون أن يستطيع أحدهم فك لغز لغتها:

Cause love ain't gonna wait for you Don't run, don't hide Love ain't gonna wait for you It's so good, it's so right Love ain't gonna wait for you You know that it's true

وكان عندما يزغرت، يسمع ناس الفلوات البعيدة، وعرب الصحراء زغاريده..
رفاقه الفاسقون المفلسون القدامى عشاق النساء، قالوا:
"جنّ ما براه"
لكنهم مع ذلك، كانوا عندما لا يجدون ما يقيمون به أودهم، أو يمزون به مريستهم، يجيئونه شاكين:
"نحنا جوعى وما عندنا لا شمار لا كزبرة"
فيجيبهم:
"بهاراتكم علي لكن الضبيحة عليكم"
ويمد يده، وفي لمحة البرق يكون في بلاد الكفار "يخرت" الفلفل والشمار أخضر. ويتبادل الحديث مع النصراني صاحب المزرعة، ويخبره أنه جاء من بلاد الإسلام، فيتشهد النصراني ويسلم..
كان يزغرت إلى أن مات راقصاً، فإذا مر أحدهم على قبره زغرت القبر..

٤

هبط الكلس إلى شوارع برينسس آن الليلية الرطبة، التي لا تزال مختنقة بآثار البرد والمطر الثلجي. كان يرغب في المشي.. فقط المشي دون توقف.. دون أن يلوي على شئ.. إجتاز سمرست آفنيو، داس درجات الرصيف، الذي يتكسر عليه الثلج المباغت. الذي سرعان ما يحوله ملح التذويب، إلى مياه سوداء داكنة، تجرفها المصارف إلى نهر البكموك..

كانت ومضات الحنين المباغتة تتلاشى، فيداهمه وسن، يزرعه في عينيه ورأسه شبه المخدر، الصوت المنتظم لعجلات القطار، وهي تنهب السكك الحديدية.. تختفي بين طبقات وسنه المتردد برينسس آن، والمدونات ويتوقف الوسن عند لحظة واحدة ممتدة:

لحظة هو وغلوريا واقفان قبالة الأطلسي، يحدقان في ظل الهضاب البعيدة، حيث ينتهي الأطلسي عند تخوم العالم القديم، فتعود الحمامة تحمل غصناً أخضر، يعلن قرب الوصول إلى اليابسة..

أشباح متفرقة في الأرصفة الليلية لبرينسس آن، يتفحصها في الظُلمة: رجال مخمورون.. نساء ثملات.. مخدرون ومخدرات بالماريجوانا..

مصابيح الضفة الاخرى للبكموك، بعد الهاي وي رقم ثرتين ترتعش.. يتخيل الظلال.. الأضواء المرتعشة، التي تنعكس على الضفة الأخرى للبكموك.. أشباح الهنود الحمر تسبح في النهر، تتقدم فيه دون حذر، وأشباح الزنوج "العبيد" الذين يعملون في المزارع حول البكموك، تبتعد قليلاً قليلاً عن النهر..

الأنهار تثير فيهم ذكريات مؤلمة.. الأنهار بنات صغيرات للأطلسي الرهيب، الذي تعبر فيه سفن الرقيق -والبنات الصغيرات النزقات سر آبائهن.. البكموك سر الاطلسي، في هذا الجزء من جنوب شرق ميريلاند -تحط بهم هنا ليتسحبون إلى مزارعهم، يتركون أشباح الهنود المتراقصة، على صفحة نهر البكموك كأضواء مرتعشة لنجوم بعيدة أو قمر ذاوي..

أشباح الهنود الحمر تكف عن الرقص، تطفح على سطح النهر، مخروقة من أعلاها لأسفلها.. مثقوبة بالبارود..

المشهد نفسه، وفاطمة السمحة تتلقى طعنة الرجل الواحد، في ثمرة الفؤاد، ليرحل بعدها جيش التحالف الرهيب، تاركاً طفلتها تاجوج دون مصير مرتقب..

ما أسوأ أن تكون بلا مصير!.. كقلب وحيد محاصر بالذكريات، والمنافي وليال الشجن المنسي، يباغتك الشجن، يفتحك على نوع خاص من الحنين المؤذي..

هل كان دبك وهو يكتب مدوناته، يدري ما الذي يفعله بالضبط؟ هل كان يكتبها وفي خاطره شخص محدد، سيقرأها ذات يوم، ويتوصل إلى نتيجة ما، فشل دبك نفسه، في التوصل إليها..

الطرقات المظلمة موحية، ماذا لو طرق على الأبواب، وأخرج كل النساء العازبات، وقادهن إلى البكموك .. إلى المزارع ليرقصن مع أشباح الهنود الحمر، والزنوج البائسين.. ماذا لو احتال وفتح باب الشقة المجاورة، ودخل يقوده نور الصالة، الذي يرشح هادئاً ومتهاديا في زوايا الشقة.. ماذا لو دفع باب

غرفة نوم الكساندرا -أوكائنا من كانت- الموارب دفعاً خفيفاً، وتمدد إلى جوارها عاريا..

يضغط على يدها، يتحسس دفئها وينام.. غالباً ستصحو مذعورة، وتتصل على البوليس، لينتهي نهاية قاضية وبائسة وإلى الأبد، دون مدونات. دون دبك أو شهرزاد ولا يحزنون..

هذا هو العالم الحقيقي، الذي لا يمكن للمدونات تصوره.. عالم لن يتمكن فيه أبي جريد من زراعة أشرميه -هكذا بكل بساطة- في رحم مسك النبي ويمضي، دون أن يسأله أحد.. عالم لا يمكن لدبك فيه، أن يتسبب لنينا في كل هذه اللوعة، دون أن تتخذ محكمة الأحوال الشخصية موقفاً مناسباً، يفضي بكل هراءاته وأحلامه الثورية -الأنانية في الحقيقة- إلى المزبلة.. فهذا شعب يحب رمي أي شيء في الزبالة..

عالم يصعب عليه تفهم أنماط سلوك، كتلك التي تميزت بها أم حجل، بنت مسيمس، السرة، قندل اليمن، أمونة، الفنجري..

هذه الشخصيات، التي لا شك أن دبك يعتقد أنها، متجددة في الحياة اللامتناهية.. متجددة في الزمن والمكان، وليست مجرد شخصيات بائسة.. حبيسة لعالم مدونات ملفقة.. ليست تاريخاً كما تزعم عن نفسها، فهي محض إسقاطات شخصية، لشخوص مهزومين كدبك أو الكلس ذات نفسه أو الفقير سيد الرويكيبة..

إذ من الصعب أن يتصور وجود "بلدة" كالأرباب، على النحو الذي صاغته مدونات دبك.. هل فعلاً كان لأبي جريد والأرباب نفسه،كل هذا الخيال المأساوي المرعب؟!..

فإنتاج تصور كالأرباب يحتاج لطاقة شر خلاقة!.. بقدر كبير، يفوق خيال الفقرا.. طاقة قاسية بالدرجة الأولى، تفتقر لتلك الحميمية والدفء، اللذان يشيعان في شخصيات مدونات دبك، التي غالبا كتبت سيرة حياتها بنفسها، وهكذا حددت للآخرين، الطريقة التي ينبغي عليهم أن يروها بها!..

لذلك لو تم قلب صورة العاتي والدريب، سيتم إكتشاف طبيعة مغايرة، هي الأقرب لحقيقتهما المروعة، إلى جانب أن العاتي، سيبدو -غالبا- أضعف من أن يقتحم بجيوشه دار صباح..

الوسن المزروع في حدقات العيون.. وسن هدهدة عجلات القطار. يدفعه للنوم عميقا، وعميقا.. يقترب القطار من حدود تكساس، فيمضي به الوسن في الوقت ذاته، إلى تخوم أحلام غامضة..

كان يحلم بصبيحة مشمسة في البلاد الكبيرة.. صبيحة ألفها منذ الطفولة.. حين كان يصحو على صوت أمه الدافيء، الذي يزرع فيه حب هذا الصباح، النديان برياح الجنوب القلقة.. وجهها الصبوح يملؤه بالسكينة والحبور. يشرب الشاي من يديها.. تعد له القهوة بالبن الحبشي وتودعه بدعاءها إلى العمل..

صبيحة يحن إليها حنينا جارفاً.. حنيناً مؤلماً ومعذباً.. في مثل هذه الصبيحة، يمضي بملابس خفيفة، تلائم طقس البلاد الكبيرة الحارق و"مركوب" من جلد الماعز، ربما لا يزال مشرباً برحيق القرض.. يقطع شوارع السامراب شرق..

يركب الحافلة.. يصل المحطة الوسطى، ويواصل إلى عمله بقدميه، فيسمع من بعيد صوت أحد الأصدقاء، ينبثق من مكان ما. يستوقفه ليقرأ له قصته، أو قصيدته الأخيرة، ثم يعرجان إلى محل التنباك، ويمضي بعدها كلاهما في حال سبيله..

إنه الحنين إلى عالم حياته القديمة.. حنين لا يخلو من إغراءات البلاد الكبيرة الأسيرَّة، الفاتنة بمكرها وحيلها الغريبة!..

كانت الأنوار مطفأة عندما أستيقظ. لا تلوح سوى إضاءات خافتة، تتماهى في صوت عجلات القطار المكتومة.. تتماهى في ستائر النوافذ الداكنة.. تتماهى في الزجاج السميك، والظُلمة الكلية في الخارج. لا شئ في الداخل سوى التنهدات الخافتة، مجهولة المصدر والشخير المتنامي، والرغبات المترددة أو الجريئة أو الحائرة..

وديبي غارقة في الكوابيس، التي يزيدها صوت عجلات القطار رهبة.. تتوقف حياتها عند الأسبوع الماضي.. في اللحظة التي قررت فيها، التخلي عن طفليها وزوجها، والهرب من أقصى الساحل الشرقي، إلى أقصى الساحل الغربي.. سألها:

"إلى أين تمضين؟"

"لوس أنجلس!"

"لكنها غالية جدا!. ما يهمني فقط أن أبدأ حياة جديدة.. بأي ثمن"...

ديبي طيلة سنوات عمرها، التي لم تتخطى منتصف العقد الثالث حتى الآن، ظلت منشغلة بالحب والجنون ومتاعب الحمل والولادة، وذكرى إغتصاب

والدها لطفولتها المنتهكة.. خرجت ديبي إلى الحياة من رحم أسرة فككها الإدمان ولعب الورق.. فشكلت هذه الكوابيس حياتها البائسة، حتى أنها لم تكمل تعليمها الأساسي..

٥

ترى كيف كان دبك يفكر في الموت؟.. هل تصور أنه سيموت يوما ما، مخلفاً وراءه كثير من الهُراءات، التي سيورثها للكلس، الذي تقديرا لسيرة جده سيطلق عليها "مدونات" أو مذكرات أو.. ترفقاً..
لماذا يأتي الموت لكل شخوص هذه المدونات، عابراً وسريعاً كانتقال الفقرا؟..كرحيل مباغت، وليس موتاً مخيفاً كموت..
الموت عند دبك أشبه بصديق ودود، أشبه برحلة من مكان إلى مكان آخر.. رحلة ليست عسيرة كرحلة دقاش وود بندة. رحلة أشبه برحلة أبوخيرة، بقوافله المتنقلة بين دار الريح ودار صباح، أو إنتقال دبك نفسه، من البلاد الكبيرة إلى بلاد اليانكي..
لسبب ما،كان دبك لا يرغب في رسم صورة مخيفة للموت. ربما كان لديه إحساس خفي أن الحياة أقسى من الموت، لذلك مدوناته ترسم للحياة صورة مزعجة، أشبه بالصورة التي يتوجب على الموت أن يكونها..

يمضي الكلس في تأملاته، فتقفز إلى شفتيه اليابستين، تلك الأغنية الجرارية الحزينة. يرددها بهمس يكاد يكون غير مسموعاً له هو نفسه.. أغنية بمثابة حياة كاملة، حياة يحبها.. حياة الوادي والقمر والمطر والليل والشجر، والحياة المتجددة التي دمرتها الحرب الأهلية الطاحنة، بين الموالي، الخوارج، القرامطة والمعتزلة، وكل الفقرا المهاجرية والغرباء المهمشين من جانب، ومضر من جانب آخر.. حيث تخرج الآن من أعماق القبور، وهياكل الجثث والأغشية المنتهكة لبكارات العذراوات المغتصبات، وبقايا المزارع والحيوانات والناس..

حيث يخرج من كل ذلك أغنية حزينة، تتكرس في ذاكرته المنتهكة، كأحاديث لا تثمر، عن الطفولة واليتم والمنفى.. أغنية يرددها أطفال المعسكرات على حدود تشاد، بأصواتهم الحادة المنهكة الأسيانة، فيتردد صداها هنا في آخر الدنيا، عند أبعد حدود العالم، وحدود الكون المتسع، فتلتقط ديبي الحكاية من شهرزاد، لتحكي عن الكون المتسع..

تدخل شهرزاد في جبة الكون، التي دخل فيها إبن العربي، حيث لا يكون سوى الصدى للصوت السري الخفي:

ما الذي في الجبة؟..

لا شيء سوى الصوت السري الخفي، المنبعث من اللامكان واللازمان، حيث تنبت شجرة في التو واللحظة، لتظل أولئك الفقرا، الذين نال منهم التعب، دون أن يجدوا ظلاً يستظلون به، يوم لا ظل سوى الظل السري..

يجيء إبن العربي من مكانه الخفي، في جبته الخضراء، يمس الأرض الصحراوية القاحلة، بسيف القدرة وسيف الولاية، فتنبت خميلة ليس كمثلها خميلة..

وبعد أن ينال الفقرا الذين هدهم التعب قسطاً من الراحة، يعطيهم إبن العربي سيف الولاية، والإذن بإيقاد نار البهاري في فجاج "القِبل" الأربعة، فيتفرقون من ساعتهم كحواريين المسيح..

يحلون في الكون ويحل فيهم، يتماهون في بعضهم وفيه، ويصبحون كلاً موحداً، فقد سقاهم إبن العربي، من بحر لم يشرب منه سواهم.. سقاهم "ترجمان العشاق"..

ومن نافذة القطار تلوح قبة خضراء، فتهتف شهرزاد:

"إنها قبة أبو رايات"

"ومن يكون هو الآخر؟!"

يسألها دون أن يكون مهتماً فعلاً للإجابة، التي يعرفها سلفاً، ويعرف أكثر أن إجابتها، ستكون مختلفة عما يعرفه عن أب قبة خضراء.. ترد في حماس:

"بعضهم يؤكد أنه الإبن البكر لراجل الحرازة أم قد، أنجبه من جارية أعجمية، جميع "الرطاطين" إرتبكو أمام رطانتها، التي لم يسمعوا بها من قبل، فجاءوا بها إليه فراطنها، فوهبوها له، فولدت أبو رايات، الذي شيَّخَّه فقراه، وهو لم يكمل الرضاع بعد"

في الليلة التي ولد فيها أبو رايات، كانت "الحالة" قد حلت على راجل الحرازة أم قد، فشد ناقته، حملّها كتبه وأردف طفله أبو رايات، ومضى ضارباً

السباسب والوهاد.. تعمق في الفيافي والفلوات، حتى وصل قوز الحراز، أو ما أصبح يعرف عند الكثيرون، بالحرازة أم قد، حيث أختفى في فتحة الحرازة، وكان بعض الفقرا القادمين من مالحة بطريق الملح، قد رأوا في الحرازة، درب أقدام طفل صغير على الرمل، يمشي من شجرة إلى أخرى، بحثوا عنه، وعندما وجدوه أخذوه معهم..

بعد عشرات السنوات، سيعود هذا الطفل نفسه إلى ذات الموضع، الذي أختفى فيه والده.ي قيم فيه حاملاً إسم والده..

كأن راجل الحرازة الأب، جدد نفسه في راجل الحرازة الإبن، الذي يعرفه البعض بأبي رايات..

ولا تسكت شهرزاد عن الكلام غير المباح، عند حلول الصباح، إذ يتماهى صوتها، في صدى أغنية أطفال المعسكرات.. يندمج في الصدى المكتوم لعجلات القطار..

يقلب صفحات الواشنطن بوست، ويقرأ مزيداً من الأخبار المكررة، التي تناقلتها وسائل الأنباء المختلفة، في أنحاء عديدة من العالم:

خبر عن إستقالة طاغية دار صباح، عن قيادة جيش الإبادة الجماعية، وترشيحه لنفسه في أول إنتخابات رئاسية، تجرى في البلاد الكبيرة، منذ ربع قرن..

المفارقة أنه كتب في برنامجه الإنتخابي عبارة: "إنتخبو القوي الأمين".. إنه شخص لا يختشي!..

كاتبه صديقه الوحيد من البلاد الكبيرة الأسيرة، وهو يضيف:

”هل تصدق في كل لقاءاته، يتحدث عن نفسه كنزيه، في الوقت ذاته يقتل أتباعه الطلاب، الذين يطالبونه بتسليم نفسه للعدالة الدولية؟!“

كان خبر إعلان طاغية دار صباح لنفسه مرشحاً للرئاسة، قد أثار حفيظة كافة المنظمات الحقوقية، وأخرج إلى العلن كل المسكوتات عن المؤامرات الإنتخابية، والتوجهات العنصرية المشرعنة ”ديموقراطويا“ والتي تجري في الخفاء..

مقال لأحد المخططين الإستراتيجيين، في السياسة الخارجية الأمريكية، يعلن فيه مخاوفه عن تراجع وشيك للدور الامريكي في العالم، ومخاوف بشأن مستقبل الحلم الأمريكي، وانحسار إمبراطورية اليانكي والواسيب، إلى حدود الدولة الوطنية..

وأعمدة كثيرة تنتقد سياسات بروفيسور أوباما، وتؤكد أن أمريكا بحاجة ”لسياسي قوي أمين“ على شاكلة بوش وليس بروفيسورا في القانون في عالم الحاله الجنجويد!

رفع عينيه عن الواشنطن بوست، وهو ينتهي مرة أخرى إلى التسليم ذاته، بما يعرفه عن البلاد الكبيرة، ويتظاهر بجهله أو تجاهله، إذ لا يريد رؤية البلاد الكبيرة، إلا من خلال شهرزاد غفواته المؤجلة:

”حميمة لكن ليس لديها أجوبة لأسئلتها المحيرة“.. فالأجوبة تجعلها تجتر أحزانها الأبدية، وذلك لن يفيدها في شيئ، ففي نهاية المطاف، لن تنجو هي الأخرى من مصيرها المحتوم، الذي زيفه مؤلفون ألف ليلة وليلة، فشهرزاد لم

تنجو في الليلة الأخيرة بعد الألف، فعقدة شهريار دار صباح لم تكن قد حلت على الإطلاق..

لكن هكذا هم مؤلفوا التاريخ الرسمي، بإمكانهم تزوير أي حقائق، تتعارض مع مصالحهم المادية والمعنوية.. عندما يدخل غرفته القصية كل مساء، ويبدأ في إحتساء كاساته،كان يرى ديبورا تتسحب هي الأخرى، عبر محطات القطار. تجثم على حافة الكأس. تسحب الدفء ويسري صوتها بارداً كالصقيع.

ديبي أشبه بلعنة مماثلة للكساندرا، التي تجسم على أنفاسه باللافندر، والحب الذي لن ينتظر..

طوال الرحلة بالقطار، كان من النادر أن يتغشى ديبي الهدوء، فسرعان ما يتبدل مزاجها نحو الأسوأ، دون سبب واضح.. تزفر زفرات حارة عميقة أصبح يتوقعها، ولا يعرف مواقيتها، قبل أن ترميها بوجهه، الذي كالمنحوت على الصخر، دون تعبير محدد سوى تعاطف خفي.. هذه الزفرات التي يسعى جاهدا لتجنبها، يحاول أن يجد لها تفسيراً محددًا. دون جدوى..

الكساندرا شيوعية بالوراثة، ليس بالمعنى الماركسي المنهجي، فهو نوع من التشيع العاطفي العقدي، مثل ذلك النوع الذي يمارسه شيوعيين البلاد الكبيرة..

والدة الكساندرا برجوازية "متعفنة" على حد تعبير شيوعيين العالم الثالث، وهي برجوازية متعفنة، لأنها إبنة مسئول كبير في الدولة المكسيكية، للمفارقة هذه البرجوازية "المتعفنة" وقعت في غرام شيوعي مكسيكي فقير من ألد أعداء الامبريالية -بالطبع غير متعفن مثلها- السبب الوحيد الذي جعله يصبح شيوعيا، هو عقدة الظلم، و الإحساس العميق بالغبن تجاه الأغنياء "غير الوطنيين بنظره طبعا" فالأغنياء غالبا هم رأسمالية غير وطنية، وجميعهم دون إستثناء،كسبوا أموالهم، بطرق غير مشروعة!..

ونتيجة لهذا المزيج من الغبائن والمفاهيم، طورد ولوحق وأعتقل وعذب، فضغطت حبيبته البرجوازية على والدها.. ولأنه كبرجوازي فاسد، لكن يحب أسرته. ويرعى التقاليد العائلية المكسيكية العريقة، تدخل بعلاقاته المعقدة، وتمكن من إطلاق سراح مشروط لحبيب إبنته، مقابل أن تتخلى عنه، وأن يتخلى عنها.. من جهة أخرى، لا يليق بهذه البرجوازية العذراء –عذريتها بالطبع مشكوك فيها، فقد إنفرد بها هذا الشيوعي الفاشل الفقير، أكثر من مرة– أن تربط مصيرها بمصير طبقة تفتقر للأمل!..

حبيبها الشيوعي الفقير، لم يصدق أنه تحرر من قبضة الجلادين، فخطف أم الكساندرا وهرب، ضارباً عرض الحائط، بالوعود التي وعدها للبرجوازي

الفاسد والد حبيبته -تكتيك طبعا- جاء إلى هنا، حيث الأمل وحقوق الإنسان، في معقل الرأسمالية المتعفنة، عدوته اللدود!
لكنه بالطبع لن يتجرأ على الحديث عن النقابات والإتحادات، بل سيعمل طيلة حياته في محلات الفاست فود، ومحطات الوقود، دون أن يجرؤ على الحديث عن حقوق العمال ومصانع اللحوم، بل سينكر أنه شيوعي حتى لا يأكله غول الرأسمالية المتعفنة، وسيمضي إلى خيانة مبادئه العمالية أكثر فأكثر، فيرتدي الجينز ويأكل البيرقر ويشرب الكوكا كولا، ولن يقرب التكيلا والفودكا من فمه، الذي سيعشق حتما الويسكي الهنسي ويدمنه، وسيتعامل مع كل مستهلكات ومخرجات الرأسمالية البغيضة -كنوع من التأمين الحزبي- لذر الرماد في عيون الرأسمالية، التي يتنبأ لها سراً بالإنهيار الوشيك وفقا للديالكتيك!..
في الحقيقة. أفصح أكثر من مرة لوالدة الكساندرا، أن البيرقر لذيذ، ويروقه تماماً، كما أنه بات يفضل الكوكا كولا، على الفودكا ذات نفسها..
تسسللا إذن حدود المكسيك، عبر شبكة معقدة من التهريب، برع الرفاق الشيوعيون في صنعها، فلديهم خبرة كبيرة في التأمين والتهريب، أفضت بهما هذه الشبكة المعقدة، إلى نفق حدودي بين الدولتين، لحظتها كان الخوف والرعب الشيوعي والرأسمالي المشترك قد بلغ في نفسيهما ذروته، فقاوماه بالتوحد..
في لحظة ما لا يعرف أحد حدود عمقها، إستحالا إلى كتلة من التوحد الكلي، تمكن فيها الشيوعي الفقير من زرع الكساندرا، في رحم البرجوازية

المكسيكية، التي ككل النساء تعبد أساطير الحب البائدة، وتقيم الدنيا وتقعدها لأجلها..

فأسطورة الحب عند النساء تدفعهن للرمي بالمقدسات، دون أن يلقين بالاً لمزاعم السلطات الاكليريكية، بأن أفكار الضلال الإبليسية قد تمكنت منهن.. بل يفعلن ما هو أسوأ: يقعن في غرام شيوعيين مغبونين فاشلين ومتسخين الملابس، لا يستحمون لأيام عديدة تفوح منهم رائحة الشعراء والتشكيليين، تلك الخليط من العرق والزيوت والألوان، لكن للأمانة يجيدون النضال عبر الهتاف الغنائي..

دراما الزواج الشيوعي-البرجوازي المقدس الذي ربط بين والدي الكساندرا، ستبقى مكوناً عاطفياً أصيلاً، يصنع منها شخصية مزعجة، رغم محاولاتها الدؤوبة، في أن تبدو متحضرة ولطيفة..

وفي الحقيقة الكساندرا تتكلم الأسبانية، بلهجة أمريكية أكاديمية رفيعة، وتتصور أن على الكلس أن يبدي دائما نوعا من الإندهاش تجاه حكاياتها، التي هي في الواقع، حكايات بائسة لاقيمة لها.. عزاءه أنه لا يهتم سوى لجمالها الأنثوي البديع.. فأياً كانت حكاياتها، فهي لا تعدو أن تكون سوى، إبنة ذلك النفق الحدودي، فمن هناك بدأت تتكون، رغم أنف بوليس الهجرة وحراس الحدود، ومن هناك جاءت إلى العالم الجديد، لتولد وتعيش في الحلم الأمريكي، بكل ألقها، كمديرة مبيعات برجوازية أصيلة، في شركة تنتشر فروعها ثلاثة أرباع العالم، وتقاتل بكل السبل لإنقاذ نفسها من الإفلاس،

بسبب الأزمة الإقتصادية الطاحنة، التي يسعى بروفيسور أوباما جاهداً لتحديها، دون جدوى..

هو و الكساندرا، كانا شبه غارقين في ظلمة الصالة، دون أن يفكر أحدهما في إضاءة النور.. الإضاءة المتسللة من أنوار الشارع، تجعلهما يبدوان كشبحين يقفان قبالة بعضهما..

تجلس الكساندرا، تغوص في اللوف سييت، وتهمس:

"الحب لن ينتظرك"

فيرمى بجسمه المتداع على الصوفا وهو يقول بطريقة عابرة:

"فضلا، أشعلي المدفأة إلى أقصى حد ممكن"

لم تحرك ساكناً، فنهض يشعل المدفأة بنفسه.. ثم أنكب على المدونات، التي كان قد أهملها مؤخرًا، إنكب على ملاحظات شخصية بخط دبك، تخللت هوامش المدونات، حول ما إذا كانت التفاصيل، التي يسردها عن حكايا البلاد الأسيرة، وكل هذه الشخصيات التي هي في الحقيقة شخصيات بائسة، ما إذا كانت هذه المدونات بحاجة لكل هذه التفاصيل، لتؤكد مدى البؤس الإنساني في ذلك الجزء من العالم، المسمى دار الريح، أم لا؟!

ففهم هؤلاء وأولئك المأساويين سواء كانوا فقرا أو ملوك، يتوقف على إعطاء أنفسنا فرصة للتأمل في الافكار العامة.. البانوراما.. الشرائح التاريخية، لنتمكن من شق دروب جديدة للمشاعر، لتشارك هذه الشخصيات بؤسها العام..

وربما أن كل الأمر خدعة، وليس ثمة بؤس في الواقع، سوى بؤسه هو شخصيا، الكلس.. الذي يريد إسقاطه على جداريات التاريخ، أو مدونات دبك.

حتى لا يعود هناك تاريخ أو مدونات، بل شيئا آخر يرضي نزعته الشريرة كمهاجر مأزوم، تقطعت به السبل إلى البلاد الكبيرة..

رغم إشعاله المدفأة إلى أقصى حد ممكن، إلا أن الشقة كانت لا تزال باردة برداً مزعجاً، دفع الكساندرا لتندس في السرير..

كانت قد إنتظرت الحب طويلاً، ثم أنطوت على نفسها، ونامت وهي تقول من خلال نعاسها:

"عاصفة ثلجية في الطريق.. أخاف أن أنام في بيتي وأنا أترقبها، أشعر هنا بأمان أكثر"

ألقى بنظره خلال النافذة،كأنه يستقرأ الطقس، فهو لا يثق كثيرا في تنبؤات مراكز الإستشعار..

لم يتوصل إلى شئ، فعاد منصرفاً إلى مدوناته مرة أخرى.. ليلوح في عتمَّة المدونات، القليل من وجه غلوريا، كظل خفي داخل ظلال الأوراق. المزيد من وجهها يضيء ببطء، وهي ترد بيدها خصلة نافرة، تغطي العين والخد. يتبدل الوجه في الظلمة، فيلوح محله وجه الكساندرا، الذي سرعان ما يغيب في شخيرها، مفسحاً لوجه مسك النبي، شهرزاد، فاطمة السمحة، أمونة، بنت فدرالله، بنت مسيمس وأم حجل..

تتبدل الوجوه سريعاً،كالهاربة بحثاً عن النجاة، في عالم ظلال المدونات.. تختفي مبادرات الحب، فيما يشبه البرود، فالحب الحقيقي، يتجمد في لحظة المبادرة فقط.. يتحنط، لتتخلد هذه اللحظة وحدها دون أي تفاصيل.. تضيع التفاصيل..

ما الذي بقى من تفاصيل علاقة مسك النبي بأبي جريد؟.. لا شيء سوى التنهدات والأنات الذاوية.. كل سيرة حياتها البرية مع صيد الخلا، على ضفاف الوديان، وفي البراري الغامضة ضاعت..

فقط لحظة المبادرة.. القلق المزمن. عش القمرية والفراشات المحلقة، في لحظة المبادرة.. هذا كل ما تبقي..

ترى من كانا حقا "أبو جريد ومسك النبي".. من أين أتيا؟ أين عاشا قبل ذلك؟.. الأسئلة تحترق في نار المدونات، التي تنطوي على أكثر مما تفصح، فلا يبين أثر للأشرمين، المحمولين على أجنحة الحمائم، يغادران دار الريح إلى الأبد، فتغادر الحمائم بعدها، كامل حدود البلاد الكبيرة..

٧

ديبي بكوابيسها وأوهامها أو دون ذلك، هي غريبة الأطوار في تكوينها، فلا شئ في هذه الدنيا يجعلها تحس بغبطة وسرور عظيمين، مثل الحديث عن تصميمات الثياب الداخلية، خاصة سراويل ومنهدات فيكتوريا سكريت، وعلاقتهما بالإغراء والمتعة، والتماهي أقصى حدود الحياة..

ولذلك كان يطيب لها الحديث بصدق منقطع النظير، عن تجاربها الجنسية العديدة، والرجال الذين ألتقتهم منذ زمان بعيد، ولا تزال تحن إليهم..

هذا النوع من الأحاديث يريحها، وهو الوحيد الذي تتناوله بصدق وصراحة، عدا ذلك يستطيع الكلس أن يزعم، أنها كاذبة كبيرة كشهرزاد، وهو على أي حال يحب النساء الكاذبات، فهن كالشعراء الجيدين..

في كل يوم من أيام رحلتهما بالقطار، كانت لها كذبة جديدة، عن حياتها المأساوية، وفشل زواجها وهزيمتها الأسرية، وطفلها الذي يعتقد أن بن لادن، هو المسيح شخصياً، فيبكي في الهزيع الأخير من الليل -إنه يشك أن تكون متزوجة حقاً! ولها طفلين معاقين كما زعمت!!.. يشك في كل حكاياتها، وفي كل ما يحيط بها، شكه في شهرزاد غفواته المؤجلة.. إنها محض باحثة عن ذاتها، خارج سياق الذات!- أعتاد حكاياتها، فكان عندما يمل ثرثراتها، كل ما يفعله هو الإنكفاء على الواشنطن بوست، أو أيا كان إسم الصحيفة التي بين يديه..

ينكب بعينيه على السطور، دون أن يشعر بأنه فعلا يقرأ شيئاً.. لم يكن يرى بين السطور سوى شهرزاد.. فالصحيفة تصبح لحظتها ألف ليلة وليلة، تدفعه دفعاً للغوص في الحكايا، فيتناهى صوت ديبي متنائياً، متلاشياً كأصداء بعيدة.. وتنام.. فيغفو هو الآخر ثم يفيق.

في الواقع ما يجعله يفيق من غفواته المؤجلة، ليس شيئا آخراً، سوى أنه لا يستطيع النوم، بسبب بعض الأصوات، التي تختلط ببعضها البعض، ممتزجة في رأسه بالريح العنيفة، والقطار يمضي بسرعته الرهيبة تلك..

تردد أمام إنكفاءة ديبي، عدَّل من إنحناءاته، وهو يتفرسها للمرة الأولى. تتخلل خياشيمه برائحتها. تلك الرائحة الأشبه بالروائح الليلية الدبقة، في ليال الصيف

الحارة، ذات الرطوبة العالية.. الرائحة المزيج من رائحة النباتات العطنة، والعرق الزنخ والهواء الخانق. الرائحة التي تذكره بجانو قرمط، الموالي، المعتزلة، الخوارج وكل المهمشين، الذين حلموا بالعدل والحرية، في عالم مفتون بالبؤس والطغيان..

رائحتها تشبه رائحتهم تماماً.. ربما أن بعضهم ليست له هذه الرائحة العطنة، الغائرة في التاريخ.. ربما.. فتح النافذة نصف فتحة للتهوية دون جدوى.. الشعراء خصوصا ليس بإمكانهم، التوقف عن إصدار مثل هذه الرائحة، الشعراء لكي يكفوا عن إصدار هذه الرائحة، يتوجب عليهم مغادرة أحزانهم الأزلية، إلى فضاءات ممطرة، تغسلهم بفيضاناتها.. تغمرهم كما غمرت قوم نوح.. غسلتهم في الحقيقة، بعد أن انتظرت طويلاً أمام مضاربهم، دون أن ينتبهوا لها، فقد كانوا هائمين في غفواتهم المؤجلة.

جميعهم دفعة واحدة، في غفوة واحدة، عميقة. حالت دون أن ينتبهو للطوفان، دون أن يدركوا أنهم في قلب غفوتهم تلك، يشاهدون حُلماً واحداً مؤجلاً هو الآخر..

وكان الماء وقتها قد بلغ الحناجر. وصل أعماق حروفهم. خلخل كلماتهم وبعثر أجراس قوافيها، أكاذيبها، موسيقاها.. أغرق كل المعاني والأخيلة والصور، ورمى بتشبيهات البلاغة، في رائحة العطن المبتل في الطوفان..

لحظتها فقط أفاقوا. ربما لحق بعضهم بنوح. ربما لا. وفي كل الأحوال، ثمة معلقة جميلة سينحتها أحد الناجين على قمة جبل نوح، وهو يلفظ أنفاسه الآخيرة، مخلداً هذا الطوفان العظيم.

لكن شعراء مداهنين يتآمرون في اليابسة.. يتجاهلون الطوفان ذات نفسه، يتجاهلون الحمامة ذات نفسها. الحمامة التي دلتهم إلى اليابسة، فيخلدون نوحاً ويكتفون بذكر الطيور، العصافير، الزرازير والطوفان ذات نفسه ذكراً عابرا!..

الطوفان والحمامة هما بطلا حكاية الخلق الثاني..كبطولة إبليس في قصة الخلق الأول.ا لطوفان والحمامة يرتبطان بتلك الرائحة: هل شم أحدكم رائحة نباتات معونة النيل، أو قفص الدجاج، أو عش الحمام؟!..

ليس بإمكان الشعراء التوقف عن إصدار تلك الرائحة، رائحة التاريخ، المزيج من رائحة النباتات العطنة، والرطوبة العالية.

لن يتمكن الشعراء من الكف عن إصدارها، وإن شمروا قوافيهم وسراويلهم، ومشوا عرايا في لجج بحور الفراهيدي اليابسة، مشية بلقيس على صرح سليمان الممرد..

ألم يكن الفقير سيد الرويكيبة شاعراً فحلاً، تمكن ببيت من الشعر من إقناع العذراء، التي رفضت قبوله بعلاً.. كانت قد رفضت المشاط وأخذت تبكي، فتقدم منها. قبلها على رأسها وهو ينشد ويغني ويرقص ويزغرد:

"يا دي العروس البكاية * غاروا عليك أهل الراية * جعلوك قصبة وشاية"

ضحكت العروس ورضيت، فأخذها معه قاصداً الحج مع حيرانه المقربين، فانقطعت بهم السبل في الصحراء، فخاف الحيران وسربو ا مخاوفهم:

"يابا الفقير الريح تخلفت علينا، وخايفين فوات الحج"

فرد عليهم:

"أبشروا بالخير، البارح رأيت النبي، عندما أختليت.. مرقت روحي من جسمي، وعرجت على السماوات، فسمعت الخطاب الإلهي، وخاطبتني الملائكة. نعم رأيته. رأيت النبي (ص) وجبريل يمينه، والصحابي الجني شمهروش قاضي الجان يساره.. حملني جبريل صاعداً بي، أسأله أن يرجعني عند كل سماء فلا يرضى، إلى أن دخلنا البيت المعمور، فولاني على مكة، ثم المدينة، فمضيت إلى الرسول (ص)الذي كان مختلياً ساعتها، فمنعني الحُجاب من الدخول عليه. فانتهرهم، ودخلت عليه فوجدته مستقبلاً القبلة، إلى جواره الخضر عليه السلام، وعلي إبن أبي طالب وبلال الحبشي، والفقير عبد القادر الجيلاني، والفقرا -خلفاء القبل الأربعة- ثم وجدت نفسي في عرض البحر، أحمل ياقوتة حمراء، مثل نقاوة النحاس، والنبي قاعد في رأس مركب، وجبريل ماسك الصاري، وأنتم يا فقرا تركضون من هذا إلى هذا، وتقرقرون تمسحون عن أشداقكم زبد الضحك"..

ولم يلبث الحيران إلا هنيهة، حتى وجدوا أنفسهم في مدينة الرسول الكريم (ص) حيث جاءهم الأغا، وأخبرهم أن النبي (ص) أمره بإكرامهم، وأن أهل الحرمين وكائنات الربيع الخالي، عن بكرة أبيهم يعتقدون في الفقير سيد الرويكيبة، وقد سلكوا عليه طريق القوم.

أحد كتاب الواشنطن بوست يكتب ساخراً، أن طاغية دار صباح، بعد أن هدد شعبه بالتنكيل وتقطيع الأوصال، وعد شعبه مرتعد الفرائص، بإنجاز الأعمال الطيبة، وأنه سيكون نزيهاً وشريفاً وعادلاً، ولن تعبر شفاهه أي أكذوبة أو غيبة أو نميمة أو أي تلميح، حتى إذا أستحقه خصومه الكفار وأعداء الدين والوطن، والأهم من كل ذلك، أنه بعد الآن لا يأبه لمن يشرب العرقي أو المريسة، أو البنقو.

ولن يجلد أو يسجن أحد لمثل هذه الأسباب، إذا تم إنتخابه، فهذا سيكون أول مرسوم دستوري له..

ويضحك كاتب الواشنطن بوست مستخدما لغته الرفيعة -بالطبع لشدة جهله بأحوال وحالات البلاد الكبيرة- محللاً أن الامر ليس "فهلوة" إنتخابات للحصول على أصوات "الناخبين" فهو أمر يتعلق ببناء الشعب، هذا الكائن المزعج، الذي ارهقه فقرا السياسيين..

الأمر يتعلق بالسكان الأصليين، الذين لا يعرفون لهم وطناً آخر غير البلاد الأسيرة، إذ ليس لهم أي إمتدادات خارجها، تجنح نحو مصر المؤمنة أو تركيا المنفصمة، أو إمتدادات الربع الخالي أو شمال أفريقيا..

الأمر يتعلق بهؤلاء الذين يخضعون لمنطقهم الخاص، الذي يسمح لهم فيما يسمح -للأسف- بالنكوص عما قرروا أن يكونوه أو يفعلوه، ولهذا السبب بالذات تفتتت حركات المقاومة المسلحة في دار الريح أميبياً، ومع ذلك قادتها عُمِّي البصيرة، يسخرون من ظل الله في الأرض، ومن نواياه الحسنة،

المدعومة مباشرة من الذات الإلهية، دون وساطة رجال الدين و الأنبياء والفقرا وعترتهم!

مع أنه كان بحكم المؤكد، أن طاغية دار صباح، سيلفظ أنفاسه الأخيرة ذات يوم، في إحدى الزنازين الكئيبة بلاهاي، دون أن يخطر على باله ترديد الشهادة، ستوثق حينها محكمة لاهاي والميديا العالمية، والشعراء الفضوليين أقواله واحتجاجاته الأخيرة، ضد كل الآلهة التي خذلته خذلاناً مبيناً:

"لماذا تركتم الحصان وحيداً، وقد فعل ما فعل لإرضاء قداستكم؟!"

سيودع هذا العالم كئيباً حزيناً وبائساً ومنهاراً، وسيكون العالم تعيسا من دونه -كما يظن- دون أن تتأجل غفوته الأخيرة، وكل الشهرزادات اللائي ورثهن بوضع اليد، بعد مقتل أزواجهن في ظروف غامضة، سيكفن عن حكي أي حكاية، سوى حكاية وحيدة، عن مريض ممسوس، صاحب كرامات إنتخابية..

كان المطر قد توقف لدى وصولهما دالاس، وكانا قد قررا مواصلة رحلتهما بالبص. إشترى تذكرة لفينيكس، وأشترت تذكرة للوس أنجلوس، في البص نفسه..

بتوقف المطر كفت عن إصدار تلك الرائحة، المزيج من الروائح الليلية والنباتات العطنة والهواء الخانق. فكان سعيداً برفقتها للمرة الأولى منذ ألتقاها في بلتيمور.

عرض عليها أن يقضيا ليلتهما في فندق ويمض كل إلى حال سبيله صباحا فوافقت دون تردد..

في غرفة الفندق الصغير،كانت قد خلعت تنورتها وارتدتها أكثر من مرة، في إنفعال واضح..

جلست بعدها على أحد المقاعد. شبكت يديها وأنتظرت تترقب خطواته..

على الرغم من ظروف هربها كانت تشعر بهذه اللحظة،كإحدى اللحظات القليلة المميزة في حياتها. بما أمتلأت به من مغامرة لا منطق لها سوى الرغبة العفوية..

أطل وجهه يفتح الباب. انكب عليها بكل جسمه، كانكبابه على مذكرات دبك..

تحت السماء المكشوفة التي تظلل الميناء البري، الذي سارا فيه يقومان بجولة سريعة دون أن يتعرضا للبلل، إذ كانت بعض الأرصفة لا تزال مغمورة بالمياه، وبعض الحجارة مغطاة بوحل طازج، يصدر رائحة ناعمة، لكنها مع ذلك محايدة.

رائحة ليست كريهة كرائحة الدبق، الذي تحمله معونة النيل، أو أغصان الأشجار المتساقطة، في وديان أزوم وسجلو والله مرقا وبلبل دار منقرة وفور برنقا...

القسم الثاني:

١

على الرغم من أن الكساندرا مسكونة بتاريخ أبويها، إلا أنها في الواقع على عكس ما كانت تدعي، فقد وضعت منذ وقت بعيد، حداً حاسماً بين الماركسية ومصالحها، كبرجوازية عتيدة، حتى أنها -كالماركسية تماماً، لا تحترم الفقراء فتحرمهم تفجيرطاقاتهم، وتمنحهم الحد الأدنى نيابة عنهم، وتعتقد أن كون المرء ماركسياً، فهو يخاطر بتحويل الفقراء إلى جلادين -بالطبع لأسباب عاطفية تستثنى والدها، إذ تعتقد أن عقله مفتوح، فهو يشرب الكوكا كولا ويأكل البيرقر لتأكيد موضوعيته- مغضوب عليهم، وهذا يهدد السلام النفسي، لهؤلاء الفقراء وإلى الأبد.

من جهة أخرى، ليس ثمة عاقل يرقب في حرمان نفسه متع الحياة القصيرة، قبل أن ينتقل بصورة حاسمة إلى ضفتها المجهولة الأخرى، حيث لا يدري ما الذي ينتظره بالضبط، فلماذا يضحي بمتع الحياة؟.. الشيوعيون -وليس الماركسيون- هم الوجه الآخر للفقرا المهاجرية الغرباء!.. يرغبون في إقناعنا بصورة عن الإنسان، لا يمكن أن تتحقق إلا في الكوابيس والأحلام المزعجة!

أنهم يريدون أن يحملوننا في مركب يمخر بنا عباب البحر، في الوقت الذي نحن فيه، في بيوتنا نشاهد مآسي العالم، على شاشات تلفزيوناتنا العتيقة.. إذن من هم أولئك الذين على ظهر المركب وفشلوا يغنوا؟!..

تحت ظلال الأوك.. في حديقة حيوانات سالسبري، لطالما جلس وغلوريا، يتبادلان الأحاديث الناعمة، ويضحكان بأفواه ممتلئة بـ "البب كورن".. تتبدى غلوريا إمرأة رائعة كمغنيات كازينوهات أوشن سيتي.. كأنه يراها للمرة الأولى.
مرات عديدة تلك التي كان يشعر فيها، كأنه يراها للمرة الأولى.. غلوريا تختلف عن الكساندرا كثيراً، فهي لم تشيد مثلها عالماً أسطورياً زجاجياً تنظر من خلاله، إلى عالم أبويها فيما يشبه الحنين، الذي يعيشه المنبتون لتأكيد ذواتهم غير المؤكدة، وحاجتهم لخصوصية مفتقدة، مزعومة أو متوهمة.. أو هي حقيقية بالفعل!..
هذا الحنين الذي يشعله الشعور بالإنبتات عن الوطن الأم..
لكن غلوريا تهتم بالباراسايكولوجي، ودراسات الفونومينولوجيا، لذلك لم يكن غريباً، أن تبدي نوعاً من الإهتمام، بمدونات دبك عن الفقرا، كما أنها تعتقد، أن هذا الجزء بالتحديد، لهو جزء من حنينها الخاص، أو ما ظلت تسميه "بالشئ الذي أبحث عنه"..
وبطبيعة الحال أيا كانت الطريقة التي تفكر بها، هي بعيدة كل البعد عن أن تدرك، حقيقة عوالم معقدة كعوالم هؤلاء الفقرا..

وبعد كل هذا الوقت، الكلس نفسه لا يستطيع الجزم، بمعرفته التامة لهذه العوالم الغامضة، التي أورثها له دبك، وكل ما يستطيع أن ينصح به الآخرين في شأنها، هو كلام عام خجول، قد يكون مهماً كما يتصور محدثه، لكنه قطعاً لن يفيده في أي شئ، كما أنه ليس ثمة عاقل، يرقب في الإصابة بمثل هذه الفيروسات، التي تعج بها مدونات دبك، الذي لم يكن في الواقع يؤمن حقاً بما ظل يدافع عنه، وخاض في سبيله صراعا مميتاًّ!

كما أنه لوبقي حياً، أو لم يغادر البلاد الكبيرة لوجد نفسه محرجاً جداً.. إزاء أسئلة محيرة حول مدى صواب أفكاره، وهل أن الآخرين "المهمشين" موضوع دفاعه، يعتقدون فيما يعتقد؟

أم أنهم يفتقرون للايمان بأي شئ، سوى عوالم الفقرا المهاجرية والغرباء، كقوى محركة لتاريخ البلاد الأسيرة، وفاعلة في هذا التاريخ، صاغت حياة الناس على ما هي عليه الآن!

حركة وحيدة متبقية على رقعة الشطرنج.. حركة واحدة فقط لا يمكن القيام بها، إلا إذا قررنا إنهاء اللعبة. هذه النقلة الأخيرة، ظل الفقرا المهاجرية على الدوام يتجنبونها، لأنها ببساطة تعني:

"كش فقير مهاجري"

وهذا يعني ببساطة موت طاغية دار صباح في كل العصور والأزمان، منذ سالف الذكر الأرباب، حتى اللحظة الراهنة التي تتنازع فيها الأحزاب!..

إذن المشكلة هي الموت، الكلس نفسه مؤخراً أصبح مسكوناً بهذا الموت، لا يدري أين سيموت ولا كيف.. كل ما يعلمه أنه يتوجب عليه الإستمرار، في

عيش حياته هنا أو هناك.. ليس على طريقة إنتقال الفقرا المهاجرية، الذين ببساطة لا يتقبلون فكرة الموت، ويتصورون أنه أسوأ من الحياة، لا العكس!..
في الوقت نفسه لا يريدون أن يقتنعوا بأن الإنسان، هو ما هو عليه فعلاً، ولا نملك شيئا إزاء هذا الأمر، فالإنسان يأكل ويشرب، ويشتهي النساء ويزني، ويحتسي الخمر ويدخن الماريجوانا أو الحشيش، ويرتكب السبعة دون ذمتها، ومع ذلك يدخل في رحمة الله، التي وسعت كل شيء، فماذا نحن فاعلون فيه! علينا أن نتقبله هكذا، حتى إذا أضاف إلى خطاياه "ذمته"..
رجال الدين والفقرا المهاجرية والغرباء والمهمشون، يندرجون تحت تصنيف الإنسان.. كذلك القوادون والمومسات.. أصحاب السوابق ودهاقنة التعذيب في بيوت الاشباح.. بنات الرصيف والمحتالين، الذين "يلبسون البسطاء الطواقي".. الأصدقاء والأعداء جميعهم دون فرز.. كل هؤلاء يندرجون، إلا طاغية دار صباح فتصنيفه مختلف، على الرغم من أنه ليس بالإمكان إستثناء أحد، حتى لو صب الإنك المذاب في فرج شهرذاد..

٢

في تلك الظهيرة الغائظة من آخر أيام زيارته، لمسقط رأس أبيه، ودعه عمه إلى محطة القطار في نيالا. كان في طريقه من دار الريح إلى دار صباح، بعد

غياب أربعة أشهر، تجول فيها كعادته في كل أنحاء دار الريح.. زار حتى تلك النقوش التي على جدر كهوف عين فرح، ولأول مرة يشعر أنها لا تكفي كنقوش، لتخليد أحوال الناس والمكان، فالنقش على الصخر يحميه الصخر نفسه، لكن لا فائدة من النقش طالما ان أحدا لا يقرأه، أو لا يتمكن من فك رموزه، لقراءته وفهم فحواه.. هكذا تمحي أحوال المكان والناس، فتتناهشهم الحروب، ويؤولون إلى معسكرات النزوح واللجوء، فهم ليسوا محميين إلا إذا فكوا أسرار لغتهم.. حروفها وتلك النقوش المحمية، التي تكشف عن هويتهم وأحلامهم المؤجلة ..

إلى جواره في القطار جلست شهرزاد:

سمراء نحيلة باسمة الوجه، تحمل في يديها ألف ليلة وليلة بخجل، كأنه ليس كتابها الذي ألفته بحكاياتها، ومواجدها وتوجداتها.

كانت شهرزاد أضعف من أن تقوى على السفر، في مثل هذا القطار، الذي يختلف عن كل قطارات الدنيا، بالنسبة له -في ظروف غير هذه الظروف- السفر في مثل هذا القطار "محنة" أكثر مما هو نزهة محببة.. لكن في الواقع حيث يوجد قطار مثل هذا القطار، يوجد حزن كبير خفي، كالحزن الذي تنطوي عليه أغنيات الجراري، فيجعل العربان المساكين يتبعون مواشيهم، لا يلوون على شئ.

أنه نوع مجنون وغريب من الحزن، يدفعه إلى تسلق نفسه في هذه اللحظة بالذات.. فيصعد ويصعد.. يصعد عله يرى الأب الذي في السماوات، أو الأنبياء القدامى والمقدسين، يمدون أياديهم يشدون على يديه، فقط يشدون على يديه،

وعندما يتركونه وحيداً، يتمنى لو رفعوه معهم إلى حيث تغيب الحياة، في حياة أخرى مغايرة لمعناها، في هذا الكون الرهيب، المثقل بالهزائم والكوارث! والذي يجعل من الحياة على سطح هذا الكوكب، شيئاً محفوفاً بالمخاطرة..

عبر نافذة القطار لا تمر صور يمكن للذاكرة تمجيدها.. فقط الأراض الزراعية الشاسعة، والعشش الفقيرة والمحطات المتنائية، التي تتخللها شجيرات القضيم والسناسنا وأشجار الأبنوس والتبلدي و.. والرمال الساحرة.

ليس ثمة آثار مقدسة لقديسين، ربما أضرحة خفية متفرقة هنا وهناك.. أضرحة لأولياء.. أو مقابر شهيرة لعلية قوم على طريقة أم كيكي الحزينة، لكن ليسوا نجوم مجتمع بالمعنى الذي تعرفه دارصباح!

هنا ليس ثمة أثر حضاري خلفه الأتراك أو الإنجليز، أو أثر أعمق ببقايا يونانية أو هيلينية.. لكن مما لا شك فيه، ثمة روح إحيائية أوهرمسية أو غنوصية هائمة.. ضلت طريقها من غابات أفريقيا وبلاد الهند والسند وفارس إلى هذه الأصقاع القاحلة!

روح خفية تلهم الفقرا المهاجرية والغرباء.. روح تبدو كإنطواء سري غير معلن، متماهيا في مركبات الحزن والأسى واللوعة.. فقط محض معنىً دارساً ولا شيء آخر.. لكنه معنى، يخلف في النفس أثراً عميقاً لا يمكن مجابهته.. معنى كالذي واجهه الفقير المهاجري، الذي حلم برؤية العالم من العرش إلى الفرش، فقرر لقاء أبي جريد، مع أنه لم يحدث له أن رآه..

كان فقيراً طموحا يحلم برؤية ما في عقول الناس، فخرج باحثاً عن أبي جريد، وعندما عثر عليه، لم يسمح له الحجاب الجريديون بلقاءه، فخرج غاضباً قاصداً

الانحاء البعيدة من دار الريح، لسلوك طريق القوم على يدي راجل الحرازة أم قد!
مشى بجمله لأيام وليال بين السباسب والوهاد، إلى أن رمته المقادير في مكان ليس فيه شجر أو بشر، وهو يمشي في تلك البرية على تلك الحال، من أول النهار إلى قرب الزوال، رأى "راكوبة" كبيرة فقصدها، عله يجد أحداً يرشده، فوجد مسجداً كبيراً فيه "رحل" تمر ورجلاً عُرياناً لم يبادله الحديث أبداً!
فلما دخل وقت الظهر، جاءت العرايا نساءً ورجالاً، من كل فجاج الصحراء، وكل واحد منهم قد أخذ قبضة، من جراب معلق في سقف المسجد.
فلما دخل وقت الصلاة، حضر راجل الحرازة أم قد وصلى بهم.. كان الفقير مأخوذاً، تتناهشه الدهشة! فمكث إلى وقت العشاء، فجاءه أحد العرايا وأعطاه كسرة بملاح "خُدرَّة"فأكل منها ثم مسح عليها بيده، فصارت أحلى من العسل.. وهنا أشار إليه راجل الحرازة:
"قُم"
فرأى الفقير دروباً كثيرة مثل دروب النمل، وكان أحد هذه الدروب يقابل ضوء نار، فأخبره الشيخ:
"ذلك الضوء هو ما خلفته وراءك"
فعاد الفقير المهاجري راجعا من توه.. وعندما وصل الحرازة أم قد قال له الفقرا:
"ابو جريد يطلبك"
وعندما مثل بين يديه كان متفاجئاً ومأخوذاً:

"أنت راجل الحرازة نفسه.. لقد تركتك في الصحراء!"
"نعم إلتقينا في جامع الدراويش العرايا.. ذهبت لأصلي بهم"
المعان الغامضة غالبا ما تكون لأشياء أمامنا، نراها كل يوم دون أن ننتبه إليها، أو نتوقف عندها.. مثل هذه المعان، هي ما جعلت الفقير المهاجري عند خروجه من مقابلة أبي جريد، يختلي بنفسه متدثراً بالشملة، معتكفا لا يأكل سوى القرض ولا يشرب سوى الماء الحاف، إذا ضربته بعصا حديد لما ألتفت إليك!...
كان قد حصل له إنقباض من الناس ومن كل شئ حوله، فقد أصبح يرى ما في العقول، فيأسى لهذه الحياة الأشد قسوة من الموت!
ليته لم يرى ما يرى، كان قد إكتشف الحقيقة التي كانت ماثلة أمامه طوال الوقت..كم هي مخيفة هذه الأفكار التي في عقول الناس، ولكم هم سيئون، لذلك كم هو بائس هذا العالم.. لكن لم يكن ثمة طريق للرجوع!

الحكايات التي يتبادلها ركاب القطار الفقراء البؤساء، الذين يحملون معهم دواجنهم ومواشيهم وحقائب الصفيح الكبيرة، وسحارات الخشب ولا يتخيلون على الإطلاق، أنهم يوما ما سيقدر لهم ركوب الطائرة أو البحر، مغتربين أو مهاجرين عبر بحر مالح، أو عبر سماء حاضرة دار صباح.. هؤلاء الحزانى الطيبون تلوح وجوههم،كل وجوههم في وجه شهرزاد، التي يطل لحظتها من عينيها، فرح خفي كالحزن الذي تنطوي عليه أغنيات الجراري الأسيانة!

منذ أن حل القطار بالضعين، لم تهدأ حركة الناس، في هذه المدينة المقفرة الكئيبة، ببيوتها الواطئة الضيقة، التي يعيش فيها أبناء الشعب ماضيهم دون حاضر أو مستقبل، كأغلب مدن دار الريح!

الشيء الوحيد الذي يميز الجميع، أنهم يعيشون جنباً إلى جنب: علية قوم وشيوخ وعوام!

ترى ما الذي يمكن أن تقوله حاضرة دارصباح، التي عما قريب لن يكون فيها سوى الأحياء الخاصة، والخاصة جداً بحدائقها الأشد خصوصية، حدائقها المحروسة بالكلاب المتوحشة.. حدائقها التي لن يستطع العامة المرور قربها، دون أن يتأذون من الكلاب المتوحشة!..

وعلى أيةِ حال لن يستطع أحد من العامة، أن يعيش في مثل هذه الأماكن المرعبة، فالعامة غير معتادون على التعايش مع الكلاب.. نباح الكلاب "يرفع ضغطهم" ويثير جنونهم ويجعلهم موتورين..

نباح الكلاب جعل نصف العامة من قبل، يبيعون بيوتهم ويغتربون، أو يهاجرون إلى بقاع الارض المختلفة، الآن ليس نباحا شريراً فحسب، بل يصحبه عض وحشي، ينتقي العوام بحذق.. هل سمع أحدكم أن كلباً متوحشاً، عض سياسي كاذب كأغلب السياسيين، ويخطط منذ الآن لحكم العالم، أو صحفياً مرتزقاً، أدمن التعيش على فتات البلاط الجمهوري، أو كاتباً متواطئاً، غاية أحلامه تسويق وتبرير ممارسات الطُغاة؟!

الكلاب المتوحشة لا تعض سوى الشعراء والعوام، فهي لا تكره سوى الشعب.. لذلك سيغادر من تبقى من الشعب، دون أن يأبه لزحف الطامحون الزائفون،

الذين أدمنوا هدم البيوت الواطئة، ولن تكون هناك سوى البيوت الخاصة، المزينة بالحدائق التي يملك أغلبها طواغيت دار صباح.. متواطئيها ومرتزقتها وعلمائها "الشرعيون" وسياسييها الأدعياء.. لا عوام بعد الآن.. عاش الشعب..

٣

كانت السماء تمطر ثلجها، وشوارع برينسس آن تكاد تخلو من مارتها المألوفين، الذين يعرفهم البوليس جميعهم، فهي بلدة صغيرة، ليس فيها سوى شارع واحد و"ترافيك لايت" واحد وعربات سكانها جميعا طاعنة في السن، كعربته الشيفي اللومينا موديل ١٩٩٦فهم فقراء، حتى أن صديقه الذي يكاتبه سخر منه:

"يبدو أنك مغرم بالحياة وسط المهمشين أينما ذهبت!"

"إنه قدري. لا أدري أين يذهب هؤلاء "غير المهمشين" الذين نسمع عنهم؟!"

في هذا الوقت نفسه، كانت طائرات دار صباح العسكرية، تقصف القرى والحلال، ومخيمات اللاجئين في دار الريح.. ورصاص الجنكويز يحصد أرواح الشيوخ والنساء والأطفال!

كان يسمع في هذه اللحظة بالذات، صرخات الجرحى والنساء المغتصبات، فيستيقظ مبللاً بالعرق، في شقته الغارقة في صمتها الليلي الكئيب!

لولا رداءة الطقس في هذا الجزء من العالم، والذي لا يدع لأحد مجالاً للراحة.. لولا ذلك لكانت برينسس آن بلدة رائعة حقاً، فهي لا تخلو من الجميلات كالكساندرا، بل تشهد مؤخراً هجرة مريبة، من جميلات الولايات المختلفة، لكن لكم هو قصير زمن الهوى!

لطالما كانت الدورة الشهرية لغلوريا تبدأ كل شهر، في مثل هذه الساعة من الليل الكئيب.. يندلع الدفق، الذي يجدد خصبها الأنثوي، ويوقظ مكامن الدفء ببطء شديد!

كان الضوء الشاحب البارد الكامن في شقته، أقرب إلى لون الليل نفسه، يرشح من الصالة عابراً السلم إلى غرفة نومه!

كان ضوءً غريباً يلقي بنفسه من أسفل إلى أعلا، حاملاً معه طيوف أثاث الصالة: أشباح أواني المطبخ، ظلال السفرة، ضبابية الحمام، وبوح الغرفة الأخرى الخالية، التي تفصل بين غرفة نومه، وشقة الكساندرا المجاورة، التي لا تكف عن التوجع!

شعر بصداع قوي، فتناول قرصين من التايلينول، ونام نوماً متقطعاً، إسيقظ خلاله عدة مرات، مهاجماً بأحلام مبتسرة، يرى فيها غلوريا تستحم في سهل كبير، والهنود الحمرمتحلقين حولها، يرقصون رقصة الخصب، وأشعة الشمس المنعكسة على الرمل، تصنع طيوفاً سرابية كأرواح هائمة!

كان يرى نفسه يغرق في هذه السهول، فيتشبث بريشة سقطت سهواً من رأس أحد الهنود، تفلت الريشة من يده فيصحو.. وعندما تداهمه غفوة أخرى، يرى راجل الحرازة، مقبوراً. فينبش قبره -لم يكن القبر خالياً، كما حاولت مدونات

دبك إيهامه- ينزع عنه ثياب الموت، يجده هيكلاً منخوراً كغيره من الهياكل!.. هيكلاً متجرداً، كان ذات يوم مكسواً باللحم والعضلات، ويرتدي جُبَة مرقعة، ويمارس هواياته ورغباته ككل الناس.. حتى أنه يضحك ويغضب مثلهم.. ضعيفاً وهشا مثلهم!..

يتداخل وجهه بوجه ديبي.. بوجه شهرذاد، التي أنهكتها الحكايات، فغرقت في نوم عميق.. يميل رأسها فيسنده بكتفه برفق، ويتأمل وجهها الحالم النائم -هل تنام الوجوه؟-

كان القطار لا يزال في الضعين، تلاحقه روائح المهمشين.. المهمشين تلاحق روائحهم القطارات.. يحاول إغلاق أنفه، لا يريد أن يشم رائحة جلودهم، التي أحرقت هنا، في هذا المكان بالتحديد، وربما في هذا القطار نفسه..

هذه الروائح التي أعتقد مهمشون آخرون أنها نتنة، فأحرقوهم عن بكرة أبيهم، بعد أن حاصروا بخيولهم القطار.. تحولت روائحهم، إلى شبح رائحة عميقة.. نفاذة تخرج من أعماق السكة الحديد،كلما مر قطار دار الريح والصعيد بالضعين..

ورغم مرور كل تلك السنوات، لازال هناك من يزعم، أن روائح الزنوج والمهمشين سيئة للغاية، ولا تطاق، شبيهة برائحة الحيوانات البرية، وأسوأ من رائحة البصل والتوم..

هؤلاء المهمشين الذين تتناهب أجسادهم الكلاب المتوحشة، لا ذنب لهم سوى أنهم فقراء، لم ينالوا حظاً كافياً من التعليم، أو ليس لهم منه نصيب مطلقاً، فهم محض فقراء، قادمون من بوادي وفيافي وغفار، ينهب الطُغاة

ثرواتها، مثلما يثقلون بالضرائب على كواهل المهمشين الآخرين، القادمين من بيوت الطين والقش، الذين يولدون ويموتون في الأزقة والحواري الضيقة، فهم كغيرهم من المهمشين عموما، مزارعين سُخرة، يحفرون الآبار ويرعون البهائم، وأياً كان مقدار ما يبذلون من جهد، لا يمكن هم من الحصول على احتياجاتهم واحتياجات أطفالهم الأساسية، لذلك رائحتهم كريهة كرائحة الشعراء، حتى لو لم يكتب هؤلاء الشعراء بيتاً واحداً!..

هذه الرائحة هي رائحة المعتزلة، الخوارج والقرامطة نفسها.. فهم مثل هؤلاء، محض بدو أقحاح، شكلوا القوة الضاربة لجيش الغزوات تحت قيادة مضر، أو موالي لا تزال تطاردهم ذكريات الاسترقاق..

ذات الرائحة رائحتهم.. رائحة العطن الدبق في ليالي الصيف المكتومة، التي ستشكل آيدلوجيا التمرد على الرائحة السائدة في دار صباح، رائحة مضر.. حيث لا يتوجب بعد ذلك إحراق الشعراء، والمهمشين.

أو إطلاق الكلاب المتوحشة عليهم، ليضطروا لمغادرة البلاد الكبيرة، إلى جديد بإمكانهم أن يحصلوا فيه على العلاج، والثياب والكتب المدرسية لأطفالهم.. وطن يستطيع أطفالهم، أن يجدوا فيه الحماية الكافية ضد تقطيع أوصالهم البريئة..

ترى هل خطرت مثل هذه الأمور، على بال شهرزاد وهي تحكي لشهريار، الذي "تمدينت" الدولة في عهده، فأصبحت الكازينوهات والملاهي وعلب الليل في كل مكان!

ماهو الوطن؟.. ما هو المنفى؟..